

السنة السادسة - العدد الحادي عشر - ١٤٢٠ هـ.

كلمة التحرير

ميقاتُ الحجّ - إذ تطوي عامها الخامس - تتمنّى أن تكون أدقّ بياناً وأكثر استيعاباً ورؤى لكلّ ما يتعلّق بفريضة الحجّ المباركة في أيّامها المعلومات وفي مفاصلها المتميزة مناسك وأحكاماً وآداباً وتأريخاً ومفاهيم عبادية واجتماعية وسياسية واقتصادية .. تتجلّى فيها كلّ المعاني الجميلة وكلّ القيم المباركة .. في عبودية صادقة لله تعالى، وفي انقياد تام له والتزام أكيد بتعاليمه وأحكامه، وفي رصّ صفوفهم عبر وحدة متماسكة ضدّ أعدائهم ومخططاتهم، وفي ثورتهم ضدّ الطغاة والمستبدين، وفي ثروتهم وبما تمدهم به من قوة واستقلال .. تتجسّد جميعها عبر مؤتمر مليونيّ سنويّ وفدت إليه النفوس وهوت إليه القلوب «من كلّ فجٍّ عميق» تلبيةً لذلك الأذان القديم الجديد «وأذن في الناس بالحجّ يأتوك ..».

وقد شاءت السماء ألاّ يقع هذا التجمّع المثير العظيم المهيّب إلاّ مرّة واحدة في كلّ عام «ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيّام معلومات ..» •.. ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم» على أقدس بقعة عرفتّها الدُّنيا وألفها الناس أمّ القرى مكّة

المكرمة، حيث ﴿..أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾. وداخل أطهر بيت «عند بيتك المحرم»، وفي أعظم مسجد «المسجد الحرام»، «ليطوفوا بالبيت العتيق» متراصين كأنهم نفس واحدة وبدن واحد وقطعة واحدة تتحرك أشواطاً متواصلة متلاحمة ..

راجيةٌ وهي تعيش سنتها السادسة أن تكون أعمق بحثاً لكل ما يخصّ البلاد الطيبة الحجاز الحبيب مكة والمدينة وما فيها وما بينهما وما حولهما مواقيت ومواقع وآثاراً وشخصيات كُتِبَ لها أن تحيا في كنف ذلك البيت، فأمنت وطهرت وتألقت إيماناً وجهاداً وتضحيةً وعلماً .. فخلفت أرقى الذكريات وأجملها عبراً ومواعظ ودروساً تنتفع بها الأجيال.

وأخيراً وليس آخراً تصبو مجلتكم هذه - في عامها الجديد - إلى أن تكون أوسع وأكثر انفتاحاً على كل المثقفين علماء وكتّاباً ومؤلفين وقراء لعلمها تحظى بقبولهم واهتمامهم كتابةً ونقداً وإرشاداً وتثبيتاً، مترقبةً أقلاماً ناضجة وأفكاراً بكرةً وآراءً رصينة وثقافات جديدة متنوعة تمدّها بما خفي عليها طيلة هذه السنين، وتكشف لها كل ما عجزت عن سبر أغواره من معالم بلد الوحي والرسالة والنبوة، وما انطوت عليه هذه الفريضة المقدسة..

ولا نجا في الحقيقة إذا قلنا: إن ما قدمته هذه المجلة المختصة - وللاختصاص كما تعلمون ثمنٌ باهظ وجهدٌ مضاعف - والوحيدة - حسب اطلاعنا في المكتبة الإسلامية - من مادة قيمة في نواح متنوعة ومحاور متعددة فقهاً وتفسيراً وتحقيقاً وتأريخاً وترجمة .. أفادت كثيراً، وجعلتها موضع تقدير، وليس أدل على ذلك من إشارات وصلتنا من الأخوة كتابةً ومشافهةً . ولا يسعنا إلا أن نقول: إنها جهودكم الكريمة التي تعانقت وتضافرت مع جهود متواضعة أخرى، فددتنا بمزيد من الثقة، وإن كنا نطمح لتتراكم هذه الجهود استكمالاً للفائدة واقترباً من الهدف، الذي رسمته وهي في أول عملها، وتحملته مسؤولية كبيرة. وإن أخفقت، أو لم يسعفها الحظ في

طرح موارد أكثر نفعاً وفائدة في عمرها المنصرم، فإنّها تمدّ يديها لكلّ من يهّمه هذا الجهد ليسعفه بما تجود به يداه وهو كريم.. فخرين هذه الفريضة بأبوابها ومعالمها لم تستوفِ مجلّتكم هذه شيئاً منه، وهو ينبوع لا ينضب ورصيد لا ينفد. فعظمته وسعته وشموله من عظمة وسعة وشمول أعظم فريضة شرعتها السماء ورعتها وأرستها جهود تواصلت لأنبياء كبار بدءاً بإبراهيم وإسماعيل... وانتهاءً بخاتمهم محمد بن عبد الله ﷺ وبأهل بيته ﷺ وأصحابه والتابعين لهم ومن سار بهداهم.

إنّ منافع ومشاكل وأسئلة كثيرة تنتظر الإجابة عنها في كلّ الميادين، وعلى جميع الأصعدة خاصة الفقهية منها محلّ ابتلاء الملايين من المسلمين. ومنبر المجلة - مع احترامه للمنابر الأخرى - وانطلاقاً من أمانة الاختصاص التي تحملها، باب مفتوح وكتاب ميسور لتلك الحلول وهذه الإجابات..

من هنا تجدد المجلة دعوتها إلى دراسة علمية واعية مستوعبة لحثيات هذه الفريضة المقدسة وفلسفتها ومفاهيمها وثمارها وآثارها على مجمل حياتنا؛ لنؤديها ولنعيشها كما خطت لها السماء وأرادتها ذات خير عظيم وعطاء دائم ومنافع كثيرة..

الحجّ في أحاديث الإمام الخميني - قدس سره -

أقدم التهاني والتبريكات الخاصة لجميع المسلمين في العالم بمناسبة حلول عيد الأضحى المبارك. هذا العيد الذي يذكّر الناس الواعين بمذبح الفداء الإبراهيمي، هذا المذبح الذي قدّم درس الفداء والجهاد في سبيل الله تعالى لأبناء آدم وأصفياء وأولياء الله، هذا العمل بعمق أبعاده التوحيدية والسياسية لا يستطيع إدراكه غير الأنبياء العظام والأولياء الكرام وخاصة عباد الله. هذا أبو التوحيد ومحطّ أصنام العالم، علّمنا والبشرية جمعاء أنّ التضحية في سبيل الله وقبل أن تكون ذات بُعد توحيدي وعبادي، تمتلك أبعاداً سياسية وقيماً إجتماعية، علّمنا وجميع الناس كيف نقدّم أعزّ ثمرات حياتنا في سبيل الله، لذا فإني أناشدكم: ضحّوا بأنفسكم وأعزّائكم وأقيموا دين الله والعدل الإلهي.

لقد عرفنا نحن ذرية آدم أنّ مكّة ومنى أماكن لنشر التوحيد ونفي الشرك، الذي من مصاديقه التعلّق بالنفس والأعزاء.

لقد تعلّم أبناء آدم من هذه الأماكن الجهاد في سبيل الله فعليكم أن تعلموا

العالم قيمة الفداء والتضحية، وقولوا له، إنه في سبيل الله وإقامة العدل الإلهي وقطع أيادي المشركين في هذا الزمان، يجب أن يخلد الحق بتمامه ببذل أي شيء حتى ولو كان مثل إسماعيل. إن إبراهيم وإسماعيل وولده العزيز سيّد الأنبياء محمد المصطفى ﷺ محطمو الأصنام ومعلمو البشرية أنه يجب تحطيم كل الأصنام والأوثان كيفما تكون. وأن الكعبة، أم القرى على امتدادها وسعتها وحتى آخر نقطة من الأرض، وحتى آخر يوم في العالم يجب أن تطهر من دنس الأصنام، أي صنم كان وكيفما كان أكان هياكل أو شمساً أو قرناً أو حيواناً أو إنساناً أو صنماً وهل هناك أسوأ وأخطر من الطواغيت على امتداد التاريخ، من زمن آدم صفي الله حتى إبراهيم خليل الله، إلى محمد حبيب الله ﷺ حتى آخر الزمان الذي يظهر فيه إمامنا المهدي الموعود ليحطم آخر الأصنام ويطلق نداء التوحيد من الكعبة. أو ليست القوى الكبرى في زماننا أصناماً كبيرة سيطرت على العالم ودعته لعبادتها وفرضت نفسها عليه بالقوة والتزوير؟! ... إن الكعبة المعظمة هي المركز الأوحـد لتحطيم هذه الأصنام وتطهير هذه البقاع من كل أنواعها.. قال الله تعالى: ﴿...وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾.

الحجّ في أحاديث الإمام الخامنّي - مد ظله العالی -

معرفة عظمة الله ورحمته في الحجّ تعني التأمل في رفع قواعد هذا البيت الذي هو بيت الله وهو في الوقت نفسه بيت الناس أيضاً .

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١)
إنّ البقعة التي يتّجه إليها الإنسان الخاشع المتبتّل ، وإنّه أيضاً محلّ تجلّي عظمة الدين الإلهي . خليط من العظمة والصفاء والبساطة ، ذكرى أوّل نداء للتوحيد ومحطّ لتحقيق وحدة الكلمة ، يحمل آثار أقدم المجاهدين في صدر الإسلام الذين جاهدوا فيه وهم غرباء ، وهاجروا منه وهم مظلومون ، وعادوا إليه وهم فاتحون أعزاء ، وطهّروه من رجس جاهلية العرب ، ثمّ هو المعطّر بشذى المتّهمدين ومحلّ سجود العابدين ، ومهوى قلوب الشاكّرين ، إنّ مطلع فجر الإسلام في البلاد ومشرق طلوع المهدي الموعود في الخاتمة ، هو ملجأ القلوب المضطّربة ومحطّ آمال النفوس المتبرّمة .

تشريع فريضة الحجّ وترتيب مناسكه يحمل دلائل العظمة ويحمل آيات

الرحمة أيضاً. بهذه المعرفة تستيقظ القلوب وبمشاهدة الكعبة المشرفة والمسجد الحرام بوعي يعود التائبون إلى الصراط المستقيم..

معرفة العدو حصيلة كل هذه الألوان من «المعرفة» ومكملة للنفوس. وبدونها يكون قلب المسلم وذهنه بدون أسوار ضد الغزاة والخونة.

إن أعمال الحج، ومنها رمي الجمار تجسيد للمعرفة ومقارعة العدو. والنبي الأكرم ﷺ رفع الأذان في الحج، وتليت آيات البراءة في موسم الحج بلسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. ولو أن الأمة الإسلامية تخلصت يوماً من وجود جحافل الأعداء وأمكن حدوث ذلك فإن البراءة ستفقد مبررها ولكن مع وجود الأعداء وعدوانهم الحالي فإن الغفلة عن العدو وإهمال البراءة منه خطأ كبير وخسارة فادحة..

الهوامش :

(١) آل عمران: ٩٦.

تحفة الكرام

تأليف: العلامة السيّد محمّد مهدي بحر العلوم

تقديم: محمّد رضا الأنصاري

«تحفة الكرام في تأريخ مكّة والمسجد الحرام» رسالة نافعة، وهي مما أتحفنا بها يراع أحد أعلام المسلمين وأئمة الدين في القرن الثاني عشر للهجرة، صاحب الحسب النبوي الشريف، والتّسبب العلوي المنيف، ألا وهو العلامة السيد محمد مهدي بن مرتضى بن محمد البروجردي الطباطبائي. ولد رضوان الله تعالى عليه سنة ١١٥٥هـ (وفي رواية سنة ١١٥٤هـ) بمدينة كربلاء، عند مشهد السبط الشهيد الحسين بن علي عليه السلام، في اسرة علميّة دينية، فوالده السيد مرتضى كان يعدّ من أعلام كربلاء وأفاضل أسرته، وللمترجم له علاقات مصاهرة ونسب بأسرة العلامة المجلسي عليه السلام (المتوفى عام ١١١٠هـ) وكان يعبر عن المجلسي الأوّل الشيخ محمد تقي بالجدّ وعن المجلسي الثاني الشيخ محمد باقر بن محمد تقي بالخال. تلقّى المترجم له الدروس أوّلاً في مسقط رأسه عن والده وعن الشيخ يوسف البحراني (صاحب «الحقائق الناضرة» المتوفى ١١٨٤هـ) ثمّ هاجر إلى النجف الأشرف، وحضر دروس أعلامها وهم الشيخ مهدي بن محمد الفتوني العاملي (ت ١١٨٣هـ)،

والشيخ محمد تقي الدورقي (ت / ١١٨٦هـ)، والشيخ محمد باقر هزارجربي (ت / ١٢٠٥هـ)، ثم عاد إلى كربلاء وتتلّمذ على كبير علماء الشيعة آنذاك وهو الآغا محمد باقر الشهير بالوحيد البهبهاني (ت / ١٢٠٥هـ) فلأزمه مدّة وصار من أبرز تلامذته وموضع اعتماده، وحينما عجز الوحيد عن التدريس لكبر سنه أوصى تلميذه النبيه بأن يعود إلى النجف ويؤسس حوزة دراسية لتربية الطلاب، وفعلاً عاد السيد إلى النجف الأشرف فحلّق حوله جماعة استفادوا من غير علمه، وصاروا أعلاماً ومنازل للعلم والتقوى اهتدى بهم الناس، وكان منهم السيد حيدر العاملي، الشيخ جعفر بن الشيخ خضر الجناحي (صاحب كشف الغطاء) السيد جواد العاملي (صاحب مفتاح الكرامة)، الشيخ أبو علي الحائري (صاحب منتهى المقال في علم الرجال) والمولى أحمد النراقي، والسيد محمد الطباطبائي المجاهد، السيد محمد الخوانساري، الشيخ أسد الله التستري (صاحب المقابس)، الميرزا محمد النيسابوري الأخباري، حجة الإسلام السيد محمد الشفقي الأصفهاني، الشيخ محمد علي الأعسم، السيد دلدار علي الهندي وآخرون.

سافر السيد سنة ١١٨٦هـ إلى خراسان فسكن ٨ سنوات بجوار مشهد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، فأفاد واستفاد، وخلال هذه الفترة حضر عند الميرزا مهدي الشهيدي الخراساني ودرس عنده الفلسفة الإسلامية، ولمواهبه العلميّة ونبوغته لقبه شيخه الخراساني بلقب (بحر العلوم) فصار يعرف بعده، واشتهرت أسرته بهذا اللقب.

توجه بحر العلوم سنة ١١٩٢هـ صوب الديار المقدسة لأداء فريضة الحجّ، فكث في مكّة (زادها الله تشريفاً وتعظيماً) سنتين ودّرس خلالها الفقه على المذاهب السنيّة الأربعة في المسجد الحرام، ولعلّ هذه الرسالة من ثمرات تلك السفارة، كما تنسب له فكرة بناء المآذن الأربع في أطراف الحرم؛ لتسهيل طواف الطائفين حول البيت.

عاد بحر العلوم إلى النجف الأشرف، وتصدى زعامة الإمامية، فصار مرجعها الأول، ومفتيها الأكبر وقد أسدى خلال فترة زعامته خدمات جليلة للطائفة المحقة وللدین الإسلامي الحنيف ذكرها المترجمون لسيرته. وقد مدحه كل من تصدى لترجمة حياته وسيرته من المعاصرين له ومن يليهم، ويكفي للدلالة على علو مقامه ما ذكره صاحب (المواهب السنية في شرح الدرة الغروية) في ترجمة السيد حيث يقول: «كان ركناً من أركان هذه الطائفة وعمادها، ومن أروع نسائها وعبادها، وهو بحر العلوم المؤيد بتأييدات الحي القيوم، محيي مدارس الرسوم، لسان المتأخرين، كاشف أسرار المتقدمين، متمم القوانين العقلية، مهذب القواعد والفنون النقلية، علامة العلماء الأعلام، فخر فقهاء الإسلام، وهو الحبر العلام، والبحر القمقام، والأسد الضرغام، مفتي الفرق، الفاروق بالحق، حامي بيضة المذهب والدين، ماحي آثار المفسدين بترويج مراسم أجداده الطاهرين، نور الهداية في الظلم...».

توفي السيد رحمه الله في السابعة والخمسين من عمره الشريف في شهر رجب من سنة ١٢١٢ هـ ودُفن في مقبرة كان قد أعدّها لنفسه في حياته في الزاوية الشمالية الغربية من مسجد الشيخ الطوسي عليه السلام في النجف الأشرف بجوار مرقد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وعلى مسافة أمتار من قبر شيخ الطائفة الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (المتوفى ٤٦٠ هـ) رحمه الله.

مؤلفاته:

كان سيدنا المترجم له على عظمته في العلم والتحقيق، قليل التأليف لعدة أمور: لانشغاله بالتدريس والزعامة الدينية، وكثرة أسفاره في سبيل أداء رسالته الإسلامية، ولشدة احتياطه ودقة مسلكه، وبالرغم من هذا وذاك فقد احتفظ بالتأريخ العلمي له بيسير من المؤلفات هي:

١ - كتاب المصاييح في العبادات والمعاملات في الفقه، وقد أكثر النقل عنه

الفقهاء والمحققون منذ عصره.

٢ - الدرة النجفية: وهي منظومة في بابي الطهارة والصلاة من الفقه يتجاوز عدد أبياتها الألفين.

٣ - مشكاة الهداية: وهي منشور الدرة النجفية، ولم يبرز منها إلا كتاب الطهارة.

٤ - الفوائد الرجالية في علم الرجال مطبوع في ٤ مجلدات.

٥ - ٢٣ - مجموعة رسائل في مواضيع مختلفة من الفقه والأصول والحديث والكلام والأدب والشعر وغيرها.

٢٤ - تحفة الكرام في تأريخ مكّة والمسجد الحرام. وهو هذا الذي نحن بين يديه حيث استعرض فيه تأريخ المشاعر المقدسة بدءاً بالكعبة الشريفة، حيث أسهب في تأريخ بنائها منذ هبوط آدم عليه السلام وحتى عصر الرسالة المحمدية صلى الله عليه وآله، مروراً ببناء إبراهيم الخليل عليه السلام ومن بعده، وما يتعلق بها من الأركان والحجر، والحجر الأسود، والباب، والملتمز، والميزاب، والمستجار، والكسوة، والحطيم، وغيرها، فالمسجد الحرام، والمطاف، وزمزم، والأبواب، والمآذن، والمسعى، ومقام إبراهيم، والحرم المكي، ومدينة مكّة، وما بها من المواقع الدينية الأثرية كمولد النبي صلى الله عليه وآله وبيت خديجة، ومولد السيدة فاطمة الزهراء، والحجون، وشعب أبي طالب عليه السلام وغيرها.

وقد أطلال البحث عن كلّ واحدٍ من هذه المشاعر المقدسة والمواقع المباركة، فاستعرض أقوال المؤرخين وأصحاب السير والحديث، فوافق بعضهم وناقش البعض الآخر وأبرز تهاافت أقوالهم وفقاً للمنطق التاريخي الصحيح عنده، وهكذا قدّم مجموعة نافعة لمن يجب الوقوف على تأريخ تلك البقعة الشريفة، ومامرّها من تطورات خلال عشرات القرون، فشكر الله سعيه وأجزل له الثواب.

استفدنا في تصحيح هذه الرسالة وإبرازها للملاّ العلمي من نسختين:

الأولى: نسخة مكتبة مدرسة الفيضية بمدينة قم المقدسة، وهي برقم ١٩٨٢

بقلم نسخي في ٥٥ ورقة، مجهولة التأريخ، وعلى صفحتها الأولى عدة تملكات منها باسم السيد علي الطباطبائي يقول فيه: (تصنيف جدنا السيد محمد مهدي الطباطبائي، ولده السيد علي الطباطبائي) وهو علي بن محمد رضا الطباطبائي آل بحر العلوم (١٢٢٤ - ١٢٩٨ هـ) ويعدّ حفيد المصنف ومن أبرز فقهاء هذه الأسرة الكريمة، ومؤلف كتاب (البرهان القاطع في شرح المختصر النافع) وقد حصلنا على مصوِّرة منها من صديقنا الفاضل السيد محمد علي بحر العلوم فشكراً له.

الثانية: نسخة من مكتبة آل كاشف الغطاء في النجف الأشرف، وهي نسخة حديثة الكتابة بقلم نسخي في ٤٤ ورقة، ويبدو أنّ النسخة بخط العلامة السيد محمد صادق بحر العلوم (١٣١٥ - ١٣٩٩ هـ) وكان رحمه الله يمتلك مكتبة مخطوطة نفيسة قد جمع فيها الأعلام، وكان قد استنسخ عشرات المخطوطات النادرة لنفسه بخطه وأودعها مكتبته، ونسختنا من تلك المجموعة المستنسخة بخطه وجاء في نهاية هذه النسخة:

(هذا آخر ما وُجد بخط المرحوم المبرور، المستقر في دار الرحمة والسرور، العالم الرباني، والخبر الصمداني، آية الله في العالمين، السيد السند، والركن المعتمد، التقي النقي الأملعي اللوذعي، السيد مهدي الطباطبائي الملقّب ببحر العلوم، أعلى الله درجته في الجنان، وألبسه ثوب المغفرة والرضوان - وقد حرّر وسطراً امتثالاً لأمر العالم العلامة، والفاضل الخبر الفهامة، الكريم ابن الكريم ابن العالم ابن العالم ابن العالم، الذي فضائله لا تعدّ، وفواضله لا تُحصى، جناب الشيخ عباس نجل الأجل الأكرم الشيخ علي، نجل شيخنا الأعظم الأكبر الشيخ جعفر النجفي - طاب ثراه - وقد وقع الفراغ منه يوم الأحد السادس من شهر الله الأصبّ رجب المرجّب من سنة ١٢٩٥ هـ وأسأل الله العفو والغفران والحمد لله أولاً وآخراً).

وقد حصلنا على مصورة من هذه النسخة من الأقراص الكمبيوترية لمخطوطات النجف المشتهر باسم (الذخائر) شكر الله مساعي القائمين بهذا الجهد

وجزاهم عن الإسلام خيراً.

مصادر المقدمة:

مقدمة رجال بحر العلوم: الجزء الأول، طبعة النجف الأشرف.

أعيان الشيعة ١٠: ١٦٠-١٥٩

روضات الجنّات ٧: ٢٠٤

مكارم الآثار ٢: ٢١٦

الكنى والألقاب ٣: ٦٢

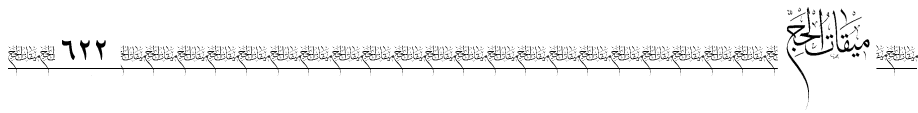
ريحانة الأدب ١: ٢٣٤

الأعلام للزركلي ٧: ١١٣

تنقيح المقال ١: ١٥٦ و ٣: ٢٦١

جنة المأوى: ٢٣٦

دانشنامه جهان اسلام ٦: ٩٥٨



صور من النسخ الخطية

السنة السادسة - العدد الحادي عشر - ١٤٢٠ هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة على محمد وآله. اللهم بك أستعين، وبأصفيائك إليك
أتوسل وأتشفع

الكعبة الشريفة

قال الشيخ قطب الدين الحنفي النهرواني، ثم المكي المتوفى سنة ٩٩٠ في
تاريخه؛ تاريخ مكة المشرفة، الذي سَمَّاه بـ«الاعلام بأعلام بيت الله الحرام»،
وعمله للسلطان مراد^(١) بن السلطان سليم العثماني، في الباب الثاني من الكتاب
المذكور.

قال قاضي القضاة، السيد تقي الدين محمد بن أحمد بن علي المكي الفاسي في
كتابه «شفاء الغرام»:

«لا شك أن الكعبة المعظمة بنيت مرات، وقد اختلف في عدد بنائها،
ويحصل من مجموع ما قيل في ذلك أنها بنيت عشر مرات، وهي بناء الملائكة،
وبناء آدم عليه السلام، وبناء أولاده وبناء الخليل إبراهيم عليه السلام، وبناء العماقة، وبناء جرهم،
وبناء قصي بن كلاب (جد النبي صلى الله عليه وسلم)، وبناء قريش (قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم) وعمره
الشريف يومئذ خمس وعشرون سنة) وبناء عبدالله بن الزبير بن العوام الأسدي،
وآخرها بناء الحجاج بن يوسف الثقفي»^(٢).

وفي إطلاق العبارة أنه بناء الكعبة تجوز، فإن بعضها لم يستوعبه البناء،
كالبناء الآخر وهو بناء الحجاج، فإنه إنما هدم جانب الميزاب فقط وأعادته، وأبقى

الجوانب الثلاث، وهي جهة الباب، وجهة المستجار (الذي هو مقابل الباب) وجهة الصفا (المقابل لجهة الميزاب) فإنها باقية على بناء ابن الزبير.

[البناء الأول]

وقال القطبي: أمّا البناء الأول فذكره الإمام أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن أحمد ابن الوليد في تاريخه قال: «حدثنا علي بن مسلم العجلي عن أبيه، حدثنا القاسم بن عبدالرحمن الأنصاري، حدثنا الإمام محمد الباقر، بن الإمام زين العابدين، علي ابن الحسين، بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، قال: «كنت مع أبي علي بن الحسين عليه السلام بمكة، فبينما هو يطوف وأنا وراءه إذ جاءه رجل طويل فوضع يده على ظهر أبي، فالتفت أبي إليه.

فقال الرجل: السلام عليك يا ابن بنت رسول الله ﷺ، إني أريد أن أسالك. فرد ﷺ، وسكت أبي، وأنا والرجل خلفه حتى فرغ من اسبوعه، فدخل الحجر، فقام تحت الميزاب، فصلّى ركعتي اسبوعه، ثم استوى قاعداً، فالتفت إليّ فجلست إلى جانبه.

فقال: يا محمد، اين السائل؟

فأومأت إلى الرجل، فجاء فجلس بين يدي أبي.

فقال له: عمّ تسأل؟

قال: إني أسالك عن بدء هذا الطواف بهذا البيت.

فقال له أبي: من أين انت؟

قال: من أهل الشام.

قال: أين سكنت؟ (٣)

قال: بيت المقدس.

قال: قرأت الكتابين، يعني التوراة والإنجيل؟

قال: نعم.

قال له أبي: يا أبا العرب، احفظ عني، ولا تحفظ عني إلا حقاً. أما بدء هذا الطواف فإن الله تعالى قال للملائكة: ﴿إني جاعلٌ في الأرض خليفة﴾،^(٤) فقالت الملائكة أي رب أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ويتحاسدون ويتباغضون ويتباغون اجعل ذلك الخليفة^(٥) منا، فنحن لا نفسد فيها ولا نسفك الدماء، ولا نتحاسد، ولا نتباغى، ونحن نسبح بحمدك ونعظمك ولا نغضبك؟

فقال الله تعالى: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾.^(٦)

قال: فظننت^(٧) الملائكة أن ما قالوا رد على ربهم، وأنه قد غضب عليهم من قولهم، فلاذوا بالعرش، ورفعوا أيديهم يتضرعون ويبكون إشفافاً من غضبه، فطافوا بالعرش ثلاث ساعات، فنظر الله تعالى إليهم، ونزلت الرحمة عليهم، ووضع الله سبحانه تحت العرش بيتاً هو البيت المعمور على أربع أساطين من زبرجد تغشاهن ياقوتة حمراء.

وقال للملائكة: طوفوا بهذا البيت.

فطافت الملائكة بهذا البيت، وصار أهون عليهم من العرش. ثم إن الله تبارك وتعالى بعث ملائكة وقال لهم: إبنوا لي بيتاً في الأرض بمثاله وقدره، وأمر الله تعالى من في الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور.

فقال الرجل: صدقت يا ابن بنت رسول الله، هكذا كان» انتهى.

قلت: هذا الحديث الشريف يدل على أن بناء الملائكة للكعبة^(٨) الشريفة كان قبل خلق الأرض، ولنا أحاديث دالة على أن الكعبة خلقت قبل الأرض بأربعين سنة.

في رواية قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي المكي في أوائل «تاريخ مكة»: «

حدثني عبد الله بن أبي سلمة، قال حدثنا الواقدي، حدثنا ابن جرير^(٩)، عن

بُسْر، عن عاصم الثقفي، عن سعيد بن المسيب:
قال قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «خلق الله تعالى البيت قبل الأرض
والسماوات بأربعين سنة وكان غُشاءً على الماء».
قال الفاكهي: وحدثني عبدالله بن أبي سلمة قال: حدثنا النضر بن شميل،
قال: حدثنا ابن معشر، عن سعيد ونافع مولى آل الزبير، عن أبي هريرة، «قال:
الكعبة خُلِقَتْ قبل الأرض بألفي عام».

قيل: وكيف خلقت قبل الأرض وهي من الأرض؟
فقال: لأنه كان عليها ملكان يسبحان بالليل والنهار ألفي سنة، فلما أراد الله أن
يخلق الأرض دحاها من تحتها فجعلها في وسط الأرضين».
قال: وحدثني عبدالله بن أبي سلمة، قال: حدثنا الواقدي، قال: حدثنا أحمد
ابن يحيى بن طلحة، أنه سمع مجاهداً يقول:
«إن قواعد البيت خلقت قبل الأرض بألفي سنة، بسطت الأرض من تحته».
أقول: وظهر مما روينا أن موضع البيت الشريف خلق قبل الأرض، لا نفس
بناء البيت، فإنه أول من بنته الملائكة بحمد الله تعالى كما سقناه والله سبحانه وتعالى
أعلم.

الثاني: بناء آدم عليه السلام.

وقد ذكره الإمام أبو الوليد الأزرقي قال: حدثني جدِّي، عن سعيد بن سالم،
عن طلحة بن عمرو الحضرمي، قال عطاء بن أبي رباح (بفتح الراء والموحدة،
بعدها ألف ثم حاء مهملة)، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما أهبط الله آدم
إلى الأرض من الجنة، قال يا ربِّ إني لا أسمع أصوات الملائكة!
قال: خطيئتك^(١٠) يا آدم، ولكن اذهب فابن لي بيتاً، فطف به واذكرني حوله،
كنحوما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي».
قال: فأقبل آدم يتخطى الأرض فطويت له، ولم يضع قدمه في شيء من

الأرض إلّا صار عمراناً وبركة، حتى انتهى إلى مكة فبنى البيت الحرام، وأنّ جبرئيل ضرب بجناحه الصخرة فكشف عن أسّ ثابتٍ على الأرض السابعة، فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق [حمل] الصخرة منها ثلاثون رجلاً،^(١١) وأنه بناه من خمسة أجبل، من لبنان، وطور زيتا، وطور سينا، والجودي، وحراء، حتى استوى على وجه الأرض». ^(١٢)

وهذا يدل على أنّ آدم عليه السلام إنما بنى أساس الكعبة حتى ساوى وجه الأرض، ولعلّ ذلك بعد دثور ما بنته الملائكة بأمر الله تعالى أولاً. ثمّ أنزل الله تعالى البيت المعمور لآدم عليه السلام ليستأنس به، فوضعه على أساس الكعبة.

ويدل على ذلك ما رواه أبو الوليد الأزرقى في تاريخه قال: حدّثني أبي، عن جدي، قال حدّثنا سالم، عن عثمان بن ساج، قال: بلغني أنّ عمر بن الخطاب قال لكعب، يا كعب أخبرني عن البيت الحرام.

قال كعب: أنزل الله من السماء ياقوته مجوفةً مع آدم عليه السلام، فقال: يا آدم إنّ هذا بيتي أنزلته معك، يطاف حوله كما يطاف حول عرشي، ويصلى حوله كما يصلى حول عرشي، ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعده من حجارة، ثم وضع البيت عليه، وكان آدم عليه السلام يطوف حوله كما يطاف حول العرش، ويصلى عنده كما يصلى عند العرش، ولما أغرق الله قوم نوح رفعه إلى السماء وبقيت قواعده». ^(١٣)

وقال الأزرقى أيضاً: حدّثني أبي، قال حدّثني محمد بن يحيى، عن عبدالعزيز ابن عمران، عن عمر بن أبي معروف، عن عبدالله بن أبي زياد، أنّه قال:

«لما أهبط الله آدم عليه السلام من الجنة، قال يا آدم ابن لي بيتاً بجذاء بيتي الذي في السماء تتعبّد فيه أنت وولدك، كما تتعبّد ملائكتي حول عرشي فهبطت عليه الملائكة، فحفر حتى بلغ الأرض السابعة، فقذفت فيه الملائكة حتى اشرف على وجه الأرض، وهبط آدم عليه السلام بياقوتة حمراء مجوفة لها أربعة أركان بيض، فوضعها

على الأساس، فلم تزل الثاقوتة كذلك حتى كان زمن الغرق، فرفعها الله تعالى». (١٤)
وقال الأزرقى أيضاً: حدثني محمد بن يحيى، عن إبراهيم بن محمد، عن أبي يحيى، عن أبي المليح، أنه قال: «كان أبو هريرة يقول: حَجَّ آدم ﷺ ففُضِيَ المناسك، فلما حَجَّ قال يا ربِّ إنَّ لكلَّ عاملٍ أجراً.
قال الله تعالى: أمَّا أنت يا آدم فقد غفرت لك، وأمَّا ذريتك فمن جاء منهم هذا البيت فبَاءَ بذنبه غفرت له.

فاستقبلته الملائكة، فقالوا: برَّ حُجَّك، يا آدم قد حججنا هذا البيت قبلك بالفي عام.

قال: وما كنتم تقولون حوله؟

قالوا: كنا نقول: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر).

قال: فكان آدم ﷺ إذا طاف يقول هذه الكلمات، وكان طواف آدم ﷺ سبعة أسابيع بالليل، وخمسة بالنهار». (١٥)

قال الأزرقى أيضاً: حدثني محمد بن يحيى، قال حدثني هشام بن عبد الرحمن، عن سليمان المخزومي، عن عبد الله بن أبي سليمان (مولى بني مخزوم) أنه قال: «طاف آدم ﷺ سبعاً بالبيت، ثم صلى تجاه باب الكعبة ركعتين، ثم أتى الملتزم وقال: إنَّك تعلم سريري وعلايتي فاقبل معذرتي، وتعلم ما في نفسي وما عندي فاغفر لي ذنوبي، وتعلم حاجتي فاعطني سؤلي، اللهم إني أسالك إيماناً تباشر به قلبي، و يقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لا يصيبني إلا ما كتبت لي، والرضا بما قضيت لي.

قال: فأوحى الله تعالى إليه، يا آدم قد دعوتني بدعوات، فاستجبتُ لك، ولن يدعوني بها أحد من ولدك إلا كشفت همومه وغمومه، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلتُ الغنى بين عينيه وتجرتُ له من وراء كل تاجرٍ، وأتته الدنيا وهي راغمة وإن كان لا يريدُها.

قال: فمَنْ طاف آدم ﷺ كانت سنَّة الطَّواف». (١٦)

الثالث: بناء أولاد آدم عليه السلام

روى الازرقى بسنده إلى وهب بن منبه قال: لما رُفِعَت الخيمة التي عزي الله بها آدم عليه السلام من حلية الجنة حين وُضِعَتْ له بمكة في موضع البيت، ومات آدم عليه السلام فبنوا [فبنى] بنو آدم عليه السلام من بعده مكانها بيتاً بالطَّين والحجارة، فلم يزل معموراً يعمرونه هم ومن بعدهم حتى كان زمن نوح عليه السلام، فنسفه الغرق، وغير مكانه حتى بوا [بؤى] لإبراهيم عليه السلام^(١٧).

قال المحافظ أبو القاسم السهيلي في الفصل الذي عقده لبنيان الكعبة: «وكان بناؤها الأول حين بنى شيث بن آدم عليه السلام» انتهى.

ولعل مراد السهيلي بالأولوية بالنسبة إلى بناء البشر لا الملائكة، وإن بناء آدم عليه السلام هو الأساس إلى أن ساوى وجه الأرض، وانزل الله عليه من الجنة البيت المعمور، فوضعه على ذلك الأساس.

والمراد بالخيمة المشار إليها في خبر وهب بن منبه، هو البيت المعمور، أو لعلها خيمة غير البيت المرفوع، لعلها رفعت بعد وفاة آدم عليه السلام، وأبقى البيت المعمور إلى أن رُفِعَ زمان الطوفان، وفي ذلك من ارتكاب المجاز مما يصحح^(١٨) هذه الروايات المتباينة ظواهرها، والله أعلم.

حكى السنجاري قال: «ذكر الفاسي أن أول من بَوَّبَ الكعبة أنوش بن شيث ابن آدم عليه السلام، وأنه ذكر عن الفاكهي أن أول من بَوَّبَها وجعل لها غلقاً جرهم، والله أعلم»^(١٩) انتهى.

الرابع: بناء الخليل عليه السلام

قال السيد الإمام الفاسي:

«أمّا بناء الخليل عليه السلام فهو ثابت بالكتاب والسنة الشريفة، وهو أول من بنى البيت على ما ذكره الفاكهي عن علي بن أبي طالب عليه السلام^(٢٠). وجزم الشيخ عماد الدين بن كثير في تفسيره قال: «لم يرد عن معصوم أن

البيت كان بيتاً قبل الخليل عليه السلام^(٢١) فهو ينكر ما قدمناه من الآثار .
وأما على ما قدمناه من الآثار، فبناء إبراهيم عليه السلام أول اسمي بالنسبة إلى مَنْ
بنى بعده لا أول حقيقي والله أعلم.

قال ابنُ ظهير [ابن ظهيرة]: «وجعل الخليل عليه السلام طول البيت في السماء تسعة
أذرع، وعرضه في الأرض اثنين وثلاثين ذراعاً من الرُّكن الأسود إلى الركن
الشامي (الذي فيه الحجر)، وجعل عرض ما بين الركن الشامي إلى الركن الغربي
اثنين وعشرين ذراعاً، وجعل طول ظهرها من الركن الغربي إلى الركن اليماني احدى
وثلاثين ذراعاً، وجعل عرض شقها اليماني من الركن الأسود إلى الركن اليماني
عشرين ذراعاً، فلذلك سُميت كعبة، لأنها على خِلقة الكعب، وكذلك بنیان أساس
آدم عليه السلام وجعل بابها بالأرض غير مَبْوَبٍ حتَّى كان تُبَع الحميري هو الذي جعل لها
باباً وغلقاً فارسياً وجعل الخليل الحجرَ (بالكسر) إلى جنب البيت عريشاً مِنْ
أراكٍ تقتحمه فكان زرباً لغنم اسماعيل، وحفر في بطن الكعبة جُبّاً على يمين الداخل
يكون خزانة للبيت، وهو الذي نصب عليه عمرو بن اللّحي هُبُل (صنم قريش) ثم
عدا على ذلك الجُب قوم مِنْ جُرهم فسرقوا ما فيه، فبعث الله الحيّة لحراسته، وهي
التي اختطفها العقاب»^(٢٢) نقل باختصاره.

وروى الأزرق في تاريخه عن ابن اسحاق: «أن إبراهيم عليه السلام لما بنى البيت جعل
طوله في السماء تسعة أذرع، وجعل طوله في الأرض مِنْ قِبَل وجه البيت الشريف
مِنْ الحجر الأسود إلى الركن اليماني اثنين وثلاثين ذراعاً، وجعل عرضه في الأرض
من قبل الميزاب من الركن الشامي إلى الركن الغربي الذي يسمى الآن الركن العراقي
اثنين وعشرين ذراعاً، وجعل طوله في الأرض من جانب ظهر البيت الشريف من
الركن الغربي المذكور إلى الركن اليماني احدى وثلاثين ذراعاً، وجعل عرضه في
الأرض من الركن اليماني إلى الحجر الأسود عشرين ذراعاً، وجعل الباب لاصقاً
بالأرض، غير مرتفع عنها، ولا مَبْوَباً، وجعل لها تبع الحميري باباً وغلقاً بعد ذلك،

وجعل إبراهيم عليه السلام في بطن البيت على يمين من دخله حفرة لتكون خزانة للبيت، يوضع فيها ما يُهدى إلى البيت، فكان إبراهيم عليه السلام يبني وإسماعيل عليه السلام ينقل له الأحجار على عاتقه، فلما ارتفع البنيان قرّب له المقام، فكان يقوم عليه ويبني ويحوّله له إسماعيل عليه السلام ينقل له في نواحي البيت، حتى انتهى إلى موضع الحجر الأسود.

فقال إبراهيم عليه السلام لإسماعيل عليه السلام: يا إسماعيل إئتني بحجر أضعه هنا يكون علماً للناس يبتدون منه الطواف. فذهب إسماعيل في طلبه، فجاء جبرئيل عليه السلام إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام بالحجر الأسود، وكان الله عزّ وجلّ استودعه جبل أبي قبيس حين كان طوفان نوح عليه السلام، فوضعه جبرئيل عليه السلام في مكانه، وبني عليه إبراهيم عليه السلام وهو حينئذٍ يتلأل نوراً، فأضاء بنوره شرقاً وغرباً وشاماً ويمناً إلى منتهى أنصاب الحرم في كل ناحية وإنما سوّدت الجاهليّة وأرجاسها.

قال: ولم يكن إبراهيم عليه السلام سقّف البيت ولا بناه بمدر، وإنما رصّه رصّاً. (٢٣)
قال: وذكر سنده إلى عبد الله بن عمر [عمر] «أن جبرئيل عليه السلام نزل بالحجر [من الجنة] على إبراهيم عليه السلام من الجنة وأنه وضعه حيث رأيتم، وأنتم لا تزالون بخير ما دام بين ظهرانكم فتمسّكوا به ما استطعتم، فإنه يوشك أن يجيء جبرئيل فيرجع به من حيث جاء به» انتهى. (٢٤)

وقال السيّد الإمام تقي الدين الفاسي: رويناه عن قتادة قال: «ذكر لنا أنّ الخليل عليه السلام بنى البيت من خمسة أجبل: من طور سينا، وطور زيتا، ولبنان، والجودي وحراء.

قيل وذكر لنا أنّ قواعده من حراء.

قال: ويروى أنّ الخليل أسّس البيت من ستة أجبل من أبي قبيس، ومن الطّور، ومن القدس، ومن ورقان، ومن رضوى، ومن أحد. (٢٥)
قال الازرققي: قال أبي، وحدثني جدّي، عن سعيد بن سالم، عن ابن جُريج

[جريح]، عن مُجاهد أنّه قال: «كان موضع الكعبة قد خفي ودرس زمن الطوفان فيما بين نوح وإبراهيم عليه السلام».

قَالَ: وكان موضعه أكمة حمراء [مدرّة] لا تعلوها السيول غير أنّ الناس يعلمون أنّ موضع البيت هنالك، من غير تعيين محلّه، وكان يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض، ويدعو عنده المكروب، وما دعى [دعا] عنده أحد إلاّ استجيب له، وكان الناس يحجّون إلى موضع البيت، حتّى بوأ الله سبحانه وتعالى [مكانه] لإبراهيم عليه السلام لما أراد عمارة بيته، وأظهر دينه وشعائره [شرائعه]، فلم يزل منذ أهبط الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام إلى الأرض معظماً محترماً عند الأمم والملل». (٢٦)

وعن ابن عمر: «كان الأنبياء يحجّونه ولا يعلمون مكانه، حتّى بوأه الله لخليله وأعلمه مكانه».

وروى أنّ هوداً وصالحاً، ومَن آمن بهما، حجّوا البيت وهو كذلك.

ونقل العلامة السيوطي في بعض كتبه: «أن جميع الأنبياء حجّوا البيت إلاّ هوداً وصالحاً، اشتغلا بأمر قومهما فلم يحجّا، وأنّ آدم لما حجّ خلق جبرئيل عليه السلام رأسه بياقوتة من الجنة، فلما بوأ الله تعالى لخليله مكان البيت أقبل من الشام وله يومئذ مائة سنة، وإسماعيل ستّ وثلاثون سنة، وأرسل الله معه السكينة والصرد والملك دليلاً، حتّى تبوأ البيت الحرام.

قال: والسكينة لها رأس كرأس الهرة وجناحان.

وفي رواية: كأنها غمامة أو ضبابة تغشى الأرض كالدخان، في وسطها كهيئة الرأس يتكلم، وكانت بمقدار البيت.

فلما انتهى الخليل إلى مكة وقعت في موضع البيت، ونادت يا إبراهيم ابن عليّ مقدار ظليّ، لا يزيد ولا ينقص. (٢٧)

وفي رواية: أنّها تطوقت بالأساس الأول كأنّها حيّة.

وفي أخرى أنّها لم تزل راكدة تُظّل إبراهيم وتهديه مكان القواعد، فلما رفع

القواعد قدر قامته انكشفت.

قال: وذكر أن الخليل لما حفر القواعد ابرز عن رِبْض كَأَمثال خلف الإبل، لا يُحرك الصخرة إلا ثلاثون رجلاً، وكان يبني كلَّ يومٍ سافاً وهو المذموم في عرفنا الآن.

قال ابن عباس: أما والله ما بنياه بقصة (وهي النورة وشبهها) ولا مَدْر، ولا كان معها ما يسقّفانه، ولكن أعلماه وطافا به. وفي رواية رَحْمَاهُ رَحْمَةً.

قال: وروي أن ذا القرنين قَدِمَ مَكَّةَ، والخليل وابنه بينان. فقال: ما هذا؟ فقالا: نحن عبدان أمرنا بالبناء.

فطلب منهما البرهان على ذلك، فشهد بذلك خمسة أكبش. ثم قال: قال السهيلي: بناه الخليل من خمسة أجبل، كانت الملائكة تأتيه بالحجارة منها وهي طور سينا، وطور زيتا (وهما بالشام) والجودي (وهو بالجزيرة) ولبنان وجرأ (هما بالحرم).

قال المجدد: في كون لبنان بالحرم نظر، إذ لا يعرف ذلك.

ثم ذكر القطب قصة مهاجرة الخليل بعد أن نجاه الله من نار نمرود، وولادة اسماعيل واسحاق، وإسكان الخليل واسماعيل وأمه هاجر الحرم، وظهور ماء زمزم، وغير ذلك.

ثم قال، رجوعاً إلى القصة قالوا: ومرت رفقة من جرهم يريدون الشام، فرأوا طيراً يحوم على جبل أبي قبيس.

فقالوا: إن هذا الطير يحوم على ماء، فتبعوه فأشرفوا على بئر زمزم.

فقالوا لهاجر: إن شئت نزلنا معك وأنسناك والماء مائك، نشرب منه؟

فأذنت لهم، فنزلوا معها، وهم أول سكان مكة.

وقال بعد ذلك: قال الأزرق: ثم ولد لإسماعيل من زوجته بنت مضاض بن

عمرو الجرهمي اثنا عشر رجلاً، منهم ثابت بن اسماعيل، وقيدار بن اسماعيل، وكان عمر اسماعيل مائة وثلاثين عاماً، ومات ودفن في الحجر مع أمّه، فولى البيت بعده ثابت بن اسماعيل، ونشر الله العرب من ثابت وقيدار، فكثروا ونموا، ثم توفي ثابت، ثم ولي البيت بعده جدّه لأُمّه مضاض بن عمرو الجرهمي، وضمّ بني ثابت بن اسماعيل وصار ملكاً عليهم وعلى جرهم، فنزلوا بقرى بعلبعل بمكة، وكانوا اصحاب سلاح كثير، وتقعقع فيهم، وصارت العماليقة - وكانوا نازلين بأسفل مكة - الى رجل منهم ولّوه ملكاً عليهم، يقال له السُميدع، ونزلوا بأبياد وكانوا أصحاب خيل وغيره، وكان الأمر بمكة لمضاض بن عمرو، ورث السُميدع الى أن حدث بينهم البغي، واقتتلوا فقتل السُميدع، وتمّ الأمر لمضاض بن عمرو.

قال: قال: ثمّ نشر الله بني اسماعيل وخنولتهم وجرهم، وكانت جرهم ولاية البيت لا ينازعهم بنو اسماعيل لقرباتهم، فلما ضاقت مكة انتشروا في الأرض، فلا يأتون قوماً ولا ينزلون بلداً إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم، وهو يومئذ دين إبراهيم، حتى ملأوا البلاد، ونفوا عنها العماليق، وكانت ولاية مكة، وكانوا ضيعوا حرمها، واستحلوها، واستخفوا بها، فاخرجهم الله من أرض الحرم.

ثمّ إنّ جرهماً استخفت بأمر البيت والحرم، فاعتزلهم مضاض بن عمرو وخرج ببني اسماعيل من مكة بجانب خزاعة، فاخرجت خزاعة جرهماً من البلاد، ووليت امر مكة، وصاروا اهلها، فسألهم بنو اسماعيل السكنى معهم فأذنوا لهم، وسألهم في ذلك مضاض بن عمرو فأبت عليه خزاعة، وصارت خزاعة حجة بيت الله، وولاية أمر مكة، وفيهم بنو اسماعيل لا يشاركونهم في شيء ولا يطلبونه، الى أن كبر شأن قصي بن كلاب بن مرة، واستولى على حجابة البيت وأمر مكة». (٢٨)

وقد نقلنا هذا الفصل من القطبي، من ابتداء قصة جرهم باختصار لا يخلُ بشيء مما نحن بصدد.

وقصي تصغيراً اسمه زيد، وإِنَّمَا لُقِبَ قصياً لأنه أبعد عن أهله ووطنه مع أمّه، لما تُوفِيَ أبوه كلاب، وتزوَّجت أمّه بربيعة بن حزام، ورحل بها إلى الشام، فلما كبر وقع بينه وبين آل ربيعة شرٌّ فعيَّرُوهُ بِالْغُرْبَةِ، فرجع إلى قومه بمكة وعليها خزاعة، وكبيرهم خليل بن خبيسة الخزاعي وهذه [هذا] البيت الشريف، فتزوَّج ابنته، وهلك وصار مفتاح البيت لأبي غيشان، وكان سكران فأعوز الخمر، فباع مفتاح البيت بِزِقٍّ مِنْ خَمَرٍ! فاشتراه منه قُصَيٌّ، وفي الأمثال «أَخْسَرُ صَفْقَةً مِنْ أَبِي غِيْشَانَ» اختصر.

الخامس والسادس: بناء العمالقة وجُرهم:

ذكر الأزرقى ذلك، وذكر بسنده إلى سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أَنَّهُ قَالَ فِي خَبَرِ بِنَاءِ جُرْهَمَ لِلْكَعْبَةِ: ثُمَّ انْهَدَمَ فَبَنَتْهُ الْعِمَالِقَةُ، فَبَنَتْهُ قَبِيلَةُ مِنْ جُرْهَمٍ. (٢٩)

روى الفاكهي بسنده إلى سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام، وروى السيد التقي الفاسي قال السَّنْجَارِيُّ وَذَكَرَ الْفَاكُهِيُّ مَا يَقْتَضِي أَنَّ بِنَاءَ جُرْهَمَ قَبْلَ الْعِمَالِقَةِ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ، فَإِنَّ الْعِمَالِقَةَ قَبْلَ جُرْهَمَ وَلَمْ يَلِ الْيَمَّا بَعْدَ جُرْهَمَ إِلَّا خُزَاعَةُ، (٣٠) انْتَهَى. قلت: هذا يقتضي أَنَّ جُرْهَمًا بَنَتْ الْبَيْتَ الشَّرِيفَ قَبْلَ الْعِمَالِقَةِ، وَالْخَبَرُ الْأَوَّلُ يَقْتَضِي أَنَّ الْعِمَالِقَةَ بَنَتْهُ قَبْلَ جُرْهَمَ، وَبِهِ جَزَمَ الْمُحِبُّ الطَّبْرِيُّ. وروى المسعودي في «مروج الذهب»:

«إِنَّ الَّذِي بَنَى الْكَعْبَةَ مِنْ جُرْهَمَ، هُوَ الْحَارِثُ بْنُ مِضَاضِ الْأَصْغَرِ، وَأَنَّهُ زَادَ فِي بِنَاءِ الْبَيْتِ، وَرَدَمَهُ كَمَا كَانَ عَلَى بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ». (٣١) وروى الأزرقى شيئاً من خبر العمالقة يقتضي سبقهم على جُرهم فإنه روى بسنده إلى سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ عَلَيْهِ حَيٌّ يُقَالُ لَهُمُ الْعِمَالِيقُ، كَانُوا فِي عِزٍّ وَثَرَوَةٍ، وَكَانَتْ لَهُمْ خَيْلٌ وَإِبِلٌ وَمَاشِيَةٌ تَرْعَى حَوْلَ مَكَّةَ، وَكَانَتْ الْعِضَاهُ مَلْتَفَةً، وَالْأَرْضُ مَبْتَلَةً، وَكَانُوا فِي عَيْشٍ رَخِيٍّ، فَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ،

وأسرفوا على أنفسهم، وأظهروا المظالم والإلحاد، وتركوا شكر الله، فسلبوا نعمتهم، وكانوا يكرون بمكة الظل، ويبيعون الماء، فاخرجهم الله من مكة وسلط عليهم النمل حتى خرجوا من الحرم، ثم ساقهم بالجذب حتى الحقهم الله بمساقط رؤوس آبائهم ببلاد اليمن، فتفرقوا وهلكوا، وأبدل الله بعدهم بجرهم، فكانوا سكاكاً إلى أن بغوا فيه أيضاً، فاهلكوا جميعاً» (٣٢) انتهى.

السابع: بناء قصي

ذكر الزبير بن بكار (قاضي مكة) في كتاب «النسب»: «أن قصي بن كلاب لما ولي امر البيت، جمع نفقته ثم هدم الكعبة، فبناها بنياناً لم يبنه ممن بناها قبله مكة» ذكر أبو عبدالله محمد بن عابد الدمشقي في «مغازيه»: «أن قصي بن كلاب بن البيت الشريف» (٣٣)

وجزم به الإمام الماوردي في «الأحكام السلطانية» فانه قال فيها: «أول من جدّد بناء الكعبة من قريش بعد ابراهيم عليه السلام، قصي بن كلاب، وسقّفها بخشب الدوم وجريد النخل» (٣٤) انتهى.

قال السيد التقي الفاسي في «شفاء الغرام»، ورواه القاضي الزبير بن بكار. «أن قصياً بنى الكعبة على خمس وعشرين ذراعاً» (٣٥).

ففيه نظر لما اشتهر في الأحكام أن ابراهيم الخليل عليه السلام بنى طول الكعبة تسعة اذرع، وأن قريشاً لما بنت الكعبة زادت في طولها تسعة اذرع، وأن قصياً أراد أن يجعل عرضها خمسة وعشرون [عشرين] ذراعاً، فالمعروف أن عرضها من الجهة الشرقية والغربية لا ينقص عن ثلاثين ذراعاً في بناء الخليل عليه السلام، بل يزيد (على خلاف في مقدار الزيادة) وإن أراد عرضها من الشامية واليمانية، فعرضها في هاتين الجهتين ينقص عن خمسة وعشرون [ين] ذراعاً، ثلاثة اذرع أو أزيد، وكل من بنى الكعبة بعد ابراهيم عليه السلام لم بينها إلا على قواعد ابراهيم عليه السلام، غير أن قريشاً اقتصرت من عرضها في جهة الحجر الشريف لأمر اقتضاه الحال، وكان ما فعله الحجاج بعد

ابن الزبير عناداً له، والله تعالى أعلم.

الثامن: بناء قريش:

قال خاتمة الحُفَاط والمحدثين مولانا الشيخ محمد الصالحى في كتابه «سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد»، وهو أحسنُ كتابٍ للمتأخرين، وأبسطه في السيرة النبوية ولنا به إجازة عامة .

«إنَّ امرأةَ جَمَرَتِ الكعبةَ بالبخور، فطارت شرارة من مجمرها في ثياب الكعبة، فاحترق أكثر أخشابها، ودخلها سيل عظيم فصدَّع جدرانها بعد توهينها، فأرادوا أن يشدُّوا بنيانها، ويرفعوا بابها حتى لا يدخلها إلَّا قريش، وهم في ذلك إذ رمى البحر بسفينةٍ إلى ساحلِ جِدَّةٍ لتاجر روميٍّ اسمه باقُوم (بوحدة وقاف مضمومة)، وكان نجَّاراً بَنَاءً، فخرج الوليد بن المغيرة في نفر من قريش إلى جِدَّةٍ فابتاعوا خشب السفينة، وكلموا باقوم الرُّومي أن يتقدم معهم إلى مكة، فقدموا إليها، واخذوا أخشاب السفينة أعدُّوها لسقف الكعبة». (٣٦)

قال الاسنوي: «كانت هذه السفينة لقيصر ملك الروم يحمل فيها الرخام والخشب والحديد مع باقوم إلى البقعة التي احرقها الذين بالحبشة، فلما بلغت قريش من مرسى جِدَّةٍ بعث الله عليها ريحاً فحطَّمها» انتهى.

قلت: لا يعرف طريق بين بحر الروم والحبشة يحرفها إلى جِدَّةٍ، إلَّا ان يكون ملك الروم طلب ذلك من ملك مصر، فجهَّزها له من بندر السويس أو الطور أو نحو ذلك.

قال ابنُ اسحاق: «وكان بمكة قبطي يعرف نجر الخشب وتسويته، فوائتقهم على أن يعمل لهم سقف الكعبة، ويساعده باقُوم.

وقال: وكانت حيَّةٌ عظيمةٌ تخرج من بئر الكعبة تُشرف على جدار الكعبة، لا يدنو منها أحدٌ إلَّا كشت وفتحت فاهَا، وكانوا يهابونها ويزعمون أنَّها لحفظ الكعبة وهداياها، وأنَّ رأسها كرأس الجدي، وظهرها وبطنها أسود، وأنَّها أقامت فيها

خمسائة سنة!

قال ابن عتبة: فبعث الله طائراً فاختطفها وذهب بها. فقالت قريش: نرجو أن يكون الله تعالى رضى لنا بما أردنا فعله، فاجمع رأيهم على هدمها وبنائها.

قال هشام: فتقدم عائذ بن عمران بن مخزوم (وهو خال أبي النبي ﷺ) فتناول حجراً من الكعبة فوثب من يده حتى رجع إلى مكانه. فقال: يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنيانها إلا حلالاً طيباً، ليس فيه مهر بغي، ولا رباً، ولا مظلمة. (٣٧)

ثم إن قريشاً اقتسموا جوانب البيت فكان شق الباب لبني زهرة وبني عبدمناف، وما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم، ومن انضم إليهم من قريش، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وبني سهم، وكان شق الحجر لبني عبدالدار وبني اسد بن عبدالعزيز وبني عدي بن كعب، وجمعوا الحجارة، وكان رسول الله ﷺ ينقل معهم، حتى إذا انتهى الهدم إلى الأساس، فأفضوا إلى حجارة خضر كالأسمنة، فضربوا عليها بالمعول، فخرج برق كاد أن يخطف البصر، فانتهاوا عند ذلك الأساس، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن، فاختصم فيه القبائل، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه، وكادوا أن يقتتلوا.

فقال لهم أبو أمية، بن المغيرة، بن عبدالله، بن عمرو، بن مخزوم (وكان شريفاً مطاعاً): اجعلوا الحكم بينكم فيما اختلفتم أول من يدخل من باب الصفا. فقبلوا منه ذلك، وكان أول داخل رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا محمد الأمين، وكان يسمى قبل أن يوحى إليه أميناً لأمانته وصدقه. فقال ﷺ: هلم إلي ثوباً.

فأتي به، فأخذ الركن فوضعه بيده فيه.

ثم قال: ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من هذا الثوب.

فحملوه جميعاً وأتوا به، ورفعوه إلى ما يُحاذي موضعه، فتناوله رسول الله ﷺ من الثوب ووضع بيده الشريفة في محله. (٣٨)
وفي ذلك يقول هبيرة بن أبي وهب المخزومي في شعر:

تشاجرت الأحياء في فصل خطة جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها بالبغض بعد مودة وأوقد ناراً بينهم شرّ موقد
فلما رأينا الأمر قد جدّ جدّه ولم يبق شيء غير سل المهند
رضينا وقلنا العدل أول طالع يجيء من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمد فقلنا رضينا بالأمين محمد
بخير قريش كلّها أس شيمة وفي اليوم مهما يحدث الله في غد
فجاء بامر لم ير الناس مثله اعم وارضى في العواقب والبدء
اخذنا باطراف الردا وكلنا له حصة من رفعها قبضة اليد
فقال ارفعوا حتى إذا ما علت به اكفهم وافى به خير سيد
وكل رضينا فعله وصنيعه اكرم به من رأي هادٍ ومهتدى
وتلك يد منه علينا عظيمة نروح بها هذا الزمان ونغتدي

ولما بنت قريش الكعبة علت ارتفاعها من خارجها ثمانية عشر ذراعاً، منها
تسعة أذرع زائدة على ما عمّره الخليل عليه السلام ونقصوا من عرضها أذرعاً من جهة
الحجر لقصر النفقة الحلال التي أعدّها لعمارة الكعبة، ورفعوا بابها من الأرض
ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، وجعلوا في داخلها ست دعائم في صفين،
ثلاث من كل صف من شق الحجر إلى الشق الثاني، وجعلوا في ركنها الشامي من
داخلها درجة يصعد منها إلى سطح الكعبة. (٣٩)

قال ابن ظهيرة: «إن قريشاً رفعت الكعبة ثمانية عشر ذراعاً، وقيل عشرين». قال: «وفي رواية أن طول الكعبة كان سبعة وعشرين ذراعاً، فاقترنت

قُرَيْشٌ مِنْهَا عَلَى ثَمَانِيَةِ عَشَرَ ذِرَاعاً، وَنَقَصُوا مِنْ عَرْضِهَا أَذْرَعاً أَدْخَلُوهَا فِي الْحِجْرِ». أَخْرَجَهَا الْأَزْرَقِيُّ فِي تَارِيخِهِ قَالَ: «وَهُوَ مُنَاقِضٌ لِمَا ذَكَرَهُ فِي بِنَاءِ ابْنِ الزَّبِيرِ أَنَّهُ زَادَ عَلَى قُرَيْشٍ بِتِسْعَةِ أَذْرَعٍ، كَمَا زَادَتْ قُرَيْشٌ عَلَى بِنَاءِ الْخَلِيلِ بِتِسْعٍ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ فِي التَّوَارِيخِ».

قَالَ: وَلَمْ يَصِحَّ أَنْ يَصْحَاحَ بِنَايَا بَعْدَ الْخَلِيلِ، وَلَوْ صَحَّ فَلَمْ يَصِحَّ أَنَّهُ جَعَلَ طُولَهَا سَبْعَةً وَعَشْرِينَ ذِرَاعاً، وَمَا تَقَدَّمَ مِنْ بِنَاءِ الْعِمَالِقَةِ وَجُرْهُمَ وَقَصِي بَعْدَ الْخَلِيلِ فَإِنَّمَا هُوَ مُجَرَّدُ خَبَرٍ، وَهُوَ إِنْ صَحَّ فَلَمْ يَذْكُرِ الْأَزْرَقِيُّ وَلَا غَيْرُهُ قَدْرَ ارْتِفَاعِ بِنَائِهِمْ. نَعَمْ، نَقَلَ الْفَاسِي عَنْ الزَّبِيرِ بْنِ بَكَّارٍ أَنَّ قَصِيّاً بَنَى الْكَعْبَةَ بِنَاءً مُحْكَمًا عَلَى خَمْسٍ وَعَشْرِينَ ذِرَاعاً، وَهُوَ مَعَ مَخَالَفَتِهِ لِمَا ذَكَرَهُ الْمَشْهُورُ فِي بِنَائِهَا، لَا يَصِحُّ بِهِ هَذِهِ الرِّوَايَةُ الْمُتَضَمِّنَةُ لِبِنَائِهَا عَلَى سَبْعَةٍ وَعَشْرِينَ ذِرَاعاً، فَمَا ذَكَرَهُ الْأَزْرَقِيُّ مُجَرَّدَ رِوَايَةٍ لَا تَعُضِدُ بِشَيْءٍ، فَلَا تَعْوِيلُ عَلَيْهَا» نَقَلَ بِاخْتِصَارٍ.

تَنْبِيْهٌ: اِخْتَلَفَ فِي سَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ بَنَتْ قُرَيْشُ الْكَعْبَةَ.

فَقِيلَ: كَانَ ابْنُ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَهُوَ أَشْهَرُ الْأَقْوَالِ.

وَرَوَى مُجَاهِدٌ: أَنَّ ذَلِكَ قَبْلَ الْمَبْعَثِ خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا.

وَالَّذِي جَزَمَ بِهِ ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ الْمَبْعَثِ بِخَمْسِ سِنِينَ، اللَّهُ أَعْلَمُ. (٤٠)

قَالَ ابْنُ ظَهْرَةَ: اِخْتَلَفَ فِي سَنَةِ ﷺ إِذَا ذَاكَ، فَقِيلَ إِنَّهُ خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً، وَهُوَ

الْأَظْهَرُ، وَقِيلَ خَمْسٌ وَعَشْرُونَ وَهُوَ مَشْهُورٌ.

وَعَنْ الْفَاكْهِيِّ «قَدْ نَاهَزَ الْحُلُمَ».

وَفِي تَارِيخِ الْأَزْرَقِيِّ مَا يُؤَيِّدُهُ، (٤١) وَهُوَ بَعِيدٌ جَدًّا.

التَّاسِعُ: بِنَاءُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ فِي زَمَنِ الْإِسْلَامِ.

وَسَيَأْتِي فِي تَفْصِيلِ ذِكْرِهِ وَمَا وَقَعَ لَهُ فِي الْبَابِ الثَّلَاثِ.

الْعَاشِرُ: بِنَاءُ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوْسُفَ الثَّقَفِيِّ بَعْدَ بِنَاءِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ.

وَسَيَأْتِي بَيَانُهُ عَقِبَ ذِكْرِنَا بِنَاءِ ابْنِ الزَّبِيرِ، وَبِنَاءِ الْحَجَّاجِ، وَهُوَ جِهَةٌ الْمِيزَابِ

والحجر (بسكون الجيم) وتعلية جوف الكعبة، ورفع الباب الشريف في لصق الملّزم، وسد الباب الغربي، الذي يلصق المستجار لا غير، وما عدا ذلك في الجهات الثلاث، وهو وجه الكعبة الشريفة، وجهة ظهرها، وما بين الركن اليماني والحجر، فهو بناء عبدالله بن الزبير باق إلى الآن كما سنذكره في زيادة ابن الزبير في المسجد الحرام، وهدم الكعبة وبنائها على قواعد ابراهيم عليه السلام. انتهى.

ثم إن القطب ذكر في الباب الموعود به: «أنَّ عبدالله بن الزبير كان ممن امتنع من بيعة يزيد بن معاوية وفرَّ إلى مكة، وأطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وأنَّ يزيد أرسل عليه عسكرياً جهَّزه، وعليهم حصين بن نمير فالتجأ ابن الزبير إلى المسجد الحرام، فنصب عليه الحُصين المجانيق وأصاب بعض حجارته الكعبة الشريفة، فانهدم بعض جدرانها، ثم احترق بعض أخشابها وكسوتها، وانهمز الحُصين بعسكره هلاك يزيد وبلوغه خبر نعيه، فرأى عبدالله بن الزبير أن يهدم الكعبة ويحكم بناءها ويبنيها على قواعد ابراهيم عليه السلام، لما سمع من حديث عائشة أنَّ رسول الله ﷺ قال لها: «يا عائشة لولا أنَّ قومك حديثو عهدٍ بشرِك لهدمت الكعبة وألصقتها بالأرض، وجعلت لها باباً شرقاً وباباً غرباً، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر، فإنَّ قريشاً استقصرتها حين بنت الكعبة، فإن بدا لقومك بعدي أن يبنوه فهلُمِّي لأريك ما تركوه، فأراها قريباً من سبعة أذرع».

أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما، وهو رواية عن مسلم، عن عطاء. (٤٢)

قال: قال ابن الزبير: إنِّي سمعت عائشة تقول: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «لولا أنَّ قومك حديث عهدٍ بكفر، وليس عندي ما يقوى على بنائه، لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع» انتهى.

فاستشار عبدالله بن الزبير من بقي من الصحابة، فكان فيهم من أبى، ومنهم من وافقه، فصمَّ على ذلك، وأقدم عليه وهدم الكعبة.

قال الإمام عبدالله بن أسعد الياضي في تاريخه «مرآة [مرآة] الجنان»: إن ابن الزبير لما اكمل هدم الكعبة، كشف عن أساس ابراهيم عليه السلام، فوجد الحجر داخل البيت، فبنى البيت على ذلك الأساس، وأدخل الحجر في البيت، وألصق باب الكعبة الأرض ليدخل الناس منه، وفتح له باباً غرباً في مقابلة هذا الباب ليخرج الناس منه، كما كان عليه لما جددت قريش الكعبة قبل بعثته صلى الله عليه وسلم، وحضره النبي صلى الله عليه وسلم وعمره الشريف يومئذ خمس وعشرون سنة، وكانت النفقة قصرت بقريش لما بنوا الكعبة يومئذ، فخرجوا الحجر من البيت، وجعلوا عليه حائطاً قصيراً علامة على أنه من الكعبة، فأعادها ابن الزبير كما كانت زمن الجاهلية، وبنى على قواعد ابراهيم عليه السلام، فكان طول الكعبة قبل تسعة أذرع، فزادت قريش عليه تسعة أذرع، فلما بناها ابن الزبير كان طولها ثمانية عشر ذراعاً، فرآها عريضة لا طول لها، فزاد في طولها تسعة أذرع، فكان لها في السماء سبعة وعشرين [عشرون] ذراعاً، فلما فرغ من بنائها طيها بالمسك والعنبر، وكساها بالدباج، وبقيت من الحجارة بقية فرشها حول البيت نحواً من عشرة أذرع، وكان فراغه من عمارة البيت الشريف سابع عشر شهر رجب سنة ٦٤ من الهجرة» (٤٣)، انتهى.

ثم إن عبد الملك بن مروان لما ولي الخلافة جهز جيشاً كثيفاً على ابن الزبير، وأمر عليهم الحجاج بن يوسف الثقفي فحاصره ورمى عليه بالمنجنيق، وخذل ابن الزبير أصحابه فخرج وحده وقاتل قتلاً شديداً إلى أن قتل سنة ٧٣ من الهجرة. وفي سنة ٧٤ من الهجرة كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يذكر له أن عبدالله بن الزبير زاد في الكعبة ما ليس فيها، وأحدث باباً آخر، فكتب إليه عبد الملك بن مروان، أعدها على ما كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهدم الحجاج من جانبها الشامي قدر ستة أذرع وشبراً وبنى الجدار على أساس قريش، ولبس أرضها بالحجارة التي فضلت، ورفع الباب الشرقي وسد الباب الغربي وترك

سائرهما لم يُغيّر منها شيئاً .

ثم إنَّ عبد الملك لما حجَّ ذلك العام وسمع حديث عائشة من الحارث بن عبد الله المخزومي ندم على ذلك، فجعل ينكت بقضيبه في الأرض ساعةً طويلةً منكساً، وقال: وددتُ والله أنِّي تركت ابن الزبير وما تحمل من ذلك، كذا ذكره النجم عمر بن فهد. (٤٤)

انتهى ما أردنا نقله من تاريخ القطب في هذا الموضوع، وفي النقل اختصار، ومخالفة في بعض المواضع لترتب النقل في الأصل على وجه لم يتغير به شيء من المعنى.

وقال الشيخ جمال الدين، محمد جار الله بن محمد نور الدين بن أبي بكر بن علي بن ظهيرة القرشي المخزومي في تاريخه الذي سماه بـ«الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها والبيت الشريف» وقد انتهى تاريخه بعام خمسين وتسعمائة، قال في الباب الثالث من تاريخه فيما يتعلق ببناء الكعبة الشريفة: «اعلم أن الكعبة - زادها الله شرفاً - بُنيت مرات، قال في «منهاج المتأئين» بُنيت خمس مرات: بناء الملائكة وقيل آدم عليه السلام، بناء الخليل عليه السلام، بناء قريش، بناء عبد الله بن الزبير، بناء الحجّاج. وقد قيل: إنها بُنيت مرتين أخرتين [آخرين]، بناء العمالة بعد إبراهيم عليه السلام، ثم بنته قريش والله اعلم» انتهى.

ثم نقل عن الفاسي بناءها عشر مرات، كما مر حكايته عن القطب. ثم قال: «وفي منسك الجدّ أنّها بُنيت خمس مرات، بناء الملائكة، بناء آدم عليه السلام، بناء إبراهيم عليه السلام، بناء قريش، بناء ابن الزبير، ثم هدم الحجّاج بعضه وبناه. قال: وفي «الروض الانف» للسهيلى: «إنَّ أول مَنْ بنى الكعبة شيث بن آدم عليه السلام، وذكر في موضع آخر أن الملائكة هي التي أُسست الكعبة». وذكر القاضي تقي الدين أيضاً أنه وجد بخط عبد الله المرجاني: أنَّ عبد المطلب جدَّ النبي ﷺ بنى الكعبة بعد قصي بن كلاب، وقبل بناء قريش.

ثم قال: ولا أعلم له سلفاً ولا خلفاً، والله أعلم.
ثم حكى عن الفاكهي روايته عن عليٍّ عليه السلام أن أول من بنى الكعبة الخليل عليه السلام، وأن ابن كثير جزم بذلك في تفسيره قال: وقال (أي ابن كثير في تاريخه) عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ﴾ أنه تعالى يذكر عن خليله أنه بنى البيت العتيق الذي هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه، وبوّاه مكانه، أي أرشده إليه، ودلّه عليه.

ثم قال ابن كثير: ومن تمسك في هذا بقوله تعالى: «مكان البيت» فليس بناهض ولا ظاهر؛ لأن المراد مكانه الكائن في علم الله المعظم عند الأنبياء موضعه من لدى آدم إلى زمن إبراهيم عليه السلام، وقد ذكر أن آدم نصب عليه قبة، وأن الملائكة قالوا له: قد طفنا قبلك بهذا البيت، وأن السفينة طافت به أربعين يوماً أو نحو ذلك، وكل هذه اخبار عن بني اسرائيل وهي لا تصدق ولا تكذب» انتهى.
قال ابن ظهيرة: أقول: فعلى هذا يكون بناء البيت ثلاث مرات:
الأول: بناء الخليل عليه السلام.

الثاني: بناء قريش.

الثالث: بناء ابن الزبير والحجاج.

لأن بناء الخليل ثابت بنص الكتاب، وبناء قريش ثابت في صحيح البخاري وغيره، وبناء ابن الزبير والحجاج ذكره عامة المفسرين وأهل التواريخ وغيرهم من العلماء.

ويحتمل أن يقال إنها بنيت أربع مرات:

[الأول:] بناء الملائكة وآدم عليه السلام معاً في آن واحد.

ويشهد له ما حكى عن ابن عباس في سبب بناء آدم، وهو مجرد تأسيس.

الثاني والثالث: بناء الخليل عليه السلام وبناء قريش.

الرابع: بناء ابن الزبير والحجاج.

فيكون البناء الأول والرابع مشتركاً.

ثم على القول بأنّ بناء الملائكة وبناء آدم في وقتين فهو تأسيس أيضاً، كما ذكره الفاسي في «شفاء الغرام» لا بناء مرتفع كغيره من الأبنية، لأنّه حينئذٍ يحتاج إلى معرفة السبب في نقض الملائكة بناء آدم، أو نقض آدم بناء الملائكة، ولم أر أحداً ذكر ذلك فيما وقفت عليه، ولا تعرّض لمقدار ارتفاع بناء الملائكة وآدم في السماء، فيُحتمل ألا يكون هناك ارتفاع، أو يكون وهدم بتتابع القرون، فبني ثانياً على ما وجد من الأساس.

قال: «وأما سبب بناء ابن الزبير، فهو أنّ الحصين بن نمير لما قدم مكة، ومعه الجيش من قبل يزيد بن معاوية لقتال ابن الزبير، جمع ابن الزبير أصحابه، فتحصّن بهم في المسجد الحرام حول الكعبة، ونصب خياماً يستظلون فيها من الشمس، وكان الحصين قد نصب المنجنيق على أخشبيّ مكة، وهما أبو قبيس والآخر الذي يقابله، وصار يرمي به على ابن الزبير وأصحابه، فتصيب الأحجار الكعبة، فوهنت لذلك، وتخرقت كسوتها عليها، وصارت كأنها جيوب النساء.

ثم إنّ رجلاً من أصحاب ابن الزبير أوقد ناراً في بعض تلك الخيام مما يلي الصفا، بين الركن الأسود واليماني، والمسجد يومئذ صغير، وكانت في ذلك اليوم رياح شديدة، والكعبة إذ ذاك مبنية بناء قريش مدماك من ساج، ومدماك من حجارة، فطارت الريح بشرارة من تلك النار فتعلقت بكسوة الكعبة، فاحترقت واحترق الساج الذي بين البناء، فازداد تصدع البيت، وضعف جدرانه، وتصدع الحجر الأسود أيضاً، حتّى ربطه ابن الزبير بعد ذلك بالفضة، ففزع لذلك أهل مكة واهل الشام الحصين وجماعته.

وعن الفاكهي: أنّ سبب حريق البيت، إنّما كان من بعض أهل الشام أحرق على باب بني جُمَح، وهو باب الصفا، وفي المسجد يومئذ خيام، ففشى الحريق حتّى أخذ في البيت فظن الفريقان أنّهم هالكون.

قال الجدّ: قلت: وهذا يخالف ما ذُكر أن السبب في ذلك بعض اصحاب ابن الزبير، ولعل ما ذكره الفاكهي أصوب، على أنه يمكن الجمع بوقوع كل من ذلك فيكون السبب مركباً» انتهى.

ثم جاء نعي يزيد بعد ذلك بتسعة وعشرين يوماً، والحصين مستمر على حصار ابن الزبير، فارسل ابن الزبير إلى الحصين جماعة من قريش، فكلّموه وعظّموا عليه ما أصاب الكعبة.

وقالوا له: إنّ هذا من رميكم لها. فانكر ذلك ثم ولى راجعاً إلى الشام. فدعا ابن الزبير حينئذ وجوه الناس، واستشارهم في هدم الكعبة، فأشار عليه القليل من الناس بذلك، وأبى الكثير، وكان أشدهم عبدالله بن عباس.

وقال: دعها على ما أقرها رسول الله ﷺ فإنّي أخشى أن يأتي بعدك من يهدّمها، فلا تزال تهدم وتبنى فيتهاون الناس بحرمتها، ولكن ارقعها. فقال ابن الزبير ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه، فكيف أرقع بيت الله؟! بيت الله؟!!

واستقر رأيه على هدمها رجاء أن يكون هو الذي يردّها على قواعد الخليل عليه السلام لقوله لعائشة «لولا قومك حديثو عهد بكفر وفي رواية «حديث عهد بكفر لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين»» (٤٥).

ثم إنّ ابن الزبير أمر بهدم الكعبة، وكان ذلك سنة أربع وستين من الهجرة، يوم السبت النصف من جمادى الآخرة، أخرجه الأزرقي.

وقيل: سنة خمس وستين، فلم يجتز أحدٌ على ذلك، وخرج عبدالله بن عباس إلى الطائف، فلما رأى ذلك ابن الزبير علاها بنفسه وأخذ المِعُول وجعل يهدّمها، فلما رأى أنه لم يصبه شيء صعدوا معه، وهدّموا وأرقى ابن الزبير عبيداً من الحبش يهدّمونها رجاء أن يكون فيهم صفة الحبشي الذي قال فيه ﷺ: «يُحَرَّبُ الكعبة ذو السويقتين من الحبشة» (٤٦).

الهوامش :

- (١) هو السلطان مراد بن السلطان سليم بن السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن السلطان محمد بن السلطان مراد بن السلطان محمد بن السلطان يلدزم بايزيد بن السلطان مراد اورخان بن السلطان عثمان . هكذا نسيه القُطبي في تاريخه [منه قدّس سره] .
- (٢) شفاء الغرام ١ : ٩١ .
- (٣) في النسخة الثانية : أين سكنك .
- (٤) سورة البقرة : ٣٠ .
- (٥) في النسخة الثانية : الخلقة .
- (٦) سورة البقرة : ٣٥ .
- (٧) في النسخة الثانية : فقالت .
- (٨) في النسخة الثانية : الكعبة .
- (٩) في النسخة الثانية : جريج .
- (١٠) في النسختين : بخطيتك .

(١١) ذكر ابن ظهيرة بعد قوله ثلاثون رجلاً:

قال ابن عباس «فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به آدم، ولم يزل كذلك حتى بعث الله الطوفان

فدرس مواضع البيت.

ثم قال: أقول هذا ما يشهد بأن بناء الملائكة وبناء آدم ﷺ بناء واحد» انتهى.

(١٢) أخبار مكة ١: ٣٦.

(١٣) أخبار مكة ١: ٤٠.

(١٤) أخبار مكة ١: ٤٣.

(١٥) أخبار مكة ١: ٤٤.

(١٦) أخبار مكة ١: ٤٤.

(١٧) أخبار مكة ١: ٥١.

(١٨) في النسخة الثانية: مما يصح به.

(١٩) شفاء الغرام ١: ٩٠ الباب السابع.

(٢٠) شفاء الغرام ١: ٩١ أخبار عمارة الكعبة المعظمة.

(٢١) شفاء الغرام ١: ٩٢.

(٢٢) شفاء الغرام ١: ٩١.

(٢٣) أخبار مكة ١: ٦٦-٦٥.

(٢٤) أخبار مكة ١: ٦٣.

(٢٥) شفاء الغرام ١: ٩١ الباب السابع.

(٢٦) أخبار مكة ١: ٥٤-٥٣.

(٢٧) أخبار مكة ١: ٦١-٦٠.

(٢٨) أخبار مكة ١: ٨٤-٨٣.

(٢٩) أخبار مكة ١: ٦٢-٦١.

(٣٠) شفاء الغرام ١: الباب السابع.

(٣١) مروج الذهب ٢: ٢٣-٢٢، أخبار مكة ١: ٨٢.

(٣٢) أخبار مكة ١: ٨٩.

(٣٣) شفاء الغرام ١: ٩٢ الباب السابع.

(٣٤) شفاء الغرام ١: ٩٢، الباب السابع.

(٣٥) شفاء الغرام ١: ٩٢ الباب السابع.

(٣٦) أخبار مكة ١: ١٦٠.

(٣٧) سيرة ابن اسحاق: ١٠٤، سيرة ابن هشام ١: ٢٠٥، أخبار مكة ١: ١٦١.

- (٣٨) سيرة ابن اسحاق: ١٠٨-١٠٧، سيرة ابن هشام ١: ٢٠٦، أخبار مكة ١: ١٦٤.
 (٣٩) أخبار مكة ١: ١٦٤.
 (٤٠) شفاء الغرام ١: ٩٥.
 (٤١) أخبار مكة ١: ١٦٤.
 (٤٢) كنز العمال ١٢: ٢٢٢.
 (٤٣) شفاء الغرام ١: ٩٧.
 (٤٤) شفاء الغرام ١: ١٠٠.
 (٤٥) كنز العمال ١٢: ٢٢٢.
 (٤٦) كنز العمال ١٤: ٢٢١.

معالم الحج وآفاقه في مدرسة أهل البيت عليه السلام

منذر الحكيم

ويعود ذلك كلّه لأسباب منها:
الدور الفاعل لأهل بيت الوحي عليه السلام بما
فيهم سيّد المرسلين، وأئمّة المسلمين
من أبناء الرسول العظيم، الذين تابعوا
الرسول الكريم صلى الله عليه وآله في خطاه الحكيمة
والقرآن العظيم في توجيهاته السديدة،
فسلكوا سبيل الهدى بكلّ ما أوتوا من
حول وقوّة وحكمة حتى بيّتوا معالم
وتفاصيل هذه العبادة المهمّة بشعائره
المتنوّعة، وأرسوا دعائمها تشريعاً
وتشويقاً، وحثّوا على أدائها كلّ من
يرتبط بهم من قريب أو بعيد،

تحتلّ فريضة الحج باهتمام
المسلمين جميعاً وتعدّ من الشعائر
والعبادات التي يتفق على وجوب
أدائها جميع المذاهب الإسلامية، كما
تعبّر هذه الفريضة عن وحدة الأمة
الإسلامية واستقلال كيانها. وهي بعد
ذلك كلّه: رمز قوّتها وعظمت قدرتها
واستمرار حيويّتها.
ولم تستطع أيدي العابثين أن
تعطلّ هذه العبادة العظيمة بالرغم من
سعيهم الحثيث لإفراغها من مضمونها
ومحتواها الكبير.

وجسّدوا كلّ ما قالوا في سلوكهم الحيّ، ولم يكتفوا ببيان تاريخها العريق من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله وفضائلها وآثارها الدنيوية المادية وأجرها الأخروي، وإثماً عكفوا على بيان فلسفتها شعيرة شعيرة، وعملاً عملاً، ونفّذوا إلى أعماقها؛ ليصوّروا عرفانها بالعمل قبل البيان، وبالجنان قبل اللسان.

لقد تميّزت مدرسة أهل البيت في نظرتها إلى الحجّ وشعائره بسميّات أعطت الحجّ مضموناً خاصّاً، وشكلاً متميّزاً يُشار من خلاله إلى أتباعها بالبنان، وهو يثير لدى المسلمين عامة أسئلة شتّى عن مدى البُعد المعنوي والسياسي المتميّز لحجّهم عمّن سواهم، اقتداءً بأئمّة أهل البيت المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ويمكن تلخيص هذه المميّزات في عدّة نقاط:

الأولى: شدّة الاهتمام المتمثّل بالقول والعمل معاً.

الثانية: الاهتمام المتميّز بالشكل والمضمون معاً.

الثالثة: عدم إغفال البُعد السياسي والجهادي إلى جانب البُعد العبادي.

الرابعة: تعميق البُعد العبادي والعرفاني بشكل ملفت للنظر.

الخامسة: عدم تجاوز نصوص ومقاصد الكتاب والسنة بالرغم من كثرة التفرّيع والتفصيل.

إنّ أهل بيت الرسول الأمين صلّى الله عليه وآله وعترته المعصومين - الذين قرّنههم الرسول صلّى الله عليه وآله بحكم التنزيل واعتبرهم عدلاً للقرآن العظيم في حديث الثقلين الشهير وحديث السفينة وحديث النجوم وغيرها ممّا ورد في تفسير آيات الذكر الحكيم التي تشير إلى أنهم أهل الذكر وولاية الأمر والحافظون لحدود الله - هم الرّوادّ الصادقون الأئمّة على شريعة جدّهم ورسالته حيث عصمهم الله من الزلزل وآمنهم من الفتن، والمطهّرون الذين يتسوّى لهم تفسير الكتاب كما ينبغي، واقتفاء أثره

اقتفاءً يجعلهم الأسوة الحسنة بعد رسول الله ﷺ والقدوة المثلّية التي لا يطمع في إدراكها طامع .

ومن هنا كان من الطبيعي جداً أن يكون منهجهم في إرساء دعائم هذه الفريضة العظيمة وتعظيم شعائر الله هو منهج القرآن المجيد، وخطاهم إلى تثبيت قواعدها تبع لخطاه.

والقرآن المجيد قد كثف الإضاءة على بيت الله الحرام ومشاعر الحج العظام، تاريخاً وتعظيماً وفلسفةً وأحكاماً وعرفاناً، فجعله مركزاً للتوحيد، وعتيقاً من برائن الشرك، وقياماً للناس، ومباركاً وهدى للعالمين، وأمناً للناس، ومثابةً لهم، ومطهراً ومحلاً خاصاً للطائفين حول محور الوجدانية الحقيقية والعاكفين والركع السجود.. فهو التعبير الصادق عن إسلام الوجه لله والتسليم لإرادته العليا، والمختبر الكامل للإنسان الطائع باتجاه الكمال اللائق به، والبوقة التي تصهر شوائب الروح، وتمحو ما علق بها من أدران خلال مختلف مراحل

الحياة.

لقد كانت لسيرتهم الزاخرة بالعطاء العلمي والعَمَلِي والعرفاني وكان لسعيهم الحثيث - لإرساء معالم الشريعة وقواعدها المحكمة - الدور الكبير والأثر البالغ في تألق الإسلام والمسلمين بشكل عام وتجليه عظمة الشريعة الإسلامية بشكل خاص، وتركيز شعائر الحج بشكل أخص حتى ورد عنهم عليه السلام «أن الدين لا يزال قائماً ما قامت الكعبة»، وأن ولاية الأمر مسؤولون عن رعاية هذه الشعائر في كل الظروف التي تمرّ بها الأمة الإسلامية، وينبغي أن لا يحول بينهم وبين إقامتها أي ضعف مالي، أو أي خلل اقتصادي ينتاب الناس حيث تخصص بعض ميزانية الدولة الإسلامية؛ لإحياء هذه الشعائر على مرّ الدهور والأحوال.

نعم هذه هي مدرسة أهل البيت عليهم السلام وهي تعطي صورة موجزة وملخصة جداً من معالم نظريتهم وثقافتهم الربانية إلى الإسلام ككل،

جملة من آيات الذكر الحكيم، مثل قوله تعالى:

١ - ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا

لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾^(٢).

٢ - ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾^(٣).

٣ - ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ...﴾^(٤).

٤ - ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(٥).

فالتقوى هو الهدف الذي تسعى الشريعة الإسلامية لتحقيقه من خلال العمل بقوانينها، والشعائر الإلهية التي نصّت عليها آيات الذكر الحكيم هي شعائر الحج وهي من جملة أركان العبادة الإسلامية، التي ينبغي للمسلمين احترامها وتعظيمها باعتبارها من «حُرُمَاتِ اللَّهِ»، فهي من جملة القوانين التي تحمل طابع العبادة أولاً وتعطي للمسلمين معلماً من معالم شخصيتهم المستقلة ثانياً فهي تحمل بين جوانحها روح التسليم لله،

وإلى هذا الركن الإسلامي العظيم بشكل خاص.

الشعائر الإلهية:

جاء في مختار الصحاح أنّ (الشعائر): هي كلّ ما جعل علماً لطاعة الله تعالى. وهي أعمال الحج أيضاً، والمشاعر هي موضع المناسك. وشعار القوم في الحرب علامتهم ليعرف بعضهم بعضاً، وأسعر الهدى إذا طعن سنامه الأيمن حتى يسيل منه دمٌ ليعلم أنّه هديّ.

ومن هنا فقد عُرف الشعار بأنه «ممارسة - كلامية أو غير كلامية - تصبغ شخصية الإنسان الممارس، وتطبعها بطابع خاص يميّزها عما سواها»^(١).

فالشعائر الإلهية هي معالم الطاعة لله تعالى، والتي تتضمن ممارستها أهدافاً حقيقية هي أهداف الشريعة التي تقودها وتدعو إلى ممارستها، كما أنّها تعطي للممارسين لها عنواناً يميّزهم عن سواهم. وتتجلّى هذه النقاط بوضوح في

ولا سيما إذا لاحظنا كل ما يرتبط بالحج وتأريخه وشؤونه .

فمن السور المكية : سورة إبراهيم [الآيات ٣٥ - ٣٧] ، والنمل [الآية ٩١] والقصص [الآية ٦٧] ، والعنكبوت [الآيات ٢٤ إلى ٢٨] ومطلع سورة البلد ومطلع سورة التين وسورة قريش وسورة الفيل .

ومن السور المدنية : سورة البقرة [الآيات ١٢٥ - إلى ١٢٩ و ١٤٢ إلى ١٥٢ و ١٥٨ و ١٨٩ و ١٩٦ إلى ٢٠٣] . وسورة آل عمران [الآيات ٩٥ إلى ٩٧] وسورة المائدة [الآيات ٢ و ٩٥ إلى ٩٧] ، وسورة الأنفال [الآيات ٣٤ إلى ٤٠] وسورة التوبة [الآيات ١ إلى ١٩ و ٢٨] وسورة الحج [الآيات ٢٥ إلى ٣٧] .

وأما أسلوب العرض فهو أسلوب الحث والتحريض والتأكيد والتعميم ، فالخطاب فيه للناس كافة وليس للمؤمنين خاصة ، قال تعالى :

١ - ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى

والشعور بالعزة بالله ، والشعور بالاستقلال عن سائر الأمم بشقئ شرائعها ومذاهبها .

شعائر الحج في القرآن الكريم :

تتضح أهمية الحج وشعائره الإلهية في القرآن الكريم من خلال :

١ - المساحة التي استوعبتها آيات الحج في القرآن الكريم .

٢ - أسلوب الطرح واسلوب الدعوة إلى إقامتها .

٣ - الاهتمام البالغ بفلسفة إقامة هذه الشعائر .

٤ - تقنين هذه الشعائر وبيان أحكامها بالتفصيل .

٥ - الاهتمام ببيان جذورها التاريخية العريقة .

وإذا لاحظنا منهج أهل البيت (عليه السلام) فيما يخص إحياء شعائر الحج وقارئاه بالمنهج القرآني وجدناه يحذو حذوه ويتمثل خطاه حذو القذة بالقذة .

أما المساحة الملفتة للنظر فهي تنوُّع على السور المكية والمدنية معاً ،

- للعالمين»^(٦).
 ٢- «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً»^(٧).
 ٣- «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً»^(٨).
 ٤- «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس»^(٩).
 ٥- «وأذن في الناس بالحج...»^(١٠).
 وهناك أدوات أخرى للعموم استخدمها النص القرآني مثل قوله تعالى:
 ١- «ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه».
 ٢- «ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب».
 ويتجلى التأكيد في التكرار المتنوع، واستعمال شتى أساليب التأكيد البلاغي في الآيات المباركة.
 ويأتي بيان حرمة البيت وأمنه وحلول البركة فيه، واعتباره محطة إشعاع وهداية للعالمين بما فيه من عدة عوامل إيجابية للحث والتحريض والتشويق لقصده وحجّه وإحياء شعائره.
 هذا فضلاً عن النص الدالّ على الوجوب، والنصوص المتضمنة لبيان فلسفة الحج، وفلسفة إقامة هذه الشعائر حيث إنّها تعدّ من أساليب الحثّ والتشويق أيضاً.
 وتكرّر في آيات الحج الإشارة والتصريح إلى فلسفة الحج في الإسلام، والحكم التي تحققها ممارسة شعائره ومناسكه. قال تعالى:
 ١- «ولكل أمة جعلنا منسكاً ليعذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام»^(١١).
 ٢- «والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير...»^(١٢).
 ٣- «لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم»^(١٣).
 ٤- «كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم»^(١٤).
 ٥- «وأذن في الناس بالحج... ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم

الله.. ﴿١٥﴾.

٦ - ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ حُرُمَاتِ
الله فهو خيرٌ له عند ربِّه﴾ (١٦).

٧ - ﴿وَمَنْ يُعِظْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا
مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى
أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (١٧).

٨ - ﴿الْحَجَّ أَشْهَرُ مَعْلُومَاتٍ...
وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ
التَّقْوَى...﴾ (١٨).

إن تكثيف الإضاءة على فلسفة
الحج، وحكم ممارسة الشعائر المرتبطة
به، هو أسلوبٌ متميز في بناء الإنسان
وتربيته وصياغة تصوراتهِ صياغةً
تجمع بين طيَّاتها روح التَّعَبُّد والتَّعَقُّل
معاً من دون أن يَسْلُبَ التَّعَقُّلُ روحَ
التَّعَبُّد من الإنسان العاقل، وإنَّما
يتسامى بتقواه ليرتفع مرتبةً أولى
الألْبَاب، فيتكامل عقلاً ويتسامى
روحاً، وهو يمارس هذه الشعائر
بوعي وجدٍّ واهتمام.

ويمكن تلخيص هذه الأهداف
التي نصَّ عليها الكتاب العزيز فيما يلي:
١ - ذكر الله وحده في كلِّ حال

ومجال وعلى كلِّ شيء، واجتناب
رجس الشرك على كلِّ المستويات
تصوراً واعتقاداً وتعلُّقاً وسلوكاً.

٢ - تنمية روح التقوى التي بها
فلاح الإنسان وفوزه على أسس
التوحيد الخالص.

٣ - الانتفاع من موسم الحج
وشعائره على شتَّى الأصعدة: اجتماعياً
وسياسياً واقتصادياً فضلاً عن
التكامل الثقافي في مثل هذا الموسم
الفريد، والتسامي الروحي والمعنوي
في جميع لحظات هذا الموسم.

ويتفرَّد القرآن الكريم بأسلوبه
الخاصّ لبيان قوانينه وأحكامه بياناً
يتناغم مع منطق العقل ومنطق
العاطفة، ويجمع بين متطلَّبات العقل،
ومتطلَّبات الروح معاً.

قال تعالى:

(١) ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ
مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ
اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩).

(٢) ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً
لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ

إبراهيم مصلّي ﴿٢٠﴾.

فالله سبحانه - الذي له المولوية المطلقة وله الخلق وحقّ النعمة على جميع الناس - يجعل أداء هذا الواجب أداءً لحقّه، والإعراض عنه كُفراناً للنعم الإلهية وكُفراً عملياً بالمنعم، ولا يكون أدائه تلبية لهذا الحق لحاجة منه تعالى إلى أعمال عباده، بل يعود نفعه إلى الناس أنفسهم. ومثل هذا القانون الذي ينطلق تشريعه للناس من مصالح العباد أنفسهم، ولا يكون للمشترع فيه أي غرض أو مصلحة شخصية، لا يجد الانسان الطائع في أدائه ثقلاً وحرَجاً مهما كانت صعوبته.

ويأتي الاهتمام ببيان الجذور التاريخية العريقة لهذه الشعائر معلماً من معالم المنهج القرآني؛ لإرساء قواعد هذه الفريضة في المجتمع الإسلامي.

إن رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لقواعد البيت يشير إلى أن بيت الله الحرام قد سبق وضعه للناس عصر إبراهيم الخليل عليه السلام، والاهتمام ببيان

دور إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام في تشييد دعائم هذا البيت العتيق وأمره بأن يؤذن في الناس بالحجّ بعد تشييد دعائمه.

واستمرار الناس في إقامة شعائره كرمز من رموز الحنيفية..
لَدليل على أهمية بيان الجذور التاريخية لهذه الفريضة المباركة، ومدى تأثير ذلك في إرساء قواعد الحركة التصحيحية والتكاملية، التي خطاها القرآن الكريم باتجاه تعميق هذا التيار في المجتمع الإسلامي الفتي.
أهل البيت عليه السلام على خُطى القرآن الكريم

لم يتخطَّ أهل البيت عليه السلام هدى القرآن الكريم في سيرتهم وسنتهم، التي هي تجسيد وامتداد لسنة الرسول العظيم.

إنّ ما تضمّنته مصادر السيرة والتاريخ فيما يخصّ تعامل أهل بيت الوحي مع الحج في مجال العمل والتطبيق، لا يقلّ روعةً وعظمةً عما تضمّنته كتب الحديث من نصوصهم

الكثيرة حول الحج ومعالمه وفلسفته وتأريخه، وشكله ومضمونه وترامي أبعاده وعمق عرفانه، وتجليه الجانب العبادي فيه.

الحج في سيرة أهل البيت عليهم السلام ونصوصهم

لقد تميّز الحج في سيرة أهل البيت عليهم السلام العملية، وتميّزت سيرتهم في مجال الاهتمام بالحج حتى ورد أن عبّاداً البصري لقي الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في طريق مكة فقال له: يا علي بن الحسين تركت الجهاد وصُعوبته، وأقبلت على الحجّ ولينه إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾؟!.

فقال علي بن الحسين عليه السلام: أتمّ الآية. فقال: ﴿التائبون العابدون...﴾ الآية. فقال علي بن الحسين عليه السلام: إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم، فالجهاد معهم أفضل من الحجّ ^(٢١). أو قال: إذا ظهر هؤلاء لم نؤثر على الجهاد

شيئاً ^(٢٢).

وقد حجّ الإمام الحسن السبط خمساً وعشرين حجّة ماشياً على قدميه، وكانت النجائب تقاد بين يديه. وسُئل عن كثرة حجّه ماشياً فأجاب: إني أستحي من ربّي أن لا أمضي إلى بيته ماشياً على قدمي ^(٢٣). ونقل مثل هذا عن الإمام أبي عبدالله الحسين عليه السلام أيضاً ^(٢٤).

وأما زين العابدين (علي بن الحسين عليه السلام) فقد كان ملازماً للحج منذ صغره، وكان يحجّ ماشياً وراكباً، وكان يدعو إلى تكريم الحجّاج إذا قدموا من بيت الله الحرام قائلاً: استبشروا بالحجّاج إذا قدموا وصافحوهم وعظّموهم، تشاركوهم في الأجر قبل أن تحالطهم الذنوب ^(٢٥).

وكان إذا أراد السفر إلى بيت الله الحرام احتفّ به القرّاء والعلماء، حيث إنهم كانوا يكتسبون منه العلم والعرفان والحكم والآداب حتى قال سعيد بن المسيّب: إنّ القرّاء كانوا لا يخرجون إلى مكة حتى يخرج علي بن

الحسين، فخرج وخرجنا معه ألف راكب^(٢٦).

وكان يهتم ﷺ بسنن الحج بشكل كبير، ويُقبل على الله تعالى بكل إخلاص وخشية حتى إنه كان إذا أراد التلبية عند عقد الإحرام اصفر لونه واضطرب، ولم يستطع أن يلبي، فقل له: مَالِكَ لَا تُلْبِي؟ فيجيب وقد أخذته الرعدة والفرع من الله: أَخَشَى أَنْ أَقُولَ: لَبِيكَ فيقال لي: لَا لَبِيكَ.

وكان إذا لبى غشي عليه من كثرة خشيته من الله، وسقط من راحلته، ولا تزال تعتريه هذه الحالة حتى يقضي حجه^(٢٧).

وهناك ظاهرتان مهمتان في سيرة أهل البيت ﷺ في حجهم:

الأولى: ظاهرة كثرة الدعاء وشدة الإقبال على الله تعالى بالأدعية الطويلة الزاخرة بالمفاهيم التربوية والمعرفية العالية مثل دعاء الإمام الحسين ﷺ المعروف بدعاء عرفة، ولعله أطول دعاء من نوعه، ويناظره دعاء الإمام زين العابدين في الصحيفة

السجّادية الخاص بيوم عرفة أيضاً. قال بشر وبشير الأسديان: كنّا

مع الحسين بن علي ﷺ عشية عرفة فخرج ﷺ من فسطاطه متذللاً خاشعاً، فجعل يمشي هوناً هوناً حتى وقف هو وجماعة من أهل بيته وولده ومواليه في ميسرة الجبل مستقبل البيت، ثم رفع يديه تلقاء وجهه كاستطعام المسكين وقال:

«الحمد لله الذي ليس لقضائه دافع، ولا لعطائه مانع، ولا كصنعه صنع صانع، وهو الجواد الواسع... ومّا قال بعد أن دعا طويلاً وكانت دموعه قد جرت على سحنات وجهه الشريف:

«اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك، واسعدني بتقواك ولا تشقني بمعصيتك وخرلي في قضائك وبارك لي في قدرك، حتى لا أحبّ تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت، اللهم اجعل غناي في نفسي واليقين في قلبي والاخلاص في عملي... الثانية: ظاهرة العرفان العميق

لهذه الفريضة، وتجاوز مظاهرها باتجاه باطنها، والغور في أعماقها، فلكلّ عمل ظاهر وباطن، ولكل شعيرة مظهر وواقع، وبالرغم من أن الاهتمام بمظاهر الحجّ يحقق أهدافاً جُلى، وقد دعا الأئمة عليهم السلام المسلمين إلى الاهتمام بهذه المظاهر، ولكن الأئمة أنفسهم لم

يقفوا عند حدود المظهر، بل كانوا لا يعتبرون الحجّ حجّاً إلّا إذا نفذ الإنسان إلى أعماقه. وهناك نموذج ممّا أثر عن الإمام زين العابدين عليه السلام في هذا الصدد، وذلك في حديثه مع الشبلي بعد أن حجّ والتقى بالإمام عليه السلام (٢٨).

الهوامش :

- (١) السيد محمد باقر الحكيم: الفكر الإسلامي، العدد ١١، ص ١٠ (دور الشعار في النظرية الإسلامية).
- (٢) الحج: ٣٤.
- (٣) الحج: ٣٦.
- (٤) الحج: ٣٠.
- (٥) الحج: ٣٢.
- (٦) آل عمران: ٩٦.
- (٧) آل عمران: ٩٧.
- (٨) البقرة: ١٢٥.
- (٩) المائدة: ٩٧.
- (١٠) الحج: ٢٧.
- (١١) الحج: ٣٤.
- (١٢) الحج: ٣٦.
- (١٣) الحج: ٣٧.
- (١٤) الحج: ٣٧.
- (١٥) الحج: ٢٧.

- (١٦) الحج : ٣٠.
- (١٧) الحج : ٣٢.
- (١٨) البقرة : ١٩٧.
- (١٩) آل عمران : ٩٧.
- (٢٠) البقرة : ١٢٥.
- (٢١) وسائل الشيعة ١١: ٣٢ الحديث ٣ و ٦.
- (٢٢) المصدر نفسه.
- (٢٣) حياة الإمام الحسن بن علي ١: ٣٢٧-٣٢٨.
- (٢٤) حياة الإمام الحسين بن علي ١: ١٣٤.
- (٢٥) حياة الإمام زين العابدين عليه السلام ١: ٢٢٦.
- (٢٦) المصدر ١: ٢٢٧.
- (٢٧) المصدر ١: ٢٢٨.
- (٢٨) راجع العدد الرابع من مجلة ميقات الحج، للاطلاع على تفصيل الحديث.

المدينة المنورة فضلها وقداستها أرضها

محمد جواد الطبسي

المدينة .. بلدة مقدّسة ، وأرض طاهرة ،.. أسكنها الله تعالى أعزّ الأنفس وأحبّها إليه رسوله الكريم .. نزلت فيها أكثر آيات القرآن .. هي دار الأبرار ودار الأخيار ، هي دار الإيمان ودار الهجرة .. هي مدينة الإسلام وقرية الأنصار .. هي حرم الرسول ومهاجر النبي والآل .. هي مدفن النبي ومهبط الملائكة . فيها الروضة المقدّسة والمسجد النبوي .. وفيها قبا ومراقد أصحاب الكساء .. هي طيبة طابة وجابرة ومجبورة .. فسلام على هذه التربة العطرة والبلدة الطاهرة ، وسلام على من شرّفها وزادها قداسة .

وبعد فهذه روايات يسيرة من عشرات الروايات حول فضل المدينة المنورة ، رتبناها تحت ثمانية عشر عنواناً .

١ - المدينة المنورة أفضل من مكّة:

ومّا يدل على قداسة هذه البلدة الطاهرة أنها أفضل من مكّة المكرّمة؛ لما ضمت أعضاء النبي الكريم ، الذي هو أعزّ من الكعبة عند الله تعالى .

وقد اختلف الباحثون حول أفضلية المدينة على مكة، فمنهم من فضل المدينة على مكة، ومنهم من قدّم مكة على المدينة من حيث الفضل، ولكل أدلة ولا داعي إلى إطالة الكلام في هذا المقال، ونكتفي بذكر ما قاله السهمودي: قد انعقد الإجماع على تفضيل ما ضمّ الأعضاء الشريفة حتى على الكعبة المنيفة، وأجمعوا بعدد على تفضيل مكة والمدينة على سائر البلاد واختلفوا أيّهما أفضل، فذهب عمر بن الخطاب وابنه عبدالله ومالك بن أنس وأكثر المدنيين إلى تفضيل المدينة... وحكاية الإجماع تفضيل ما ضمّ الأعضاء الشريفة نقله القاضي عياض وكذا القاضي أبو الوليد الباجي قبله، كما قال الخطيب ابن جملة، وكذا نقله أبو اليمن ابن عساكر وغيرهم مع التصريح بالتفضيل على الكعبة الشريفة، بل نقل التاج السبكي عن ابن عقيل الحنبلي أن تلك البقعة أفضل من العرش^(١).

وأضاف السخاوي: ولا شك في أن مواضع الأنبياء وأرواحهم أشرف ممّا سواها من الأرض والسماء، والقبر الشريف أفضلهما؛ لما تنزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة التي لا يعلمها إلا ما نوحها، ولساكنه عند الله من المحبة والاصطفاء ما تقصر العقول عن إدراكه، ويعمّ الفيض من ذلك على الأمة، سيما من قصده وأمه^(٢).

ويكفيك ما رواه معاوية بن خديج عن النبي ﷺ في هذا المجال قال: أشهد سمعت رسول الله ﷺ يقول: المدينة خير من مكة^(٣).

٢ - المدينة المنورة أحبّ الأرض إلى الله:

ومن فضائل المدينة المنورة أنها أرض أحبّها الله عزّ وجلّ واختارها لنبيه أن يكون بها سكناه ومضجعه بعد أن كان يحب مكة المكرمة.

كما روي عنه ﷺ أنه قال حين توجه إلى الهجرة: اللهم إني قد أخرجتني من أحبّ أرضك إليّ، فأنزلي أحبّ أرض إليك، فأنزله المدينة، فلما نزلها قال: اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً واسعاً^(٤).

٣ - المدينة المنورة حرم رسول الله ﷺ:

لله تبارك وتعالى حرم، كما أنّ لرسول الله ﷺ ولعلي بن أبي طالب ولأهل البيت حرماً، وحرّم الله مكة المكرمة وحرّم رسوله المدينة المنورة، وحرّم علي الكوفة، وحرّم العترة الطاهرة قم المقدسة على ما روي عن الصادق عليه السلام حينما دخل عليه من أهل الري فقال: مرحباً بإخواننا من أهل قم. فقالوا: نحن من أهل الري. فأعاد الكلام. قالوا ذلك مراراً وأجابهم بمثل ما أجاب به أولاً، فقال: إنّ الله حرماً وهو مكة، وإنّ للرسول ﷺ حرماً وهو المدينة، وإنّ لأمير المؤمنين عليه السلام حرماً وهو الكوفة، وإنّ لنا حرماً وهو بلدة قم، وستدفن فيها امرأة من أولادي تسمّى فاطمة فن زارها وجبت له الجنة.. (٥).

وللحرم حدود كما أنّ له حرمة، وعلى الذي يدخل الحدود يجب أن يراعي حرمة، ولكن الفرق بين حرم الله وحرّم رسوله هو أنّ ما قيل من الإحرام واجتناب الصيد وقطع الأشجار وغير ذلك من المحرمات يختصّ بمكة المكرمة، ولا يجب مراعاة هذه المسائل في المدينة المنورة، وإن جاء التصريح باجتناب الصيد وقطع الأشجار فيها كما في الأحاديث المروية عنهم عليه السلام وكما سنوافيك به إن شاء الله.

حدود حرم الرسول ﷺ:

وأما حدود حرم الرسول ﷺ فقد روى ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في ذلك قال: حد ما حرّم رسول الله ﷺ من المدينة من ذباب إلى واقم والعريض والنقب من قبل مكة (٦).

حكم الصيد وقطع الأشجار في حرم الرسول ﷺ:

لقد سئل أهل البيت عليه السلام عن حكم الصيد، وقطع الأشجار في حرم الرسول ﷺ، فمروا أجابوا بأنه لا يجب المراعاة، كما يجب في الحرم المكي، وأخرى فرّقوا بين الصيد وقطع الشجر، وثالثة بعدم الفرق.

● - عن يونس بن يعقوب قال: سألت أبا الحسن موسى. يحرم عليّ في حرم رسول الله ما يحرم في حرم الله عزّ وجلّ؟ قال: لا^(٧).

● - وعن الصدوق بسنده عن الحسن بن الصيقل قال: قال أبو عبد الله كنت جالساً عند زياد بن عبيد الله وعنده ربيعة الرأي، فقال له زياد: يا ربيعة ما الذي حرم رسول الله ﷺ من المدينة؟ فقال له: بريد في بريد، فقلت لربيعة: فكانت على عهد رسول الله بريد؟ فسكت ولم يجبني، قال: فأقبل على زياد، فقال: يا أبا عبد الله فما تقول أنت؟

فقلت: حرم رسول الله من المدينة من الصيد بين لابتيتها، قال: وما لابتيتها؟ قلت: ما أحاط به الحرار. قال: فقال لي: ما حرم رسول الله من الشجر؟ قلت: من غير إلى وعيرة^(٨).

● - وعن معاوية بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله يقول: ما بين لابتقي المدينة ظل عاير إلى ظل وعير حرم. قلت: طائر كطائر مكة؟ قال: ولا يعضد شجرها^(٩).

ولكن بملاحظة الرواية الأولى الدالة على جواز الصيد وقطع الشجر، خصوصاً بملاحظة عدم وجود فتوى تنص على الحرمة، لا بدّ من أن تحمل الرواية الثانية والثالثة وما شابهها على الكراهة.

٤ - حبّ النبيّ المدينة المنورة:

كان النبي ﷺ يحب المدينة حبّاً شديداً حتى إنّه لما كان يقدم من سفرٍ إلى المدينة، وينظر إلى جدرانها كان يحرك دابته من حبّها.

قال العباسي: وروينا من حديث أنس قال: لم يكن رسول الله ﷺ يقدم من سفر، فينظر إلى جدران المدينة إلّا وضع دابته من حبّها^(١٠).

وروي أيضاً عن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله ﷺ: إذا قدم فنظر إلى جدران المدينة أوضع راحلته، وإن كان على دابة حرّكها من حبّها^(١١).

٥ - المدينة المنورة مخصوصة بكثرة الأسماء:

وسبقت هذه المدينة المقدسة سائر البلدان بكثرة الأسماء والصفات، فقد ذكر في التوراة أن للمدينة أحد عشر اسماً، فهي المدينة والمحبة والمحبوبة وطيبة وطابة والمسكنية وجابرة والمجبورة والعذراء والقاصمة^(١٢). وعقد العباسي باباً خاصاً يختص بأسماء المدينة المنورة، وقد أنهاها إلى سبعة وخمسين اسماً، ورتبها حسب الحروف الهجائية بادئاً باثرب ومنتهاً بيندد. وقال في آخر الباب: وجدت في بعض التواريخ تعداد أسماء المدينة وهي أربعة وتسعون. ونقل ابن زبالة: أن عبدالعزيز بن محمد الدراوردي قال: بلغني أن للمدينة في التوراة أربعين اسماً^(١٣).

وأما ما جاء على لسان النبيّ حول أسماء المدينة فهي تسعة، كما رواه زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: للمدينة أسماء هي: المدينة وطيبة وطابة وسكنية وجابرة وتندر ويثرب والدار^(١٤).

٦ - المدينة المنورة محروسة بالملائكة:

ومن فضائل هذه البلدة المقدسة أنها محفوظة ومحروسة من قبل الله جلّ وعلا بإرساله ملائكته؛ ليحفظوا هذه المدينة من الدجال، ولذلك فإن الدجال يدخل كلّ بلدة، بل ويدخل رعبه كلّ البلاد إلا المدينة المنورة.

ففي مسند أحمد في حديث عن النبيّ ﷺ قال: إن المدينة مشبكة بالملائكة على كلّ نقب منها ملكان يحرسانها، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال، من أرادها بسوء أذابه الله، كما يذوب الملح في الماء^(١٥).

وروى ابن النجار عن الصحيحين من حديث أنس عن النبيّ ﷺ، أنه قال: ليس من بلد إلا سيّطأه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس نقب من نقابها إلا الملائكة صافين يحرسونها فينزل السبخة، ثم ترتجف المدينة ثلاث رجفات، فيخرج إليه كلّ كافر ومنافق^(١٦).

وأخرج البخاري من حديث أبي بكر عن النبي ﷺ قال: لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، لها يومئذ سبعة أبواب في كل باب ملك^(١٧).

٧ - ما قصد أحد أهلها بسوء إلا أذابه الله:

لقد قصد الكثير من الظلمة والطغاة وأهل الفتنة المدينة وأهلها بسوء، ولكن أبى الله إلا بذوبهم وهلاكهم لما خانوا بأهل المدينة.

روى أحمد بسنده عن عامر بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: ... ولا يريدكم أحد بسوء إلا أذابه الله ذوب الرصاص في النار أو ذوب الملح في الماء^(١٨). وقال ابن النجار: وخرج البخاري في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال: لا يكيد أحد أهل المدينة إلا انماع كما ينماع الملح في الماء^(١٩).

قلت: المراد من لا يريدكم أو لا يكيدهم إلا أذابه ذوب الرصاص، أو انماع كما ينماع الملح في الماء هو: أن الظالم إذا قصدهم وهتك حريمهم وجنى عليهم سوف لا يمهله الله عز وجل ويفنيه، لا أنه المراد منه لا يقترب المدينة أبداً، نعم الذي لا يدخل المدينة المنورة هو الدجال فقط. ويشهد على ما نقوله ما جاء في التواريخ من كثرة الهجوم على أهل المدينة وقتلهم مرّات عديدة، كما دخلها مسلم بن عقبة وقتل من قتل منهم، وجنى بحقهم ما يعجز اللسان عن بيانه:

قال إبراهيم بن علي العياشي واصفاً ما جناه مسلم بن عقبة وأذنا به الذين أرسلهم يزيد بن معاوية لإباحة المدينة: إن يزيد أعطاه صكاً بكأسها ليلغ فيه متى شاء، أجاز به بإباحة أهل المدينة ثلاثة أيام، وهو أجاز لنفسه الانتقام من أصفياء الله الكرام، إن وضعت السيوف في قراباتها فإن مسلماً لم يضع بعد سيف حقه وفي يده مقبضته، لم يزل كالثور الهائج قتل من قتل من خيار هذه الأمة، ولا تزال نفسه الخبيثة تتشوّق إلى القتل والأذى.. قال المجد: إنهم سبوا الذرية واستباحوا الفروج، وأنه يقال لأولئك الأولاد من النساء اللاتي حملن أولاد الحرّة. ويقول ابن الجوزي عن أبي قرّة قال هشام بن حسان: ولدت بعد الحرّة ألف حرّة من غير

زوج.. (٢٠).

٨ - إِنَّ غِبَارَهَا شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ:

وردت روايات عديدة في الصحاح وغيرها دالة على قداسة هذه التربة الطاهرة، وأنها شفاء من الجذام والبرص بل من كلِّ سقم، وإليك بعض ما ورد:

● - روى العباسي عن محمد بن موسى بن صالح من ولد صيفي بن عامر عن أبيه عن جده قال: أقبل رسول الله ﷺ من غزاة غزاها، فلما دخل المدينة أمسك بعض أصحابه على أنفه من تراها، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده، إنَّ تربتها المؤمنة، وإنَّها لشفاء من الجذام (٢١).

● - وعن أبي سعيد الرازي الحافظ في كتابه قال: حدَّثنا عبد الرحمن بن أبي حاتم، حدَّثنا سليمان بن داود، حدَّثنا أبو غزية، حدَّثنا عبد العزيز بن عمران عن محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن ثابت بن قيس بن شماس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: غبار المدينة شفاء من الجذام (٢٢).

● - وعن سعد أن رسول الله ﷺ لما رجع من تبوك تلقاه رجال من المتخلفين المؤمنين، فثار غبار فخمر من كان مع رسول الله ﷺ أنفه، فأزال رسول الله ﷺ اللثام عن وجهه وقال: والذي نفسي بيده، إنَّ غبارها شفاء من كلِّ داء.. (٢٣).

● - وعن ابن النجار قال: وحدَّثنا ابن زبالة عن إبراهيم بن الحارث عن أبي سلمة: أن رجلاً أتى به رسول الله ﷺ وبرجله قرحة، فرفع رسول الله ﷺ طرف الحصير، ثم وضع إصبعه التي تلي الإبهام على التراب بعدما مسحها بريقه فقال: بسم الله ريق بعضنا بتربة أرضنا يشفي سقيمنا بإذن ربنا، ثم وضع أصبعه على القرحة، فكأنما حلَّ من عقاب (٢٤).

٩ - دعاء النبي لذهاب الحمى والوباء عنها:

ودعا النبي ﷺ لهذه المدينة الطاهرة أن يدفع الله عنها سقم الحمى والوباء، بعدما كان أهلها يعانون الحمى بأشد ما يكون.

روى السهمودي عن مسلم عن عائشة قالت: قدمنا إلى المدينة وهي وبيّة، فاشتكى أبو بكر واشتكى بلال، فلما رأى رسول الله ﷺ شكوى أصحابه قال: اللهم حبّب إلينا المدينة، كما حبّبت مكة أو أشدّ وصحّحها، وبارك لنا في صاعها ومدّها، وحول حُمّاها إلى الجحفة (٢٥).

وعن أبي قتادة أنّ النبي ﷺ صلّى بأرض سعد بأصل الحرة عند بيوت السقيّات قال: «اللهم إنّ إبراهيم خليلك وعبدك ونبيّك دعاك لأهل مكة، وأنا محمد عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة مثل ما دعاك به إبراهيم لمكة، أدعوك أن تبارك لهم في صاعهم ومدّهم وثمارهم، اللهم حبّب إلينا المدينة كما حبّبت إلينا مكة، واجعل ما بها من وباء نجّم (٢٦).

قال السهمودي في علّة دعاء النبي بنقل الحمى إلى الجحفة: لأنّها كانت دار شرك (٢٧).

١٠ - فضل المجاورة والموت في المدينة المنورة:

ومّا يدل على قداسة هذه البلدة أنّ النبي ﷺ حرّض المسلمين على المجاورة والبقاء والموت فيها، وضمن ﷺ لمن مات فيها أن يكون شهيداً أو شفيعاً له في يوم القيامة.

قال ﷺ: من استطاع منكم أن يموت في المدينة فليفعل، فإنّه من مات بها كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة (٢٨).

قال العباسي: ودلالة هذه الأحاديث على الحث والحض والتحريض على الإقامة بالمدينة، وطلب الفوز باستيطانها، وقصد السعادة بمجاورة مساحتها ظاهرة واضحة لا تحتمل، فإنّها منبع فيض بحار أنوار الملة الإسلامية، ومشرق طلوع أقطار السعادة الحقيقية، والدار التي اختصّها الله لهجرة حبيبه ﷺ، وظهور دينه، ومحل إعلامه بالحق، وإذعان الخلق، وأحبّ البقاع إلى الله سبحانه، وموطن أحبّ الخلق إلى الله، ومهبط الملائكة المقربين، ومنزل الروح الأمين... (٢٩).

١١ - كراهة الهجرة منها:

ومما يدل على قداسة أرض المدينة المنورة أنه يكره لمن سكنها أن يتركها ويهاجر عنها، كما روى ذلك عن النبي الكريم ﷺ :
قال محجن بن الأدرع: بعثني النبي ﷺ إلى حاشي المدينة في حاجة، فلما جئت ذهبت معه حتى صعد أهداً، فأشرف على المدينة فقال: ويل أمك من قرية، كيف يدعك أهلك، وأنت خير ما تكونين^(٣٠).
وعن علي صلوات الله عليه أنه قال: من خرج من المدينة رغبةً عنها، أبدله الله شراً منها^(٣١).

١٢ - الصبر على الشدة والجهد في المدينة:

ورغب النبي ﷺ حينما كان في المدينة الصبر على الجهد والبلاء والشدة في المدينة المنورة، وكان يبشّرهم على من صبر منهم أن يكون شفيعهم في يوم القيامة.

روى ابن النجار بسنده عن سالم بن عبد الله قال: سمعت أبي يقول: سمعت عمر بن الخطاب يقول: اشتد الجهد بالمدينة وغلا السعر، فقال النبي ﷺ: اصبروا يا أهل المدينة وأبشروا، فإنني قد باركت على صاعكم ومدكم، كلوا جميعاً ولا تفرقوا، فإن طعام الرجل يكفي الاثنين، فمن صبر على لأوائها وشدتها، كنت له شفيعاً يوم القيامة، ومن خرج عنها رغبةً عما فيها، أبدل الله عز وجل فيها من هو خير منه^(٣٢).

وجاء في صحيح مسلم عن سعيد مولى المهري، أنه جاء إلى أبي سعيد الخدري ليألي الحرة، فاستشاره في الجلاء من المدينة، وشكا إليه أسعارها وكثرة عياله، وأخبره أن لا صبر له على جهد المدينة ولأوائها فقال: ويحك لا آمرك بذلك، إنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يصبر وفي رواية لا يبيت أحد على لأوائها وجهدا إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة^(٣٣).

١٣ - فضل صيام رمضان في المدينة المنورة:

ورغب النبي ﷺ الصيام وخصوصاً صيام شهر رمضان في المدينة المنورة، بحيث صارت هذه من خصائص هذه البلدة المقدسة .
 روى السمهودي عن الطبراني عن بلال بن الحارث قال : قال رسول الله ﷺ :
 رمضان بالمدينة خير من ألف رمضان فيما سواها من البلدان . (٣٤) .
 وروى ابن النجار بالإسناد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : صيام شهر رمضان في المدينة كصيام ألف شهر فيما سواها (٣٥) .

١٤ - استحباب الصوم لزائر المدينة لقضاء الحاجة:

ويستحب لزائر المدينة أن يصوم ثلاثة أيام لقضاء حوائجه ، والظاهر أن هذا الحكم يختص بالمدينة المنورة ومشاهد الأئمة لا غير؛ لحرمه الصيام في السفر فرضاً وتطوعاً عدا ما استثنى (٣٦) . وإليك ما روي :

روى الشيخ بسنده عن : موسى بن القاسم عن معاوية بن عمار عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إن كان لك مقام بالمدينة ثلاثة أيام صمت أول يوم الأربعاء وتصلّي ليلة الأربعاء عند اسطوانة أبي لبابة ، وهي اسطوانة التوبة التي كان ربط إليها نفسه حتى نزل عذره من السماء ، وتقعده عندها يوم الأربعاء ، ثم تأتي ليلة الخميس التي تليها ممّا يلي مقام النبي ﷺ ليلتك ويومك ، وتصوم يوم الخميس . ثم تأتي الاسطوانة التي تلي مقام النبي ﷺ ومصلاه ليلة الجمعة ، فتصلّي عندها ليلتك ويومك ، وتصوم يوم الجمعة ، وإن استطعت أن لا تتكلّم بشيء في هذه الأيام إلا ما لا بدّ لك منه ، ولا تخرج من المسجد إلا للحاجة ولا تنام في ليل ولا نهار فافعل ، فإن ذلك ممّا يعد فيه الفضل ، ثم احمد الله في يوم الجمعة واثن عليه وصل على النبي ﷺ ، وسل حاجتك وليكن فيما تقول : «اللهم ما كانت لي إليك من حاجة شرعت أنا في طلبها والتماساً ، أو لم أشرع سألتكها أو لم أسألكها ، فإني أتوجّه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ﷺ في قضاء حوائجي صغيرها وكبيرها» . فإنك حري أن

تقضى حاجتك إن شاء الله تعالى^(٣٧).

١٥ - فضل صلاة الجمعة في المدينة المنورة:

روى نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: صلاة الجمعة بالمدينة كألف صلاة فيما سواها^(٣٨).

١٦ - عود الإيمان إلى المدينة المنورة:

ومن فضائل هذه المدينة وخصائصها أن الإيمان سيعود ويأرز إليها كما تأرز الحية إلى حجرها.

روى مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى حجرها^(٣٩).

وروي عن النبي مرفوعاً: ليعودن هذا الأمر إلى المدينة كما بدأ منها حتى لا يكون إيمان إلا بها^(٤٠).

١٧ - استحباب التصدق في المدينة المنورة:

وتمتاز أيضاً عن سائر البلدان عدا مكة المكرمة، باستحباب التصدق فيها على الفقراء لمن دخلها.

وعن إبراهيم بن مهزم عمّن يرويه عن أبي عبد الله قال: إذا دخلت مكة فاشتر بدرهم تمراً فتصدّق به؛ لما كان منك في أحرامك للعمرة، فإذا فرغت من حجّك فاشتر بدرهم تمراً وتصدّق به، فإذا دخلت المدينة فاصنع مثل ذلك^(٤١).

١٨ - استحباب الغسل لدخول المدينة المنورة:

ولنختم البحث باستحباب الغسل لمن أراد دخول المدينة المنورة، كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: ينبغي لمن أراد دخول المدينة زائراً أن يغتسل^(٤٢).

ولم يشرع الغسل إلا لقداسة هذه البلدة الطاهرة والأرض المقدّسة كما أفتى الفقهاء الكبار بذلك.

قال يحيى بن سعيد: ويستحب الغسل لدخول المسجد وزيارة النبي ﷺ (٤٣).
وقال العلامة الحلي: والغسل عند دخولها وزيارة فاطمة عليها السلام... (٤٤).
وقال المحقق الحلي: يستحب الغسل لدخولها وزيارة النبي ﷺ استحباباً مؤكداً (٤٥).
ولاشك في أن للمدينة المنورة فضائل أخر كما يظهر من أسمائها، ولكن تركنا ذكرها مخافة الإطالة والإسهاب.

الهوامش :

- (١) وفاء الوفاء ١: ٢٨.
- (٢) التحفة اللطيفة ١: ٤٢.
- (٣) وفاء الوفاء ١: ٣٧.
- (٤) معجم البلدان ٥: ٨٣.
- (٥) سفينة البحار ٢: ٤٤٦.
- (٦) بحار الأنوار ٩٦: ٣٧٦.
- (٧) المصدر نفسه: ٣٧٥.
- (٨) المصدر نفسه: ٣٧٦.
- (٩) المصدر نفسه.
- (١٠) عمدة الأخبار: ٦٦.
- (١١) المصدر نفسه: ٨٦.
- (١٢) المصدر نفسه: ٧٤.
- (١٣) المصدر نفسه: ٥٨ و ٨٤، مرآة الحرمين ١: ٤٠٧.
- (١٤) المصدر نفسه: ٧٩.
- (١٥) مسند أحمد ١: ١٨٣.
- (١٦) أخبار مدينة الرسول: ٣٤.

- (١٧) المصدر نفسه.
- (١٨) مسند أحمد ١: ١٨٤.
- (١٩) أخبار مدينة الرسول: ٣٣.
- (٢٠) المدينة بين الماضي والحاضر: ٣٤٣.
- (٢١) عمدة الأخبار: ٩٣.
- (٢٢) أخبار مدينة الرسول: ٢٨، عمدة الأخبار: ٢٧٣ و ٤٤٧.
- (٢٣) عمدة الأخبار: ٨٩ و ٤٤٧، وفاء الوفاء ١: ٦٧.
- (٢٤) أخبار مدينة الرسول: ٢٨.
- (٢٥) وفاء الوفاء ١: ٥٦، أخبار مكة ٢: ١٥٣ بتفاوت، أخبار مدينة الرسول: ٢٧.
- (٢٦) عمدة الأخبار: ١٨٧.
- (٢٧) وفاء الوفاء ١: ٥٦.
- (٢٨) معجم البلدان ٥: ٨٣، الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين: ١٤.
- (٢٩) عمدة الأخبار: ٣٠.
- (٣٠) تاريخ المدينة المنورة ١: ٢٧٤.
- (٣١) بحار الأنوار ٩٦: ٣٧٨.
- (٣٢) أخبار مدينة الرسول: ٣٢، معجم البلدان ٥: ٨٣ بتفاوت.
- (٣٣) صحيح مسلم ٣: ١٧٢، وفاء الوفاء ١: ٣٩، عمدة الأخبار: ٨٦.
- (٣٤) وفاء الوفاء ١: ٤٣٣.
- (٣٥) أخبار مدينة الرسول: ٣٥.
- (٣٦) راجع المقنعة: ٣٥٠، التهذيب ٤: ٢٣٢.
- (٣٧) التهذيب ٤: ٢٣٢.
- (٣٨) أخبار مدينة الرسول: ٣٥، وفاء الوفاء ١: ٤٢٣.
- (٣٩) صحيح مسلم ١: ١٧٧، أخبار مدينة الرسول: ٢٩.
- (٤٠) المدينة المنورة في التاريخ: ٢٥.
- (٤١) بحار الأنوار ٩٦: ٣٧٧.
- (٤٢) المصدر نفسه: ٣٧٨.
- (٤٣) الجامع للشرائع: ٢٣١.
- (٤٤) قواعد الأحكام: ٩١.
- (٤٥) المختصر النافع: ٩٨.

تحديد قرن المنازل

من المعلوم الذي لا شك فيه ولا ريب أن الميقات هو قرن المنازل، وإن وقع الاختلاف في أنه ميقات لأهل نجد أو لأهل الطائف، وإنما قصدنا الميقات الذي وقته رسول الله ﷺ، فإنه قد يطلق الميقات على مكان الإحرام، وإن كان بالمحاذاة لا بالتوقيت؛ ولهذا ورد في عبارة بعض الكتاب أن السيل ميقات أهل نجد، ووادي محرم ميقات أهل الطائف^(١) مع أنه ذكر أن قرن المنازل هو المسمى الآن بالسيل الكبير^(٢)، والمقصود من هذا البحث هو تعيين قرن المنازل ومكانه، هل هو الواقع في وادي محرم قريباً من الهدى، أو هو المسمى اليوم بالسيل الكبير، أو كلاهما واقعان في وادي قرن المنازل الذي هو الميقات - كما ذكر بعضهم؟

هذا الاختلاف والالتباس الذي حصل في هذا الميقات، حصل بسبب تقدم العهد حيث تغيرت أسماء كثير من المناطق، ونسيت أسماؤها المعروفة سابقاً، وحدثت لها أسماء جديدة بحيث خفيت على عامة الناس، ووجود طريقين بين مكة والطائف. وهذان الطريقان - كما ستعرف - قديمان مذكوران في كتب

المتقدمين، وإن تغيرت بعض مساراتهما إلا أنهما يميّزان بمكان الإحرام القديم كما سوف يتبين..

إن الاختلاف في أيهما الميقات شائع بين الناس كما يظهر من استفتاءاتهم للفقهاء، بل هو ظاهر أيضاً عند بعض الكتاب، ولهذا فإنّ تحديد الميقات لا يخلو من مشقة، ونحتاج إلى جمع أكبر عدد من القرائن، التي يحصل منها الاطمئنان، ونحن هنا سنحاول أولاً تحديد مكاني الإحرام وهما السيل ووادي محرم، كما هما الآن من أقوال المعاصرين، ثم نشرع في ذكر القرائن التي تعيّن لنا الميقات الذي أحرم منه رسول الله ﷺ.

التعريف بالسيل الكبير

قرن المنازل قرية في أسفل^(٣) وادي قرن المنازل على الطريق بين مكة والطائف المار بالنخلة اليمانية، وتشرف على قرية البهيتة (البوابة قديماً) الواقعة في صدر نخلة.

ويظهر من البلادي في أودية مكة^(٤) أن وادي قرن المنازل يقع بين وادي قرن جنوباً ووادي بعج شمالاً، ويقع قرن بين قرن المنازل وبين وادي محرم. ويبعد وادي السيل عن مكة مسافة ٧٨ كيلو متراً من بطن الوادي و ٧٥ كيلو متراً من المكان الذي يحرم منه المعتمرون^(٥).

وقال البلادي^(٦): قرن المنازل وهو ما يعرف اليوم باسم السيل، بلدة عامرة على الطريق بين مكة والطائف المار بالنخلة اليمانية، وبها مرّ ﷺ في غزوة الطائف ولا زال واديها يسمى قرناً.

وتقع النخلة اليمانية (اليمانية) غرب قرن، بينه وبين يدعان (جدعان) ويصب فيها يدعان من الغرب وهي تصب في قرن، ويصب وادي دحنا من الشرق وطريق الطائف المار بالسيل يمرّ على الشرايع، ثم يدعان ذات اليسار، ثم النخلة اليمانية ثم السيل^(٧).

التعريف بوادي محرم

وادي محرم وهو المكان الذي يحرم منه الحجاج المارين بالهدا، يسيل من الجبال الواقعة بين جبال غفار غربا وجبل الغمير شرقا، ويقع جنوب وادي قرن في لحف جبل كرا، ويليه وادي قرن من الشمال ووادي الغدير من الجنوب، ومن الجنوب الشرقي يقع وادي مسرة ثم الطائف، ومن الغرب تقع قرية الهدى على الطريق إلى مكة^(٨).

ويظهر من بعضهم أن وادي محرم هو أعلى وادي قرن، كما أن قرن المنازل هو أسفله^(٩).

وطريقه يمرّ بجبل كرا ثم وادي نعمان ثم عرفات، كما سيأتي في ذكر طرق الطائف إلى مكة.

القرائن التي تحدّد وتعين قرن المنازل

هنا سنشرع في ذكر القرائن، التي يستفاد منها في تعيين محل قرن المنازل وتعيينه.

الأول : أقوال العلماء والمحققين في أن قرن المنازل هو السيل :

رشدي الصالح ملحق^(١٠) : قرن المنازل في طريق نجد واليمن من جهة السراة ويسمى اليوم السيل.

عبد الجبار وعبد العزيز الرفاعي^(١١) : ثم سارت السيارة وبعد ساعتين هبت ريح باردة فقال الشيخ : أقبلنا على السيل الكبير وهو الذي كان يعرف قديماً بقرن المنازل وفيه يحرم القادمون من الطائف ونجد إلى مكة.

الشيخ محمد بن الشيخ عبدالله آل عيثان المتوفى في ١٣٣١/١٢/٢٦هـ: نقل الشيخ فرج آل عمران في الأزهار الأرجية^(١٢) قال : سمعت من الحاج محمد بن حسين المؤمن الإحسائي المتوفى يوم الأربعاء ١٣٦٣/٤/٢٣هـ أنه حجّ مع العلامة الشيخ محمد بن الشيخ عبدالله آل عيثان المتوفى في ١٣٣١/١٢/٢٦هـ وكان حجهم

على الأباغر، ولما وصلوا العشيرة أراد الحجاج أن يحرموا منها فمنعهم الشيخ محمد قائلاً: الميقات الصحيح هو وادي السيل، وهو الذي وقته رسول الله لأهل الطائف، فأخروا إحرامهم إليه.

الشيخ فرج العمران - الأزهار الأرجية^(١٣): وفي ضحى اليوم المؤرخ (الثلاثاء التاسع عشر من الشهر، أي ١٩ رجب ١٣٩٢هـ) وصلنا محرم الطائف، وهو المسجد الكائن موقعه في قرن المنازل المعروف بوادي السيل.

وقال^(١٤): وفي عصر اليوم المؤرخ وصلنا محرم الطائف وهو قطعة من وادي السيل أي قرن المنازل، وهو أحد المواقيت التي وقتها رسول الله لأهل الآفاق، وقد وقت قرن المنازل لأهل الطائف ومن يمرّ به من أهل الآفاق، فاغتسلنا منها غسل إحرام العمرة التمتعية.

وقال^(١٥): السبت الثاني عشر رجب ١٢٨٨: وفي ضحى اليوم المؤرخ وصلنا محرم الطائف، فاغتسلنا غسل إحرام العمرة المفردة، وصلينا ركعتين نافلة الإحرام، ثم أحرمنا ونحن في المسجد الكائن موقعه في قرن المنازل المعروف بوادي السيل.

وقال^(١٦): المحرم المعروف الآن بالسيل هو أحد المواقيت التي وقتها رسول الله لأهل الآفاق، وهو المعروف بقرن المنازل الذي وقته لأهل الطائف، وهو على مرحلتين من مكة من جهة الشرق.

وقال بعد ذلك: أقول: من ملاحظة مجموع ما ذكرنا لا ينبغي التشكيك في صحة الإحرام من وادي السيل، وأنه هو قرن المنازل، وليت شعري ما وجه الإحرام من العشيرة بعد الإحاطة بما ذكرنا، ولعلهم يزعمون أنه من باب الاحتياط الذي لا يخلو هنا من الاختباط، والله الهادي إلى سواء الصراط؟!

الشيخ سليمان بن الشيخ عبدالله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب^(١٧) قال: فإذا وصلت إلى الميقات الذي وقته رسول الله لأهل نجد وهو قرن المنازل (السيل)...

محمد طاهر الكردي^(١٨): وميقات المتوجه من نجد ونجد اليمن ومن الطائف قرن بفتح القاف وسكون الراء ويقال لها قرن المنازل، وهي على مرحلتين من مكة لنجد، وهي تعادل السيل الكبير. يحرم منه أهل نجد الآن، وقد توههم بعضهم أن قرن المنازل هو قرن الثعالب وليس بصحيح، بل هما موضعان، فقرن الثعالب قريب من عرفات وليس من المواقيت، وقرن المنازل هو الموازي للسيل الكبير هو الميقات المعروف.

قال حمد الجاسر^(١٩): قرن هو قرن المنازل محل الإحرام، ويعرف الآن باسم السيل الكبير فيه قرية

وقال^(٢٠): وقرن المنازل يعرف باسم (السيل).

البلادي^(٢١): فإذا انحدر سمي السيل وهو ميقات أهل نجد، والمرحلة الثانية من مكة على نظام القوافل القديمة عن طريق نخلة اليمانية.

وقال^(٢٢): قرن المنازل علم معروف مشهور في كتب الأدب، وهو ما يعرف اليوم باسم (السيل الكبير)، بلدة عامرة على الطريق بين مكة والطائف المار بنخلة اليمانية، وهي ميقات أهل نجد، وبها مرَّ ﷺ في غزوة الطائف، ولا زال واديهما يسمى قرناً.

وقال^(٢٣): [البوابة] وهي تعرف اليوم بالبهيتة، تقع في صدر نخلة اليمانية، تخرج منها على السيل الكبير وهو ميقات أهل نجد، وكان يعرف بقرن المنازل.

عبد الملك دهيش^(٢٤): وأصل نخلة واد رأسه من البوابة (البهيتة اليوم) عند بلدة قرن المنازل (السيل الكبير) إلى قرية الزيمة.

وقال الفاكهي^(٢٥): وقرن المنازل وهو وقت من الأوقات، التي وقتها رسول الله ﷺ...، وقال دهيش في الحاشية^(٢٦): يعرف اليوم بالسيل الكبير وقد أُقيم فيها مسجد كبير يحرم منه من مرَّ على هذا الطريق طريق الطائف من أهل نجد وغيرهم، وتبعد عن مكة ٨٠ كم وعن الطائف.

مساعدة بن قاسم الفالح^(٢٧): الميقات الثالث: قرن المنازل،... وهو ميقات لأهل نجد، ويحرم منه الآن حجاج المشرق، الذين يسلكون الطريق البري المعبد، وقد اشتهر هذا الميقات الآن باسم السيل الكبير، ويتصل هذا الوادي بوادي محرم المسمى أيضاً قرناً، والذي يميّز به الطريق المسمى كرا المتّجه إلى مكة. مجلة الفيصل^(٢٨): ميقات أهل الطائف (قرن المنازل) وهو المسمى الآن بـ(السيل الكبير).

فوائد متممة:

كان والدي رحمه الله كما نُقل عنه يحرم من السيل، ولما سافرت أول عمرة وهي سنة ١٤٠٩هـ، وكنت في حملة الحاج عيسى بن إبراهيم بن سلطان، فأراني المسجد الذي كان يحرم منه والدي (رحمه الله) أيام كان يأتي للعمرة، وهو مسجد صغير قديم، وليس فيه مرافق، وقد أغلق بعد أن افتتح المسجد الكبير، وكان القيم عليه رجلاً مسنّاً جداً، لا يقل عمره عن الثمانين بحسب تخميني، وقد أخبرني، أن أباه أخبره: أن هذا المكان يسمى قرناً، وكان يرى الحجاج منذ كان صغيراً يجرمون منه، وكانت هذه بداية بحثي وتتبعي لمعرفة هذا الميقات، الذي هو محل ابتلاء بالنسبة لنا، واختلاف بين مشائخنا حفظهم الله وسدّدهم.

قال الشيخ فرج^(٢٩): في موسم سنة ١٣٦٥هـ سافرنا إلى الحجاز على السيارات مقدمين مكة على المدينة، وكان سائق السيارة التي أنا فيها رجلاً من القصيم اسمه عبد الكريم القرزعي عارفاً بالطرق بصيراً بالمسافات، ولما قربنا من الطريق الذي يسلكه أهل الطائف إلى مكة، سألته عن ميقات أهل الطائف فأجاب هو وادي السيل، فسألته ثانياً: هل لهم ميقات آخر؟ فأجاب: لا ميقات لهم سواه.

في سنة سافرت مع بعض الاخوان إلى العمرة، وكنت في كلّ عمراقي أحرم من السيل، ولم يكن لنا قصد بأن نذهب إلى وادي محرم القريب من الهدي لو لا أنه

كان معنا رجل من بني جمرة، قال لي: أنا لا أحرم إلا من المكان الذي يحرم منه فلان، فقصدنا وادي محرم، ثم رجعنا إلى السيل واحرمت، وأمرت الجماعة التي معي بالإحرام من السيل، وقد كانت هناك لافتة كتب عليها ميقات قرن المنازل (السيل الكبير)، بينما اللافتة التي في وادي محرم لم يكتب عليها قرن المنازل بل كتب عليها: ميقات وادي محرم، فقط. ولما أن صرنا في مكة ذهب بعض الشباب ولعله للشك الذي راودهم في صحة إحرامهم يسألون العلماء الذين رأوهم يحاضرون في الحرم، أخبرني أحدهم قال: ذهبت وسألت أحدهم فقلت له: ما تقول في ميقات القادم على طريق الطائف من أين يحرم؟ من الهدى أم من السيل قال: يحرم من أيهما ويجزيه فكلاهما محرم، قال: فسألته؟ وأيها قرن المنازل الذي وقته رسول الله ﷺ: قال هو السيل.

قال: وذهبت إلى الحلاق الكائن في أسفل المبنى الذي كنا نسكنه، فرأيت الرجل الذي يعمل فيه، وكان من الباكستان، كبير السن يجيد العربية تماماً كأنه عربي الأصل، فقلت له: أراك تتكلم العربية بفصاحة فكم مضى لك في مكة؟ قال: أربعون سنة وأنا أعمل في مكة قال: فسألته عن الميقات، فقال: كان الناس يحرمون من السيل وهو قرن المنازل، حتى فتح طريق كرا الجديد فتركوا الناس سلوك طريق السيل؛ لو عورته وعدم قبول أصحاب السيارات الذهاب عليه.

وأخبرني السائق الذي كان يذهب معنا واسمه حبيب من أهل الطائف مثل هذا، وهو أن الطريق القديم هو طريق السيل، ولما فتح طريق الطائف في عهد الملك فيصل سلك الناس طريق الهدى لسهولته وتركوا طريق السيل لأنه غير معبد، ثم وجدت هذا الكلام لبعض الكتاب كالكردي وغيره كما سيمر أثناء البحث.

القائلين بأن قرن المنازل هو الهدا:

العياشي في رحلته^(٣٠): ذكر طريقه إلى الطائف على طريق الهدا قال: وسلطنا مع طريق الساقية التي تأتي من الجبل إلى عرفات، ثم إلى المشاعر ثم إلى مكة وهي

صاعدة مع وادي نعمان، فلم نزل نسايره صاعدين إلى أن قربنا من جبل كرا... [إلى أن قال]: وسلكننا في شعاب ذات مياه غزيرة ونبت ملتف إلى أن خرجنا على قرن الثعالب الذي هو مِيقَاتُ أَهْلِ نَجْدٍ. وقال في رجوعه من الطائف^(٣١): وخرجنا منه على طريقنا التي مررنا عليه ذهاباً، ووصلنا قرن الثعالب الذي هو مِيقَاتُ أَهْلِ نَجْدٍ.

ولم يذكر أنه قرن المنازل بل قرن الثعالب، ولم يرد في روايات التوقيت اسم قرن الثعالب، وإنما ذكره بعض اللغويين كما ذكرنا وقد بينا فيما سلف خطأه، وهذا يكشف عن أن العياشي الذي هو من أهل المغرب، زار الأماكن المقدسة للحج فكتب رحلته، ولعله لم ير تلك الأماكن إلا مرة واحدة، فهو لا يعرف الأماكن باتقان، فلا يمكن الاعتماد على قوله في مقابل أقوال أهل تلك الديار العارفين بالأماكن، وقد قال المثل: (أهل مكة أدرى بشعابها).

تحديد قرن المنازل كما ذكره القدماء:

١ - صبح الأعشى^(٣٢): ذكر في طريق مصر إلى مكة قال: قال ابن خربوذ: ثم من مكة إلى بئر ابن المرتفع، ثم إلى قرن المنازل قرية عظيمة، وهي مِيقَاتُ أَهْلِ الْيَمَنِ للحج منه يحرمون.

ومنه يستفاد أن قرنًا واقعة بين مكة وبئر ابن المرتفع، وبئر ابن المرتفع ذكرها الفاكهي^(٣٣) قال: وبئر ابن المرتفع التي فوق الأنصاب على طريق العراق، وتعرف ببئر ابن المرتفع اليوم لرجل يقال له ابن حوس.

واحتمل دهيش أنها بئر البرود^(٣٤)، وعلى أي حال فإن بئر ابن المرتفع واقعة في طريق العراق عند الأنصاب، وهذا يناسب كون قرن المنازل هو السيل لا الهدا.

٢ - إن قرن المنازل واقع عند النخلة اليمانية

معجم البلدان ومراصد الاطلاع^(٣٥): النخلة اليمانية تصب من قرن المنازل

وهو على طريق اليمن .

الفاكهي^(٣٦) : وقرن المنازل وهو ميقات أهل نجد واقع في النخلة اليمانية .
المصباح المنير^(٣٧) : ويقال نخلة بالافراد أيضاً ، وهما نخلتان أحدهما النخلة
اليمانية بوادي يأخذ إلى قرن والطايف
وقال الشاعر^(٣٨) :

وما أنسى من الأشياء لا أنسى مجلساً لنا مرةً منها بقرن المنازل
بنخلة بين النخلتين بكيثنا من العين عند العين برد المراحل
ومما ذكرناه يظهر أن قرن المنازل واقع في النخلة اليمانية أو قربها ، ولا يمكن أن
يكون هو الذي في وادي محرم؛ لأنه بعيد عن النخلة اليمانية الواقعة في شمال مكة
على طريق العراق شرق حنين (الشرايع) ، والذي يقع في طريق النخلة اليمانية هو
السييل الكبير فهي واقعة بينه وبين الشرائع ، لتوضيح ذلك لا بد من بيان موقع
النخلة اليمانية .

النخلة

نخلة واديان لهذيل ، أحدهما يقع على شمال بستان ابن عامر^(٣٩) وهو النخلة
الشامية ، والآخر أسفل البستان إلى يمينه ، ويجتمعان ببطن مر وسبوحة ، ويفصل
بينهما جبل طويل يقال له دائة^(٤٠)

النخلة الشامية:

وادي على ليلتين من مكة يصب من الغمير^(٤١) وتأخذ إلى ذات عرق^(٤٢) وتصب
باليمامة على بستان ابن عامر ، وعنده مجتمع النخلتين ، وتجتمع مع النخلة اليمانية في
بطن مر وسبوحة^(٤٣) .

وقال أبو زيد الكلابي^(٤٤) : هي ذات عرق ، وأما أعلى نخلة ذات عرق فهي
لبنى سعد بن بكر ، الذين أَرْضَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وهي كثيرة النخل وأسفلها بستان
ابن عامر ، وآخرها أو طاس^(٤٥) .

النخلة اليمانية:

وادي يصب من قرن المنازل، ويصب فيه يدعان، يجتمع مع النخلة اليمانية في بطن مر وسبوحة.

وقال أبو زيد الكلابي: إحدى النخلتين يجتمع فيها حاج الين وأهل نجد، ومن جاء من قبل الخط وعمان وهجر ويبرين، فيجتمع حاجهم بالبوابة وهي أعلى نخلة، ومنها الزيمة وسولة^(٤٦) قال محمد بن إبراهيم بن قرية^(٤٧): مرتعي من بلاد نخلة بالصيف باكتاف سولة والزيمة.

ويمر بها الطريق من مكة على الشرائع (حنين) والسييل الكبير، وقد حدّدها دهيش^(٤٨) بأنها بين المهيته (البوابة قديماً) والزيمة، فتكون البوابة أعلاها من جهة السيل).

ويظهر من قول المسيب بن علس، يذكر رحيل سامة بن لوي إلى عمان^(٤٩):

فشد أمونا بأنساعها بنخلة إذ دونها كبكب

يظهر أن (كبكب)^(٥٠) واقع جنوب نخلة، كما يظهر من بعض الخرائط أن وادي الصدر (صدر عرنة) ووادي الكفو يقعان جنوبها.

ويظهر من الباحثين المعاصرين^(٥١) في بيان النخلتين إضافة إلى ما ذكره

المتقدمون:

إنّ النخلة الشامية تقع شمال غرب الطائف وشمال شرق مكة، وهي ملتقى وادي بعج بوادي الزرقاء، وتسميها العامة وادي المضيق، وتسمى أيضاً وادي الليمون؛ لكثرة ما فيه من الليمون، وتلتقي بها النخلة اليمانية من الجنوب الشرقي أسفل جبل داءة، ويسمى حينئذ وادي الزبارة، وتأخذ النخلة اليمانية مساقطها الشمالية أعلاها من وادي الحر من المهيته (البوابة قديماً) قريب السيل، ويمر بها طريق الطائف القديم، فيأخذ حينئذ ثم يدعان ذات اليسار، وهو أيضاً طريق نجد ثم نخلة ثم قرن المنازل، ويبعد المضيق عن مكة ٥٤ كيلو متراً على طريق حاج

العراق (١٤١م).

وقال الجاسر^(٥٢): إنّ النخلة الشامية أعلاها ذات عرق، واليمانية أعلاها قرن المنازل (السيل).

ويصّب في النخلة اليمانية من الجنوب واد يسمى حراض أسفل الزيمة، وهو غير حراض الذي يقع شمال السيل الكبير^(٥٣).

والمتحصل أنّ النخلة اليمانية واقعة شمال شرق مكة، جنوب النخلة الشامية وغرب قرن المنازل وشرق وادي حنين (الشرايع)، وأما الجنوب فكما ذكرنا أنه يظهر من بعضهم^(٥٤) أن جنوبها وادي الكفو ووادي صدر عرنة (وادي الصدر) وكبكب وحراض الجنوبي. ويميّز بها طريق الطائف ماراً بقرن المنازل ثم النخلة اليمانية ثم يدعان ثم الشرائع ثم مكة.

وإذا تحدّد موضع النخلة اليمانية يتبين أنّ طريق الهدى الذي يمرّ على كرا، ثم وادي نعمان، ثم عرفات لا يمرّ على النخلة اليمانية، ولا يتصل وادي محرم بوادي نخلة، وحتى على دعوى أن قرناً يمتد من جبل كرا حتى البستان كما سنذكره، فإنّ تحديدهم لقرن المنازل الذي هو الميقات هو أسفل الوادي من جهة الشمال الواقع على طريق العراق قريباً من أوطاس وبستان ابن عامر، كما هو ظاهر من كلام القدماء، ونذكر لك كلام الحربي^(٥٥) تأكيداً لهذه الدعوى؛ لئلا تكون دعوى بلا بينة ولا برهان.

ذكر في طريق اليمن إلى مكة: ... ثم العائب وقرن إلى نخلة وهو البستان. وفي معجم البلدان^(٥٦): قال البطليوسي: فأما بستان ابن معمر فهو الذي يعرف ببطن نخلة.

وما ذكره معجم البلدان^(٥٧): أن البستان مجمع النخلتين.

ومن هذا يتبين: أن قرن المنازل هو السيل لا الهدى.

٣ - الطريق الذي سلكه رسول الله في ذهابه إلى غزوة الطائف، وكذا عند

رجوعه ﷺ منها:

المغازي^(٥٨): وسار رسول الله ﷺ من أوطاس فسلك على نخلة اليمانية ثم على قرن ثم على المليح، ثم على بحرة الرغاء من لية.

وفي السيرة النبوية^(٥٩): سلك رسول الله ﷺ على نخلة اليمانية ثم على قرن ثم على المليح ثم على بحرة الرغاء من لية... ثم سلك في طريق الضيقة إلى نخب.

وفي معجم البلدان (٩٤١م): بحرة: موضع من أعمال الطائف قرب لية، قال ابن إسحاق: انصرف رسول الله ﷺ من حنين على نخلة اليمانية ثم على قرن ثم على المليح ثم على بحرة الرغاء من لية.

وفي تاريخ ابن جرير^(٦٠): سلك إلى الطائف على حنين ثم على نخلة ثم قرن ثم المليح ثم على بحرة الرغاء من لية.

والمليح أسفل السيل الصغير^(٦١) ولية وادي يقع شرق وجنوب الطائف^(٦٢)، وبحرة الرغاء تقع كما يظهر من كلام البلادي^(٦٣) جنوب الطائف، وقال البلادي^(٦٤): ولا زالت مليح وبحرة الرغاء ولية تعرف بأسمائها إلى اليوم.

ويستفاد من هذه الرواية أن قرن المنازل واقع بين النخلة اليمانية والمليح، وهذا الطريق إنما يناسب طريق السيل دون طريق الهدى وأن قرن المنازل هو السيل وليس وادي محرم، وذلك لأنه لا يستقيم أن يمر من نخلة إلى وادي محرم فيصل إلى قرب الطائف ثم يرجع شمالاً إلى المليح، ثم ينحرف إلى الجنوب ثم يأتي نخب.

وقال البلادي^(٦٥): وهذه هي طريق رسول الله ﷺ حين غزا الطائف، فقد أخذ على حنين ثم على نخلة اليمانية ثم على مليح أسفل السيل الصغير اليوم، ثم التف حول الطائف من الشمال والشرق، ثم أتاه من الجنوب حيث نزل بحرة الرغاء من لية، ثم عاد إليه متجهاً شمالاً، وهي من الخطط العسكرية الممتازة. وقال الجاسر^(٦٦): وهذا هو طريق الطائف الذي يمر بالشرائع، وأعلاه وادي

حنين ثم نخلة اليمانية وهي معروفة بأسفلها قرية الزيمة ، وبأعلاها البوابة (البهيتة) وقرن المنازل يعرف باسم السيل (٦٧) .

طريق الرجوع من غزوة الطائف:

المغازي (٦٨): خرج رسول الله ﷺ من الطائف فأخذ على دحنا ثم على قرن المنازل ثم على نخلة حتى خرج إلى الجعرانة .

وفي السيرة لابن هشام (٦٩): ثم خرج رسول الله ﷺ حين انصرف من الطائف على دحنا حتى نزل الجعرانة .

ويستفاد من هذا أن قرن المنازل واقع بين دحنا والنخلة اليمانية ، ودحنا ذكرها الحموي (٧٠) وقال: إنها من مخاليف الطائف وقد مر بها رسول الله ﷺ .

وذكر دهيش (٧١) أنها واد يصب في قرن من الشرق وتقع شمال رحاب بـ (٢) كيلو متر ، وبينهما قرية ريحة ، ثم ذكر أنها تبعد عن الطائف ٤٢ كم شمالاً .

٤ - الطرق بين مكة والطائف: كما هي مذكورة من القرن الثاني والثالث الهجري حتى الآن تدلنا على أنه هناك طريقان بين مكة والطائف فقط ، هما الطريقان الموجودان حالياً: أحدهما طريق قرن المنازل والآخر هو طريق الهدا ، وسنذكر لك هذه الطرق؛ ليتبين لك أي الطريقين هو الذي يمر على قرن المنازل :

الحربي (٧٢): حدثني محمد بن عبد المجيد بن الصباح العثماني قال: إذا أردت أن تخرج من عرفة على جبل يقال له كرا ، يظهر على حرة كثيرة المنابت يقال لها: الهدة ومن الهدة إلى الطائف .

وله طريق آخر على موضع يقال له: زيمة . ينفرد من مشاش ، ثم قرن المنازل وهو الموضع الذي وقته رسول الله ﷺ لأهل نجد حين قال: (يهل أهل نجد من قرن) ثم من قرن المنازل إلى الطائف ، وهذا الطريق ثلاثة أيام ، والطريق الأول يومان . انتهى كلام الحربي .

أقول: إن الحربي الذي عاش في القرن الثاني والثالث ذكر الطريقين ، وهما كما

هو واضح مما تقدم أنهما الطريقان الموجودان ، فذكر أولاً طريق الهدا الذي يمر على الهدة^(٧٣) وجبل كرا وذكر أنه يومان ، ولم يذكر أنه يمرّ على قرن ولا أنه محل إحرام . ثم ذكر الطريق الثاني وهو طريق السيل ، الذي يمرّ على الزيمة ومشاش^(٧٤) وقال : إنه يمرّ على قرن المنازل ، وقال : إنه الموضع الذي وقته رسول الله ﷺ لأهل نجد حين قال (يهل أهل نجد من قرن) .

الفاكهية^(٧٥) في ذكره لحدود الحرم ، ذكر طريق الهدا ﷺ فقال : ومن طريق الطائف على طريق عرفة من بطن غمرة على أحد عشر ميلاً ومن طريق العراق على ثنية خل بالمقطع على سبعة أميال^(٧٦) .

إبراهيم باشا^(٧٧) : ذكر في عين زبيدة الواقعة في حنين : فلما بلغ ذلك أمّ جعفر زبيدة زوجة الرشيد ، أمرت بإجراء عين حنين (عين زبيدة) ، . ومنبع هذه العين في ذيل جبل شاهق يقال : (طاء) بين جبال سود عاليات تسمى جبال الثقبه في طريق الطائف .

أقول : هذا طريق السيل الذي يمرّ من حنين ، وعين زبيدة هذه ، التي في حنين غير عين زبيدة الواقعة في وادي نعمان ، التي تنبع من جبل كرا في طريق الطائف الآخر ، فإنه قال في نفس الصفحة :

وكذلك أمرت بإجراء عين وادي النعمان إلى عرفة ، وهي عين منبعها في ذيل جبل كرا ، وهو جبل شامخ صعب المرتقى من أسفله إلى أعلاه ، ومسيرة نصف يوم وبعده أرض الطائف .

وذكر طريق السيل أيضاً^(٧٨) : ومن الشرق على طريق الطائف مكان يقال له : الجعرانة ، أحرم منه النبي ﷺ مرجعه من الطائف بعد فتح مكة . وذكر طرق الطائف^(٧٩) عن صادق باشا (باختصار) :

وبلدة الطائف في الجنوب الشرقي لمكة ، ولها طريقان يقطع أقصرهما في ١٨ ساعة فسلكننا الطويلة لسهولتها على الأخرى ، فسرنا ٢٠ دقيقة مبشرين

مشرقين إلى جبل حراء المشهورة بجبل النور، ونزلنا بجوار ساقية، وعند الغروب سرنا وعطفنا يساراً من جبل النور تاركين منى يميننا، سالكين طريق السيل أو اليمانية مبشرين مشرقين، حتى وصلنا إلى بئر البرود فاسترحنا قليلاً، ثم سرنا مشرقين ساعتين في طريق يمثل نصف دائرة، ولجنا بعدهما مدخل جبال السولة، وبعد نصف ساعة استرحنا ببقعة بين الجبال، وفي الساعة ١٠ والدقيقة ٤٥ من ليلة الأربعاء، شرعنا في صعود قليل، وبلغنا أعلى الجبل الساعة ١١ والدقيقة ٣٠، وسرنا في هبوط مهبط كثرت الأحجار في منحدره إلى مكان فسيح بين جبال، وفي الساعة ١٢ والدقيقة ٢٠ من يوم الأربعاء وصلنا بقعة فسيحة بها زرع وجنات تحيط بها الأسوار وفيها نخيل وليمون أزواجاً شتى وبعض فواكهها لما تنضج، وينبوع في الجبل تنحدر منه المياه يسمونه نهراً، وهذا المكان يسمى وادي اليمانية، وبعد الغروب سرنا ساعتين ونصفاً ومررنا بالسولة، وفي الساعة ١٢ ليلاً نزلنا بمحل متسع... وفي يوم الخميس ٣ رمضان الساعة ١٠ رحلنا وسرنا بين صخور مرتفعة وعقبات صعبة حتى الساعة الثالثة والنصف من ليلة الجمعة، وبتنا بمحل يقال له بنية أو كوجك دره، وهناك بئر تسمى بئر عاب، وفي الساعة ١٠ من يوم الجمعة تابعنا السير، وبعد مضي نصف ساعة صعدنا عقبة حجرية أفضت بنا إلى مستو فسيح به أشجار وسرنا إلى الجنوب، وفي الساعة الثانية مررنا بالجديرة، وفي الساعة الرابعة بأّم حمص، وفي الساعة السادسة بمحل يسمى الجيم، وفي الساعة ٧ والدقيقة ٤٠ وصلنا الطائف.

أقول: هذا الطريق طريق السيل، وإن لم يذكر مروره بالسيل، إلا أنه ذكره في أول كلامه حيث قال: (سالكين طريق السيل أو اليمانية)، وطريق السيل هو طريق اليمانية، كما أنه ذكر مروره ببئر البرود والسولة ووادي اليمانية وقال^(٨٠): والطريق الآخر، قال صادق باشا: بعد إقامتي بالطائف جملة أيام، رغبت في العودة إلى مكة وأعددت البغال اللازمة للسفر في صباح يوم الخميس

١٧ رمضان؛ لأنني عزمت على سلوك طريق الكرا، الذي لا يصلح للسير فيه سوى البغال، وفي الساعة العاشرة رحلنا من الطائف منتهجين سبيل الكرا مابين الشمال والغرب، وبعد ربع ساعة دخلنا بين جبال واجتزنا جملة محاجر، فأرض مرملة تحفّ بها الجبال ذات اليمين وذات الشمال، وفي الساعة ١٠ والدقيقة ٥٥ صعدنا إلى محجر بين جبال حجرية صماء، ثم هبطنا إلى طريق مسوى يسمى بالجميرات أو الجبال الحمر، وفي الساعة ١٢ والدقيقة ٥ صعدنا إلى محجر آخر، ثم هبطنا ثم صعدنا فوق تلال متعددة، وبعد عشر دقائق غرب الطريق، وبعد ٧ دقائق هبطنا إلى أرض واسعة، ونزلنا بها بجوار بئر تسمى بئر العسكر عذبة المياه، صلينا عندها المغرب وتابعنا المسير الساعة ١٢ ونصفاً، وبعد ٥ دقائق مررنا بمجر صعب وجملة أخوار، وبعد عشر دقائق مررنا بمحدايق وبيوت في وادي محرم، وفي الساعة ٢ والدقيقة ١٠ نفذنا من عقبة كأداء صعبة المرتقى لعلوها وكثرة أحجارها، ولهذا لا يمكن أن يمرّ منها إلا فرد فرد، ومرور التختروان من هذا الطريق متعذر، وبعد أن علونا صخوراً وانشئنا الطريق عدة انشاءات إلى الساعة ٣ والدقيقة ١٠ حيث وصلنا الهددة، وهو أعلى الجبل وهناك بيوت وبساتين وفواكه.. وفي الساعة ٩ والدقيقة ٣٠ ليلاً سرنا راكبين، وبعد ٥ دقائق مررنا بدرب الجمال على اليمين، وتركناه لكونه خاصاً بسير الإبل، وبعد ٣ دقائق ابتدأ النزول من الجبل في درب ضيق صناعي غير منتظم كثير الانعطاف، وفي الساعة ٩ والدقيقة ٤٥ مررنا بعين جارية من الجبل في حوض مبني وتتدفق منه إلى الصخور.. وفي الساعة ١١ مررنا بماء جار عذب، وفي الساعة ١١ والدقيقة ٢٥ اجتمع الدربان، وفي الساعة ١٢ والدقيقة ٤٨ وصلنا الكرا آخر صعوبة في الجبل، وبعد أن مكثنا قليلاً لتصلح الأحمال سرنا، وكانت الساعة واحدة وربعاً من يوم الجمعة، وكان السير بانحدار خفيف وفي الساعة ٢ والدقيقة ٢٥ نزلنا بقعة مرملة تحيط بها الجبال، فلنا نحو الجنوب الغربي، وفي الساعة ٣ والدقيقة ١٠ وصلنا قهوة شداد، وفي الساعة ١٠

و ١٥ دقيقة وصلنا وادي النعمان، وعلى اليمين مبدأ بناء مجرى عين زبيدة، وفي الساعة ١١ والدقيقة ٨ وصلنا قهوة عرفات، وبعد الإستراحة قنا الساعة ١ من ليلة السبت، وبعد ٥٠ دقيقة بلغنا جامع غمرة بعرفات، وفي الساعة ٢ والدقيقة ١٠ مررنا بين العلمين، وفي الساعة ٤ ليلاً دخلنا مكة المباركة.

أقول: هذا الطريق هو طريق الهدا ولم يذكر أنه مرّ على قرن ولا النخلة اليمانية، كما أنه ذكر مروره بجامع غمرة بعرفات وبين العلمين، اللذين هما حدود الحرم، واللذين مرّ ذكرهما في كلام الفاكهي، ومنه يتبين أنه نفس الطريق الذي ذكره الفاكهي لم يتغير.

العياشي ذكر طريق الهدا^(٨١)

وقد خرجنا إليها بعد العشاء على طريق الحاج إلى منى ثم مزدلفة ثم إلى بسيط عرفة... ثم ارتحلنا من هناك قرب طلوع الفجر سلكننا مع طريق الساقية، التي تأتي من أصل الجبل إلى عرفات ثم إلى المشاعر ثم إلى مكة، ومنها تأتي المياه إلى مكة، وهذه من عمل بني العباس.. وهي من صدقات زبيدة بنت جعفر المنصور، هي صاعدة مع وادي نعمان وهو وادي عظيم أفيح منحدر من جبل نجد، فلم نزل نسايره صاعدين إلى أن قربنا من جبل أكرى فعدلنا يمينا مع بعض تلك الهضاب... فلما زالت الشمس وتوضّأنا للصلاة، أخذنا في صعود الجبل العظيم، الذي لا يماثله في عظمتة جبل من جبال تهامة... ورأينا القروود به تصيح وتنب في أعالي تلك الصخور... ثم ارتحلنا من ذلك المكان قرب صلاة الصبح وهبطنا عقبة هناك هي درن التي طلعتها بكثير إلا أنها وعرة، سلكننا في شعاب ذات مياه غزيرة ونبت ملتف إلى أن خرجنا على قرن الثعالب الذي هو ميقات أهل نجد... وإزاءها قرية ذات مزارع وأشجار... جاوزناها قرب الطلوع سلكننا بين تلؤل هناك في صعود وهبوط واستواء إلى أن وصلنا بلدة الطائف.

وقال^(٨٢): وخرجنا منه ليلة السبت قريباً من نصف الليل على طريقنا، التي

مررنا عليها ذهاباً، ووصلنا قرن الثعالب الذي هو ميقات أهل نجد بعد طلوع الفجر، ونزلنا حتى توضحنا وصلينا، وأحرمت من هناك بعمرة... ثم صلينا الصبح في الميقات وذهبنا ومررنا على القهوة، التي بتنا بها قبل، وعند طلوع الشمس انحدرنا مع العقبة الكؤود عقبة أكرى وتعجبنا من صعود إبل أهل ذلك البلد فيها وهبوطها بأحمال الفواكه الثقيلة.. وما وصلنا القهوة التي بسفح الجبل حتى اشتد النهار وحمى وطيس الهجير،... وما وصلنا وادي نعمان الأراك إلا بعد العصر، وسائرنا مع العشي مسيرة الخل الرقيق... إلى أن وصلنا القهوة التي هي على حدّ بسيط من عرفات بين العشائين، ونزلنا بها في أرغد عيش حول عين من الساقية تجري على وجه الأرض، وصلينا صلاة العشاء وتعشنا ثم أغفينا إغفاءً، ثم ارتحلنا قريباً من ثلث الليل الآخر ومررنا بنمرة ثم بالمأزمين ثم بجمع ثم ببطن محسر كلّ ذلك ليلاً فطلع الفجر ونحن بمنى....

هذا الطريق هو طريق الهدا الذي يمرّ بوادي نعمان وجبل كرا وعرفات ونمرة، وهو كما ذكره الفاكهي والحربي لم يتغير، إلا أنه ذكر مروره بقرن الثعالب وقال: إنه ميقات أهل نجد. وهو اشتباه كما مرّ في بيان قرن الثعالب أنه ليس الميقات، وأن الميقات هو قرن المنازل المار بالنخلة اليمانية، وهذا الطريق الذي ذكره لا يمرّ بالنخلة اليمانية، كما أنه قد أخطأ في موارد أخرى، منها أنه سمى جبل كرا بـ(أكرى)، وقال في زبيدة: إنها ابنة جعفر المنصور، وذكر الهدى ولم يذكر اسمها لعله لم يعرفها، وسمى جبال السراة بجبال نجد، والسبب في ذلك أنه رجل مغربي غير عارف بأسماء الأماكن.

البلادي: وكان طريق الطائف القديم يأخذ حينئذٍ ثم يدعان ذات اليسار وهو أيضاً طريق نجد، كلّ هذا قبل فتح جبل كرا.

وقال^(٨٣): وبعد قليل يأتيه من الجنوب الشرقي وادي كبير ذو روافد عديدة يسمى نخلة اليمانية، وقد أطلق عليه أخيراً اسم اليمانية، وبه عينان جاريتان هما

الزيمة التي يمرّ بها طريق الطائف القديم، وسولة أسفل منها. وقال: ^(٨٤) فإذا انحدر سمي السيل وهو ميقات أهل نجد والمرحلة الثانية من مكة على نظام القوافل القديمة عن طريق نخلة اليمانية. وقال ^(٨٥): الشرائع عين في وادي حنين تبعد عن المسجد الحرام ٨٢ كيلو متراً وكانت أعمر منها الآن عندما كان طريق الطائف يمرّ بها. والبلادي ذكر طريق السيل الذي يمرّ على النخلة اليمانية ووادي حنين ويدعان، وقال: إنه الطريق القديم، كما ذكر أنه طريق الطائف ونجد قبل فتح طريق كرا.

الكردي ^(٨٦): مدينة الطائف أعظم مصيف في الحجاز، وأهل مكة لا يستغنون عن الطائف في الصيف مطلقاً، وللطائف طريقان: طريق قديم وهي عن طريق السيل، وهي طريق اليمانية، فبين مكة والطائف عن هذا الطريق بالجمال ثلاثة أيام ولا تزال السيارات إلى اليوم تسير في هذا الطريق، أما سير الجمال والدواب فقد بطل سيرها.

وللطائف طريق قديم عن طريق الهدا بفتح أوله وثانيه، وطريق الهدا يمرّ من عرفات فشداد فالكر (بضم الكاف وتشديد الراء) فجبل كرا بفتح أوله وثانيه فالهدا (بالفتح) فعلو وادي محرم فبجرة قرن بفتح أوله وسكون ثانية فججب ففسرة فعشى فالطائف.

فتكون المسافة بين مكة والطائف عن طريق كرا الجديد حوالى ٨٥ كيلو متراً.

ثم إن الحكومة افتتحت طريقاً جديداً بين مكة والطائف عن طريق كرا، افتتحها الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود في اليوم الثالث من شهر صفر سنة ١٣٨٥هـ، وهذا الطريق الجديد يمرّ من عرفات فشداد فالكر فالهدا فوادي محرم فبجرة قرن فجباب ففسرة فعشى الطائف، فطريق كرا الجديد هو المشي في نفس

جبل كرا، وكلّ الجبل ملفات مسّفة بالإسفلت .
وقد مر في التعليقة رقم (١٦٦) ما ذكره الجاسر في تعليقه على كتاب المناسك للحربي: أنهما يلتقيان في وادي نعمان، فالتغير حصل في بدايته من جهة مكة فالطريق القديم يمرّ على عرفة من بطن نمر، والطريق الجديد أخذ يمين اللاحجة حتى يمرّ بقرب الحسينية والعابدية .
ونستخلص من هذه الأقوال أموراً:

الأول: أنّ كلا الطريقين قديمان ومعروفان، وما ورد في بعض كلمات المتأخرين والمعاصرين من تعبيرهم عن طريق السيل بالطريق القديم؛ فلعله لكونه قبل تعبيده وفتح طريق كرا الجديد كان مهمولاً، ثم بعد فتح الطريق أهمل الأول وكثر سلوك الثاني لأنه طريق حديث معبد .

الثاني: أن الذين ذكروا الطريقين سواء كانوا من القدماء أو من المتأخرين لم يشيروا إلى كون الهدا أو وادي محرم هو قرن المنازل، حتى ولا أنه ميقات أو موضع إحرام أو طريق للحاج .

الثالث: كنا قد عرفنا مما تقدم أن قرن المنازل يمرّ على النخلة اليمانية وحنين ويدعان، والطريق الذي يمرّ عليهما هو طريق السيل الكبير، وموضع الإحرام على هذا الطريق هو السيل الكبير .

الرابع: تصرّيحهم أن قرن المنازل هو واقع على الطريق الأول وهو الطريق المسمى بطريق السيل .

الخامس: أن الطريق الثاني يمرّ على وادي نعمان والهدا وجبل كرا، وهي مواضع معروفة قديماً، ولم يشر أحد ممن ذكرها أنها من منازل الحاج ولا واقعة في طريق الحاج، ولم يذكر أحد ممن ذكر الهدا إنها الميقات ولا واقعة في طريقه .

وسنذكر لك ما ذكره أصحاب المعاجم في الهدا ووادي نعمان وجبل كرا .

مصادر البحث:

- الأزهار الأرجية - الشيخ فرج العمران (ت)
 أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه - عبد الله بن محمد بن إسحاق الفاكهي -
 تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهبش - ط الثانية ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م - نشر دار
 خضر للطباعة والنشر - بيروت.
 أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار - أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد
 الأزرق - تحقيق رشدي الصالح ملحق - ط الثالثة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٣ م - نشر دار
 الأندلس - بيروت.
 إرشاد الساري إلى مناسك ملا علي القاري.
 أطلس الطرق السعودية ودليل السياحة - زكي محمد علي فارسي - ط
 الأولى ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ م،
 الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني.
 الأم - محمد بن إدريس الشافعي.
 أودية مكة المكرمة - عاتق بن غيث البلادي - نشر دار مكة - ط الأولى
 ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م
 تاج العروس
 التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم - محمد طاهر الكردي - ط الأولى
 ١٣٨٥ هـ.
 تاريخ الطبري
 تحفة الناسك بأحكام المناسك - سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب -
 ط ١٣٦٤ هـ - مكة المكرمة.
 الجواهر - الشيخ محمد حسن النجفي - ط دار الكتب الإسلامية قم ١٣٧٣ هـ
 حاشية أخبار مكة للفاكهي - عبد الملك بن عبد الله بن دهبش [مع كتاب

أخبار مكة الفاكهي].

حاشية أخبار مكة للأزرقى - رشدي الصالح ملحق - [مع كتاب أخبار مكة للأزرقى.

حاشية الجامع الصحيح

حاشية كتاب المناسك للحري - حمد الجاسر [مع كتاب المناسك].

الروض المعطار - محمد بن عبد المنعم الحميري (ت...). - ط مكتبة لبنان.

الحدائق الناضرة - الشيخ يوسف آل عصفور - ط جماعة المدرسين - قم

رياض المسائل - السيد علي العاملي - ط جماعة المدرسين ١٤١٥ هـ

السيرة النبوية - ابن هشام

شرح السيوطي على النسائي - السيوطي

صاح اللغة -

صبح الأعشى - أبو العباس القلقشندي - ط وزارة الثقافة والإرشاد القومي

- مصر

فقه الإمام الصادق - محمد جواد مغنية

القاموس المحيط - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي - ط الأولى - دار

إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

كشف اللثام - الطبعة الحجرية

لسان العرب - ابن منظور - ط الأولى الجديدة المحققة - بيروت ١٤١٦ هـ -

١٩٩٥ م

مختار الصحاح

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع - صفي الدين عبد المؤمن بن عبد

الحق البغدادي - تحقيق علي محمد البجاوي - ط الأولى ١٣٧٤ هـ، ١٩٥٥ م - نشر

دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت

مرآة الحرمين - اللواء إبراهيم رفعت باشا - ط الأولى - مط دار الكتب
المصرية - القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ ١٩٢٥ م
المصباح المنير - أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي ط الثانية ١٤١٤ هـ -
نشر دار الهجرة - إيران
معالم مكة التاريخية - عاتق بن غيث البلادي - نشر دار مكة - ط الثانية
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م
معجم البلدان - ياقوت بن عبد الله الحموي - ط دار إحياء التراث العربي -
بيروت

معجم متن اللغة - أحمد رضا

معجم مقاييس اللغة

المغازي

المغرب - المطرزي

المطالعة السعودية - عبد الجبار الرفاعي

كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة - إبراهيم بن إسحاق
الحربي تحقيق حمد الجاسر - نشر دار اليمامة للبحث والترجمة - الرياض .

مقتطفات من رحلة العياشي (ماء الموائد) - لعبد الله بن محمد العياش
(١٠٩٠ هـ) - حمد الجاسر - ط الأولى ١٤٠٤ هـ، ١٠٨٤ م - نشر دار الرفاعي -
الرياض

مواقيت الحج والعمرة المكانية - مساعد بن قاسم الفالح - ط الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م نشر مكتبة المعارف - الرياض

مِيقَاتُ الْحَجَّ (مجلة) - عدد ٥ - السنة الثانية ١٤١٧ هـ

النهاية - ابن الأثير

الهوامش :

- (١) أودية مكة - عاتق بن غيث البلادي: ٩، ٨
- (٢) أودية مكة - عاتق بن غيث البلادي: ١٨٠
- (٣) (إطلاق الأعلى والأسفل هنا بملاحظة مسيل الوادي فإن وادي قرن يسيل من جبال السراة غرب الطائف ماؤراً بوادي محرم ثم قرن ثم السيل الكبير ثم بعج)
- (٤) أودية مكة - عاتق بن غيث البلادي: ٩، ٨ و ٤٦١
- (٥) في مواقيت الحج والعمرة المكانية: ٧٢
- (٦) أودية مكة - عاتق بن غيث البلادي: ١٨٠
- (٧) أنظر: أودية مكة - عاتق بن غيث البلادي: ٥٢ و ٣٦١ و معجم البلدان - ياقوت الحموي ٥: ٧٧٢
- (٨) أنظر: أودية مكة - عاتق بن غيث البلادي: ٨ و ٤٦١ - أخبار مكة - الأزرقى ٢: ١٣٠.
- (٩) تقدم بيان الأعلى والأسفل.
- (١٠) تعليقة على أخبار مكة للأزرقى ٢: ١٣٠
- (١١) المطالعة السعودية: ٧٢
- (١٢) الأزهار الأرجية: ٨: ١٤٠
- (١٣) الأزهار الأرجية: ٤١: ٨٤٤
- (١٤) الأزهار الأرجية: ٢١: ٣٠١
- (١٥) الأزهار الأرجية: ٨: ٧٧٢
- (١٦) الأزهار الأرجية: ٨: ١٤٠
- (١٧) تحفة الناسك بأحكام المناسك ط ١٣٦٤هـ - ط مكة المكرمة: ٦
- (١٨) التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ٤: ٨٨٢ المطبوع سنة ١٣٨٥هـ
- (١٩) حاشيته على كتاب المناسك للحربي: ٦٤٥
- (٢٠) حاشيته على كتاب المناسك للحربي: ٣٥٢
- (٢١) أودية مكة - عاتق بن غيث البلادي: ٩
- (٢٢) أودية مكة - عاتق بن غيث البلادي: ١٨٠
- (٢٣) معالم مكة - عاتق بن غيث البلادي: ٤٤.
- (٢٤) تعليقة على كتاب أخبار مكة للفاكهي - عبد الملك بن دهيش ٥: ٩٨

- (٢٥) أخبار مكة - الفاكهي ١٠٠: ٥
- (٢٦) حاشية أخبار مكة للفاكهي - عبد الملك بن دهيش ١٠٠: ٥
- (٢٧) كتاب مواقيت الحج والعمرة المكانية مساعد الفالح: ٢٦
- (٢٨) عدد ١٦٨ ذو الحجة ١٣١٢ هـ - يونيو ١٩٢٢ هـ
- (٢٩) في الأزهار الأرجية: ٨.
- (٣٠) مقتطفات من رحلة العياشي (ماء الموائد) - حمد الجاسر: ١٠٧
- (٣١) مقتطفات من رحلة العياشي (ماء الموائد) - حمد الجاسر: ١١٣
- (٣٢) صبح الأعشى - أبو العباس القلقشندي ٤٣: ٥
- (٣٣) أخبار مكة - الفاكهي ١١٧: ٤
- (٣٤) قال دهيش في حاشية أخبار مكة للفاكهي: ١١٧، ويغلب على ظني أنها هي بئر البرود؛ لأنها في طريق العراق، ولأنها مطوية بحجارة منحوتة جيدة العمارة؛ لأنها أعذب المياه كما ذكر الفاكهي، وقال أيضاً: ولا يزال حواس يطلق على واد عند البرود، ويصب في المغمس وعلى منطقة قرب بئر البرود يقال لها خريبات حواس، وهذا مما يدعم ما ذهبنا إليه في بئر ابن المرتفع.
- إن الذي يبعد كلام دهيش أن الفاكهي قد ذكر بئر البرود قبلها مما يدل على عدم اتحادهما.
- (٣٥) معجم البلدان - ياقوت الحموي ٥: ٢٧٧ - مرصد الأطلاع - عبد المؤمن البغدادي ٣: ١٣٦٤
- (٣٦) أخبار مكة - الفاكهي ١٠٠: ٥
- (٣٧) المصباح المنير - الفيومي: ٥٩٧
- (٣٨) الأغاني - أبو الفرج الإصفهاني ١: ١٩٨
- (٣٩) بستان ابن عامر: مجتمع النخلتين والعامية يسمونه بستان بن عامر، وهو غلط قال ابن قتيبة: يقولون بستان ابن عامر وهو بستان ابن معمر فهو الذي يعرف ببطن نخلة، وأما بستان بن عامر فهو موضع آخر قريب من الجحفة.
- (٤٠) معجم البلدان - ياقوت الحموي ٥: ٢٧٧ - مرصد الأطلاع - عبد المؤمن البغدادي ٣: ١٣٦٤ - أودية مكة - البلادي: ٩، ١٠، ١٦٣، ١٦٤
- (٤١) الغمير موضع بين ذات عرق والبستان - معجم البلدان ٤: ٢١٣
- (٤٢) سبوحه واد يصب من نخلة اليمانية على بستان ابن عامر (معجم البلدان) وموقعها كما يظهر من بعض الخرائط شمال مكة أعلى من سرف وبين بطن مر والجموم.
- (٤٣) معجم البلدان - ياقوت الحموي ٥: ٢٧٨
- (٤٤) معجم البلدان - ياقوت الحموي ١: ٢٨١، ٤: ١٠٨
- (٤٥) سولة: وهي عين جارية بنخلة أسفل من الزيمة عند مصب وادي سبوحه في النخلة اليمانية، وسولة والزيمة قريبتان في نخلة اليمانية وليس في نخلة غيرهما من الحياة وقال محمد بن قرية:
- مرتعي من بلاد نجلة بالصيف بكناف سولة والزيمة

والزيمة تبعد ٥٤ كيلو متراً على طريق الطائف ، وهي المرحلة الأولى على نظام القوافل القديم من مكة إلى الطائف ، والمرحلة الثانية هي السيل الكبير (قرن المنازل) - أنظر : معجم البلدان - ياقوت الحموي ٣ : ٢٨٥ -

أودية مكة - البلادي : ١٠

(٤٦) معجم البلدان - ياقوت الحموي ٣ : ٢٨٥

(٤٧) حاشية الفاكهي عبد الملك دهيش : ؟؟؟؟؟؟؟؟؟

(٤٨) دليل الطرق السعودية - زكي فارسي :

(٤٩) أودية مكة - البلادي : ٩ ، ١٠ ، ١٦٤ ، ١٦٣

(٥٠) ، (٥١) ، (٥٢) تعلية على المناسك للحربي - حمد الجاسر : ٤١٦

(٥٣) أودية مكة - البلادي : ٢٦١ - ١٠

(٥٤) معالم مكة - البلادي - ٣٠٠ - أودية مكة البلادي : ٤٦١

(٥٥) المناسك - إبراهيم الحربي : ٥٤٦

(٥٦) معجم البلدان - ياقوت الحموي ١ : ٤١٤

(٥٧) معجم البلدان - ياقوت الحموي ١ : ٤١٤

(٥٨) المغازي : ٤٢٩

(٥٩) السيرة النبوية لابن هشام ٤ : ٤٢١

(٦٠) معجم البلدان - ياقوت الحموي ١ : ٦٤٣

(٦١) تاريخ الطبري

(٦٢) معالم مكة البلادي : ٣٠٠

(٦٣) ، (٦٤) أودية مكة - البلادي : ٢١٠

(٦٥) معالم مكة - البلادي : ٣٠٠

(٦٦) معالم مكة - البلادي : ٣٠٠

(٦٧) تعليقه على المناسك للحربي : ٣٥٣

(٦٨) في مرآة الحرمين ١ : ٦٢ ، ٧٢ : ذكر بحرة الواقعة في طريق جدة قال : وبحرة وتسمى بحرة الرغاء على يسار الميمم مكة ... ثم نقل عن (زاد المعاد في هدي خير العباد) في غزوة الطائف : ثم خرج رسول الله من الطائف إلى الجعرانة ، ثم دخل محرماً بعمرة ففقد عمرته ثم رجع إلى المدينة ، وقال بعد ذلك : والطائف في الجنوب الشرقي لمكة والجعرانة بينهما لكنها أقرب إلى مكة ، فكيف يتفق مع ذلك أنه مرّ ببحرة منصرفه من غزوة الطائف مع أنها غربي مكة ، ولا تقل المسافة بينهما عن ثلاثين ميلاً وبين الجعرانة ومكة حوالي عشرة أميال ، إنا لذلك نقف موقف الشك فيما رواه ابن هشام ونقله عنه كثير من المؤرخين حتى يأتينا اليقين .

أقول : والعدر لصاحب مرآة الحرمين فيما خلط فيه ، وما دعاه إلى التشكيك في كلام صاحب السيرة - مع أنه لم يشك فيه المؤرخون من أهل مكة كالأزرق والفاكهي ولا غيرهم - هو أن صاحب مرآة الحرمين ليس

- من أهل مكة، فهو كالعياشي وغيره من الحجاج الذين لا يتمكنون من معرفة الأماكن وتختلط عليهم الأسماء.
- (٦٩) المغازي: ٩٣٩
- (٧٠) السيرة النبوية ٤: ١٣٠
- (٧١) معجم البلدان - ياقوت الحموي ٢: ٤٤٤
- (٧٢) حاشية كتاب الفاكهي ٥: ١٠٠، ١٠١
- (٧٣) المناسك للحري: ٣٥٦
- (٧٤) قال الجاسر في تعليقه على كتاب المناسك: ٣٥٦، الهدية وتسمى هدة هذيل قديماً هي في قمة جبل كرا، وأصبحت الآن بلدة ذات قصور كثيرة لسراة الناس بعد تعبيد طريق كرا.
- (٧٥) مشاش: قال الجاسر في التعليقة على كتاب المناسك: ٤٥٦، مشاش: الموضع الذي أجرت فيه زبيدة عينها الأولى، وأضافت إليها عين حنين بالشرائع والبرود، وهو مجمع طرق حجاج العراق ونجد واليمن بقرب أنصاب الحرم، ويبعد عن مكة بما يقارب عشرة أميال.
- (٧٦) أخبار مكة - الفاكهي ٥: ٩٨
- (٧٧) قال الجاسر: الأنصاب في الطريق الشمالي من جبل نمرة قديمة واضحة، لكن طريق الطائف تحول اليوم إلى طريقين آخرين غير هذا الطريق: طريق جبل كرى أخذ يميناً ليمر على درب اللاحجة قديماً ثم يستمر فيمر بقرب الحسينية والعابدية (السلفين قديماً) ويلتقي الطريق القديم والجديد في وادي نعمان وسياتي ذكر العلمين اللذين هما حد الحرم على طريق في كلام صاحب مرآة الحرمين عند ذكره لطريق الهدى.
- (٧٨) مرآة الحرمين - إبراهيم رفعت باشا ١: ٢١٠.
- (٧٩) مرآة الحرمين - إبراهيم رفعت باشا ١: ٥٢٢.
- (٨٠) مرآة الحرمين - إبراهيم رفعت باشا ١: ٤٤٣.
- (٨١) مرآة الحرمين - إبراهيم رفعت باشا ١: ١٥٣.
- (٨٢) مقتطفات من رحلة العياشي - حمد الجاسر: ١٠٧.
- (٨٣) مقتطفات من رحلة العياشي - حمد الجاسر: ١٠٧.
- (٨٤) أودية مكة - البلادي: ٥٢.
- (٨٥) أودية مكة - البلادي: ١٠.
- (٨٦) أودية مكة - البلادي: ٩.
- (٨٧) التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ٢: ٧٢، المطبوع سنة ١٣٨٥هـ.

الفور والتراخي في فريضة الحج

محسن محمّد

عاصياً يستحق العقاب في الدنيا وفي الآخرة.

والذي يعنينا ويهمنا في هذه المقالة المختصرة - التي أحاول أن أبعداها مهما أمكن عن التطويل في ذكر الخلافات العريضة، التي لا ينجو منها أي موضوع سواء أكان أصولياً أم فقهياً أو... - هو الأمر دون النهي، وبالذات الأمر المطلق دون المعلق على شيء سواء أكان هذا الشيء شرطاً أو صفة.. وما يدور حوله من أنّه مبنيٌّ على الفور أو التراخي أو لا يعني هذا

إنّ الأحكام الشرعية تبتنى على كلّ من الأمر والنهي، اللذين بهما يتمّ التفريق بين ما أرادته الشريعة المقدسة من حلال، وما وضّحته من حرام ونهت عنه، وبالتالي يتسنى للمكلّف - إذا ما عرف ذلك - الخروج عن عهدة التكاليف الشرعية، التي ترتبت عليه بحكم كونه مسلماً مطيعاً منقاداً لتعاليم السماء.

وبالباب الوحيد إلى ذلك هو الطاعة، التي تتحقق بامتثاله أوامر الله تعالى وبانتهائه عمّا نهى عنه، وإلاّ عدّ

ولا ذاك، وإنما هو لطلب الحقيقة والمাহية فقط، أو أنه يدل على القدر المشترك بين الفور والتراخي.. ثم الانتقال بعد ذلك ببيان موجز إلى واحد من آثار هذه المسألة وهو: فريضة الحج، وهل هي مبتنية على الفور أو على التراخي، والتعرض إلى أقوال الفرق الإسلامية وآراء فقهاءها في هذا الخصوص.

فقد اتفقت كلمة الفقهاء وأهل اللغة على أن الأمر يدل على الوجوب إذا ما خلا من القرينة، التي قد تصرفه وتبعده عن الوجوب، الذي هو حقيقة فيه.

لغة «الأمر حقيقة في الإيجاب بمعنى الإلزام وطلب الفعل وإرادته جزماً».

وشرعاً «الأمر حقيقة شرعية في الوجوب، الذي يترتب على مخالفته استحقاق الإثم والعقاب»^(١).

قال تعالى: «أف عصيت أمري»^(٢) ولا معصية بلا وجوب: «فليحذر الذين يخالفون عن أمره»^(٣).

فالذم والتحذير والتهديد والوعيد.. كلها تتوجه لمن أعرض وتولى عما وجب عليه أدائه.. وكما أن ذيل الآية هو الآخر «.. أن تصيبهم فتنه أو يصيبهم عذاب أليم» يبين أن الفتنه والعذاب الأليم يترتبان على مخالفة الأمر. وهذا قد يُعدّ أدلّ نصّ على أن الأمر يقتضي الوجوب.

قال رسول الله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» فلولا تفيد انتفاء الأمر لوجود المشقة، وانتقل إلى الندب حيث لا مشقة فيه. والأمر هنا للإلزام والوجوب لو وقع.

والوجوب ثابت للأمر - سواء أكان ثبوته بالوضع أم بالانصراف لغلبة الاستعمال - ولا يحمل على الندب إلا بقرينة، هذا وإن الوجوب أيضاً ثابت للأمر سواء أكان الأمر مطلقاً أم كان مقيداً بوقت معين أو معلقاً على شرط أو صفة.. ولكن الأمر المطلق أفرد دون غيره؛ لأنه محل النزاع والخلاف في مسألة الفور

والتراخي اللذين هما محل كلامنا.
 الفور لغةً: من فار يفور فوراً وفوراناً، وهو مأخوذ من قولهم: فار الماء يفور فوراً: أي خرج من الأرض متدفقاً، ومن فارت القدر أي اشتد غلياً، وسارع ما فيها إلى الخروج.. ثم استعمل في الحالة التي لا بطء فيها.. فالفور: العجلة والسرعة، ولهذا يعبر بالفور عن الغضب والحدة؛ لأن الغضبان يسارع إلى البطش بمن غضب عليه، وهو مصدر؛ يعبر به عن أول الوقت، فيقال: أتيت من فوري، ورجعت من فوري، وفعلت ذلك من فوري، وفوراً وفور وصولي، أي في الوقت نفسه أو في أول الوقت، وقبل سكون الحالة أو الأمر الذي أنا فيه، والذي لا يتحمل الابطاء ولا التراخي.
 وفي الآية «.. ويأتوكم من فورهم..» أي من وقتهم أو ساعتهم..^(٤).
 وأما اصطلاحاً: فالمقصود بالفور هو: كون الأداء في أول أوقات

الإمكان^(٥) أو المبادرة إلى تنفيذ الأمر بمجرد سماع التكليف مع وجود الإمكان، وإلا كان المكلف مؤاخذاً.
 التراخي لغةً: مصدر تراخى من رخا... رخاء: أي اتسع فهو رخو، ورخي الشيء رخاً ورُخاءً أي صار رخواً وليناً ومنه الآية «فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب» أي تجري ليناً طائفة..
 ويُقال: أرخى له العنان أي خلّاه وشأنه.. وتراخى: فتر، وتأخر، وتباطأ، ولهذا يقال: تراخى عن الأمر: أي تقاعد وتقاعس عنه. وتراخت السماء: أبطأت بالمطر.. وتراخى ما بينهما: تباعد.. فيقال: إن في الأمر تراخياً، أي: امتد زمانه، وفي الأمر تراخي، أي: إن فيه فسحة وامتداداً..^(٦).
 وأما اصطلاحاً: فهو كون الأداء متأخراً عن أول وقت الإمكان إلى مظنة الفوت^(٧).
 أو تخيير المكلف بين الأداء فوراً عند سماع التكليف، وبين التأخير إلى

وقت آخر مع ظنّه على أدائه في ذلك الوقت^(٨).

وأخيراً فالفور إذن ضد التراخي بالضبط.
المراد من الفورية:

وهل تلك الفورية لغةً هي المطلوبة بعينها، أي أن يبادر المكلف من فوره، ويُسرّع لامتنال ما أمر به بلا أدنى تأخير، وإلا لا يعدّ ممتثالاً بل يعدّ عاصياً يستحق العقاب؟

وهل التراخي لغةً هو المطلوب أيضاً بكلّ معانيه التي ذكرت؟

الذي يظهر أن هاتين الكلمتين استخدمتا في علم الأصول والفقه لا بعناهما اللغوي الحقيقي بدقته وصرامته وشدته. فالفورية لا تعني المبادرة بشكل دقيق لمعنى السرعة والتعجيل وبلا فصل بين الأمر والامتنال، فتسبب بذلك احراجاً ليس للمكلف قدرة عليه، وبالتالي قد يصدق عليه أنه تكليف بما لا يطاق.. ولا التراخي استعمل بشكله الممتدّ السماح، الذي لا يقف عند حدّ

معين، وبالتالي يكون تضييعاً للأمر ولأهمية التكليف وللغرض منه وللمصالح المترتبة عليه وعلى امتثاله.. فلا ذاك ولا هذا، بل المطلوب هو ما تعارف عليه العرف وما اطلق عليه بالفورية العرفية، التي لا تعني بحال الشدة والصرامة في التلبية والامتنال كما هو معنى الفورية لغة، ولا تعني التسبب الذي يؤدي إلى تفويت الغرض كما هو معنى التراخي لغة.

فإذا ما أتى المكلف بامتنال الأمر فوراً فوراً وبلا أدنى تراخ فقد عدّ ممتثالاً واستحق الأجر كلّهُ والشواب كلّهُ. وإذا تباطأ وتأخر وإن كان لزمن قليل فقد عدّ عاصياً يجب إنزال أقسى عقوبة به. لا، ليس هذا هو المطلوب، وليست الشريعة سيفاً صارماً على الناس أبداً، وهو يتنافى مع كونها رحمةً للعالمين وكونها الشريعة السهلة السمحاء.. فالفورية العرفية تلك هي الحلّ الأسمى لمعنى الفور، فإذا قال المولى لعبده: افعل كذا، فعل ولو بعد

حين - بشرط أن لا يترتب على هذا تفويت للغرض - فقد امتثل واستحق الأجر والرضا. وإذا قال له: إفعل كذا، فلم يفعل في زمن يتناسب وذلك الأمر وهدفه ولغته ولحنها كان للمولى أن يقول له: لم لم تفعل؟ وكان له الحق في تقريره بل وفي عقوبته؛ لأن عدم فعل العبد وعدم امتثاله يسبب - قطعاً - تفويتاً لمراد المولى وتضييعاً للملاك أو للمصلحة.

ثم إنَّ العرف يميز بين أوامر تتطلب الإسراع والتعجيل في امتثالها وإلا يفوت الغرض منها، وبين أوامر يحتاج امتثالها إلى التأخير وقتاً ما لإعداد المقدمات التي يكتمل بها ذلك الامتثال، فالأول مثل قول السيد لعبده: اسقني الماء. كان المراد به الفور بقرينة أن طلب الشرب عادةً - والعادة حاكمة - عند الحاجة إلى الماء. والثاني مثل قول السيد لعبده: سافر إلى المكان الفلاني، فلا بدّ - كي يتم السفر - من تهيئة لوازمه.. فالأوامر - إذن - تختلف من حيث لغتها ولحنها وغرضها...

وبالتالي تحتاج إلى وقت - قد يطول وقد يقصر - لتنفيذها. فالصحيح - إذن - أن كلاً من الفور والتراخي يبني على المتعارف، ولا يصح التأخير الذي يدخل تحت الإمال وقلة الاعتناء، كما يصح مع عدم القرينة على الفور.

تحرير محل النزاع

ثم إن هذه الفورية وهذا التراخي، وكون الفعل يدلّ على أي منها أو لا يدل.. وقع النزاع فيه بين الأصوليين من الفريقين قديماً وحديثاً على مذاهب يمكن حصرها في ثلاثة، وكلّ فريق أو مذهب جاء بأدلته على مختاره، نأتي على ذكر ما تيسر لنا منها بشكل مختصر؛ لنصل إلى أحد مناشئ أو آثار هذه النزاع، وهو أداء فريضة الحج، يقول الدكتور الزحيلي: ومنشأ الخلاف كلامهم في الحج، هل هو على الفور أو التراخي؟ وكذا غيره..^(٩) وقبل التعرض لذلك لابدّ لنا من أن نحرر محل النزاع أولاً بمقدمات، فنقول:

إن الأوامر أربعة أقسام:

١- الأمر المطلق: وهو الخالي من أي قرينة أو قيد..

٢- الأمر المؤقت: أي المقيد بوقت ثابت محدّد ومعين، له أول وله آخر؛ كالصيام الذي يمك في المكلف طيلة الوقت ويستغرق جميع أجزائه.

٣- الأمر المعلق على شرط: مثل «وإن كنتم جنباً فاطهروا»^(١٠). وغالباً ما يأتي مستعملاً مع أدوات الشرط.

٤- الأمر المعلق على صفة: مثل: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما..»^(١١)، «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة»^(١٢).

وقد اتفقت كلمتهم على أن الأمر المطلق أي الأول -دون الأوامر الثلاثة الأخرى- هو محل النزاع. كما أن هذا النزاع يتم عند من يذهب إلى أن مطلق الأمر لا يقتضي التكرار كالشيخ المفيد وتبعه الشيخ الطوسي.. وغيرهما الكثير من العامة والخاصة.

أما على مذهب القائلين باقتضائه للتكرار، فإن الفورية تعدّ من ضروريات الأمر، ولأنه يستغرق الأوقات كلّها بالفعل المأمور به^(١٣).

بعد هذا نقول: إن أقوال الفرق الإسلامية يمكن درجها تحت النقاط التالية:

١- المالكية والحنابلة في ظاهر المذهب والكرخي من الحنفية وبعض الشافعية قالوا: إن مطلق الأمر أي المجرد عن قرينة الفور أو التراخي هو للفور -ومعنى الفور..: الشروع في الامتثال عقب الأمر من غير تأخير ولا فصل، وقد نسب الشيرازي للكرخي أن مذهبه عدم الفورية.

٢- الحنفية على الصحيح من المذهب: إن مطلق الأمر على التراخي، فلا يثبت حكم وجوب الأداء على الفور بمطلق الأمر.

ومعنى التراخي.. تأخير الامتثال عن وقت الأمر زمنياً يمكن إيقاع الفعل فيه فصاعداً. وهو مختار أعيان المعتزلة كالقاضي عبد الجبار،

وحقيقة في القدر المشترك، وهو طلب
الاتيان بالمأمور به، منعاً من الاشتراك
والمجاز.

وقد رجح بعض أن الأمر لا يدل
بذاته على الفور أو التراخي، بل
يستفاد ذلك من القرائن، فمن قال
لغيره: «اسقني» كان المراد به الفور
بقريته أن طلب الشرب عادة يكون
عند الحاجة إلى الماء، وإذا كان المأمور
به مطلقاً عن الوقت كالزكاة والحج
وقضاء الصوم والصلاة، وأداء
الكفارات، فيجوز فيه التأخير، ولكن
المبادرة إلى الفعل أولى وأحوط، قبل
مباغته الموت، وانتهاء الأجل قبل
الأداء لقوله تعالى: ﴿فاستبقوا
الخيرات﴾^(١٤).
الإمامية:

- ذهب فريق منهم إلى أن فعل
الأمر المطلق مبني على الفور والتعجيل
كالشيخ المفيد والشيخ الطوسي وأبو
الحسن الكرخي المتكلم الفقيه..
- فيما ذهب السيد المرتضى إلى أنه
مشترك بين الفور والتراخي، أي

وابن حزم الأندلسي، وقد ذكر هذا
القول البيضاوي ونسبه لقوم،
واختاره السرخسي في أصوله.

وقد استدل هؤلاء بأن هناك
فرقاً بين الأمر المقيّد والأمر المطلق،
فإن قول القائل لخادمه: «افعل كذا
الساعة» يوجب الائتار على الفور،
وهذا أمر مقيّد، وقول القائل: «افعل»
مطلق، وبين المطلق والمقيّد مغايرة
ومنافاة، فلا يجوز أن يكون حكم
المطلق ما هو حكم المقيّد، فيما يثبت
التقييد به؛ لأن في ذلك إلغاء صفة
الإطلاق، وإثبات التقييد من غير
دليل، وليس في الصيغة الآمرة المطلقة
ما يدل على التقييد، في وقت الأداء،
فيكون على التراخي كالأمر
بالكفارات وقضاء الصوم والصلاة.

٣ - الشافعية على الراجح: إن
الأمر المطلق لا يفيد الفور ولا
التراخي.

وقد استدل هؤلاء؛ بأن ورود
الأمر مع الفور، ومع عدمه، ويصح
تقييده بالفور وبالتراخي، فيجعل

مشارك لفظي وضع بوضعين، لهذا يحتاج إلى دليل؛ لكي يعين لنا المراد منه: الفور أو التراخي.

- بينا ذهب فريق ثالث إلى أن الفعل المطلق أي الأمر ليس فيه دلالة على الفورية ولا على التراخي، بل كل ما فيه هو دلالة على مطلق الفعل أي على طلب حقيقته أو طبيعته ومن غير فهم شيء من الأوقات والأزمان^(١٥).. وأن كلاً من الفور والتراخي أمران خارجيان عن تلك الطبيعة، أو أن الفور والتراخي من صفاته، التي هي صفات متقابلة، فلا دلالة له عليهما؛ لأن الموصوف بالصفات المتقابلة لا يدل على واحد معين منها.

هذه خلاصة الآراء الثلاثة، والأقوى فيها والمشهور الثالث الذي عليه أكثر العلماء ومنهم صاحب الشرائع المحقق الحلي، والعلامة الحلي وصاحب المعالم وغيرهم^(١٦).

أدلة القائلين بالفورية:

لقد وجدت أن هناك أدلة

مشاركة بين الإمامية وباقي المذاهب الإسلامية الأخرى نكتفي بها ونوجزها وأجوبتها بما يلي:

* إن الله سبحانه وتعالى ذم إبليس حينما امتنع عن السجود لآدم عليه السلام بقوله: ﴿... ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك﴾^(١٧). فلو لم يكن الأمر للفور لما استحق إبليس الذم.

والجواب: أن هذا الأمر بالسجود لم يكن بذاته يدل على الفور، وإنما لتقيّد الأمر بالوقت المحدّد وهو قوله تعالى: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾^(١٨). كما فيه قرينتان أخريان تدلان على الفور، أحدهما: الفاء في قوله فقعوا، والفاء لغة تفيد التعقيب، والثانية: فعل الأمر نفسه: فقعوا له ساجدين، فالفعل اذن لا يدل بذاته في الآية: ﴿ما منعك ألا تجسد إذ أمرتك﴾ على الفورية بل بالقرائن وبالتالي فالآية لا تصلح دليلاً على الفور.

* قوله سبحانه وتعالى:

﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾^(١٩).

فالمغفرة فعل الله تعالى، والمراد إيجاد سببها، إتيان الواجبات وترك المحرمات وعلى قول: المسارعة بالتوبة والندامة التي هي واجبة بحكم العقل، وليس المراد منها الأفعال الخارجية من الواجبات والمستحبات^(٢٠) فتجب المسارعة والتعجيل إلى فعل المأمور به وهو سبب المغفرة، وتتحقق هذه المسارعة وتصدق إذا اتصفت بالفورية.

والجواب: أن هذه الآية لا تعين على الفورية أبداً، وإنما تدل على التراخي؛ لأن المسارعة لا تتحقق ولا تصدق إلا إذا كان الوقت موسعاً أو كان هناك مستحب، أما إذا كان هناك واجب وبالذات إذا كان مضيقاً فلا تتصور المسارعة وفضلها، وإنما هو امتثال لا بد منه، وليس فيه اختيار ومبادرة يوجب الثناء والمدح.

* بما أن النهي طلب ويفيد الفور، فأيضاً الأمر طلب مثله وبالتالي يفيد الفورية. إضافة إلى أن

الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضده «كما في صل معناه لا تترك الصلاة»، وبما أن النهي يفيد الفورية وهذا من المسلمات، كما في لا تسرق، فالأمر أيضاً - قياساً - يقتضي الفورية.

الجواب: صحيح أن النهي يفيد الفور وإلا يفقد غرضه وهو دفع المفسدة. ولكن قياس الأمر عليه قياس مع الفارق، حيث إن الأمر لا يفيد التكرار هذا أولاً. وإن القياس خاصة في باب اللغة باطل ثانياً، وثالثاً أن النهي يفيد الفورية إذا كان مستقلاً كما في «لا تغتب» بعكس النهي الوارد في ضمن الأمر الذي لم تثبت الفورية له، وبالتالي فالنهي تابع له.

ثم هناك فرق بين الأمر المقيد والأمر المطلق، فإن المولى إذا قال لعبده: «اسقي الماء» فإن هذا مقيد بالحاجة إلى شرب الماء، التي لا تتحمل التأخير، أو قال له: افعل الشيء الفلاني الآن، فتجب المبادرة من المكلف إلى أن يمتثل كلاً منهما، فهذا حال الفعل المقيد. أما المطلق مثل

على 'دلالة تدل على ذلك .
ومعنى هذا أن الأمر وضع
بوضعين ، مرة وضع ويُراد منه الفور ،
وأخرى وضع ويراد منه التراخي كما
هو شأن الألفاظ المشتركة الأخرى
عند إطلاقها ، ويحتاج إلى دليل
خارجي لتمييز أي المرادين مطلوب .
وقد استدل السيد المرتضى على 'مختاره
بدليلين :

الأول : أن الأمر قد يرد في
القرآن واستعمال أهل اللغة ، ويُراد به
الفور ، وقد يرد ويراد به التراخي ،
وظاهر استعمال اللفظة في شيئين ،
يقتضي أنها حقيقة فيهما ، ومشتركة
بينهما .

أي أنه استعمل مرةً وأريد به
الفورية ، كما استعمل أخرى وأريد به
التراخي ، واستعمال اللفظ في مرادين
أو معنيين حال استعمال اللفظ
الواحد في معنى واحد ومراد واحد ،
فإن الأصل في الاستعمال هذا الحقيقة .
واجب عن ذلك بأن هذا يتم إذا
فقد الدليل على المجاز ، أما إذا وجد

(افعل) فبينه وبين المقيد منافاة
ومغايرة ، ولهذا لا يصح أن يكون
حكم المطلق حكم المقيد وهو الفور ؛
لأن في هذا إلغاء لصفة الإطلاق
وإثبات التقييد من غير دليل ..

بعد أن اطلعنا عن أدلة القائلين
بالفورية وأدلة الرافضين لها وقد
تجلّت في إجاباتهم على تلك الأدلة ،
التي يمكن أن تكون أدلتهم على عدم
الفورية ، بل على أن الأمر المطلق يدل
على 'طبيعي الفعل أو ماهيته وحقيقته
فقط ، وأن هذه الطبيعة قد تتحقق
بالفور وقد تتحقق بالتراخي من أدلة
خارجية . ننتقل إلى رأي السيد
المرتضى :

رأي السيد المرتضى :

ويبدو أن السيد في رأيه هذا قد
تفرّد به في دائرة الفقه الإمامي ، في
حين وجدت في المذهب الشافعي من
يذهب المذهب نفسه^(٢١) .

يقول السيد : إن الأمر المطلق
مشترك بينهما^(٢٢) أي بين الفور
والتراخي ، فيتوقف في تعيين المراد منه

الدليل هذا، فلا نستطيع أن نتمسك بقاعدة الأصل في الاستعمال الحقيقية. ثم إن الأمر مستعمل فيما هو أعم من الفورية والتراخي كالقدر المشترك.. فلا بد من انضمام شيء آخر، لتفهم منه الخصوصية المرادة كوجود القرينة، وإنما يقتضي أن يكون حقيقة فيهما إذا كان مستعملاً بمجرد دون شيء آخر. يقول صاحب المعالم: إن الذي يتبادر من إطلاق الأمر ليس إلا طلب الفعل، وأما الفور والتراخي فإنهما يفهمان من لفظه بالقرينة.

الثاني: أنه يحسن - بلا شبهة - أن يستفهم المأمور - مع فقد العادات والأمارات - هل أريد منه التعجيل أو التأخير؟ والاستفهام لا يحسن إلا مع الاحتمال في اللفظ.

أي أن المولى لو أمر عبده بشيء، فهنا يجوز للعبد أن يسأل، أتريده فوراً أم لا؟ كما أنه يصح للمولى أن يجيب عبده بأني أريد فوراً أو على التراخي.. فهذا دليل على أن الأمر وضع لكليهما، وليس لواحد منهما وإلا

لا يصح الاستفهام.

والجواب بأن العبد إنما سأل مولاه لاحتمال أن يكون هذا الأخير أراد المعنى الحقيقي أو المجازي من طلبه.

يقول صاحب المعالم: ويكفي في حسن الاستفهام، كونه موضوعاً للمعنى الأعم، إذ قد يُستفهم عن أفراد المتواطى لشيوخ التجوز به عن أحدهما فيقصد بالاستفهام رفع الاحتمال.

ولكن يمكننا أن نقول: إذا لم يتبادر من الفعل المطلق إلا طلب الحقيقة، فلماذا الاستفهام؟

ثم إنه وحسب مقدمات الحكمة أن العاقل ما يريده يقوله، ويقوله بوضوح، فلا داعي منه لهذا الخلط أو الغموض في الطلب الذي يؤدي للسؤال.

كما أن من النادر أن يقع مثل هذا الاستفهام أتريد الحقيقة أو المجاز، أتريد الأسد الحقيقي أم الرجل الشجاع؟ هذا وأن السؤال قد يقع حتى

يرفع الغموض عن طلب المولى الذي قد يكون يريد طلب طبيعة الفعل وحقيقته، لا فقط المعنى المجازي أو الحقيقي أو الفور أو التراخي..

وأخيراً فإن الراجح هو أن الأمر المطلق لا يدل على الفور ولا على التراخي، بل إن كليهما يستفادان من قرائن وأدلة خارجية لا من الفعل بذاته، وعلى هذا أكثر العلماء..

بعد هذه النبذة عن الفور والتراخي والنزاع فيهما، ننتقل إلى معرفة ما إذا كانت فريضة الحج التي هي سبب من أسباب هذا الاختلاف في الآراء؛ حول الفور والتراخي لنرى ما إذا كان فرضها أو وجوبها يقتضي الفورية في أدائها أم التراخي.

علماً أن من أسباب هذا النزاع وآثاره أموراً أخرى كأداء الزكاة وقضاء الصوم والصلاة.. وهل كل واحدة من هذه وجبت على الفور أو التراخي؟

الإمامية:

مع أن الخلاف وقع بين فقهاء

الإمامية - كما بيناه - في مسألة أن الأمر المطلق يدل - بذاته - على الفور أو التراخي، أو لا يدل على هذا ولا ذاك، وإنما يدل على حقيقة الفعل فقط، وليس فيه دلالة على الفورية أو التراخي لا بحسب مادته ولا بحسب صيغته، وهما خارجان عنه، أو هو مشترك لفظي وضع للفور وللتراخي، ويحتاج إلى دليل لتمييز المراد منهما.. إلا أنهم اتفقوا على أن فريضة الحج إذا ما توفرت شرائطها واستقرت تجب على الفور.

المراد بالفورية في فريضة الحج:

هو أنه يجب على المكلف - الذي تحققت استطاعته، واستقر عليه الحج - الإتيان بالحج والمبادرة إليه في أول عام استطاعته، وليس له تأخير عنه، فالتأخير - مع توفر الشرائط - يعدّ معصيةً كبيرةً موبقة^(٢٣)، وإن حجّ بعد ذلك، وكان حجّه مجزياً.

والظاهر أن المراد من وجوب الفورية والتعجيل بأداء الحج حتى لا يقع المكلف في تلك المعصية إذا ما

تراخى وتباطأ في أدائه لفريضة الحج، لا عدم صحة الحج منه في الزمن المتراخي أي في السنوات التالية لعام استطاعته.

وإذا اطلعنا على أدلة القائلين بالفور - على تقدير تماميتها - فهي لا تدل على أكثر من العصيان بالتأخير، لا على عدم الصحة.

إذن يجب على المكلف - الذي ترك أداء فريضة الحج في عام استطاعته أو أخرها - أن يبادر لأدائها في العام الثاني وهكذا. فالفورية أو المبادرة والتعجيل تبقى تلاحق المكلف في كل سنة ما دام لم يؤد الفريضة، التي استقرت عليه بسبب استطاعته.

وقد قامت على ذلك أدلتهم، التي لا يخلو بعضها من مناقشة ورد بينهم:

القرآن الكريم:

«.. والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» (٢٤).

فاللام في قوله تعالى «والله» هي

لام الإيجاب والإلزام، ومع كونها كذلك، فقد أكد كل من الإيجاب والإلزام بـ «على» التي هي من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب، فإذا قال العربي: لفلان علي كذا، فقد وكده وأوجبه.

إذن ذكر الله تعالى الحج ووجوبه بأبلغ ألفاظ الوجوب.. (٢٥).

والوجوب المذكور على الفور ولا يجوز معه التأخير.. والذي يدل على أنه على الفور عموم قوله تعالى: «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم» أي ما هو سبب المغفرة، والحج كذلك (٢٦).

ونظراً لأن الوجوب في هذه الآية مشروط بالاستطاعة أو متعلق على الاستطاعة فهو ليس أمراً مطلقاً حتى يدخل في النزاع الدائر - كما ذكرنا - حول كونه يدل على الفور بذاته أو لا، أو أنه يدل فقط على الماهية.. فهو إذن خارج عن محل النزاع وبالتالي يمكن اتصافه بالفورية لأنه مقيد.

* «وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ» (٢٧)

والأمر للوجوب، ويدل على طلب الماهية.

الروايات:

١ - قوله ﷺ: «مَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ الْحَجُّ فَلَمْ يَحِجْ فَلَيْمَتْ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا» وقد أتي بفاء التعقيب ورتب الوعيد وهو صريح في الفورية (٢٨).

٢ - عن أبي عبد الله ﷺ: قال الله تعالى: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» قال: هذه لمن كان عنده مال وصحة، وإن كان سوفه للتجارة فلا يسعه، وإن مات على ذلك فقد ترك شريعة من شرائع الإسلام إذا هو يجد ما يحج به..

٣ - عن معاوية بن عمار قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن رجل له مال ولم يحج قط، قال: هو ممن قال الله تعالى: «وَنَحْشُرْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى» قال: قلت: سبحان الله، أعمى؟! قال: أعماه الله عن طريق الحق. وفي رواية: عن طريق الجنة، وفي رواية: عن طريق الخير.

٤ - فقال: لا عذر له، يسوف

الحج، إن مات وقد ترك الحج فقد ترك شريعة من شرائع الإسلام.

٥ - عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن قول الله عز وجل: «وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا» قال: ذلك الذي يسوف الحج، يعني حجة الإسلام، حتى يأتيه الموت. وغير هذه من الروايات في الوسائل باب وجوب الحج مع الاستطاعة على الفور، وتحريم تركه وتسويفه.

* ثم إن وجوب الحج على الفور من المرتكزات عند المتشعبة المهتمين بالشريعة وأحكامها، وهم يذمون من يترك الحج أول عام استطاعته من دون عذر. وهذا الارتكاز يصلح دليلاً تاماً لو ثبت اتصاله بزمان التشريع، الذين عاشوا فترة المعصومين ﷺ وهو بالتالي يكشف عن التلقي عن الإمام المعصوم.

* ثم إن العقل يحكم على المكلف بلزوم تفريغ ذمته فوراً من فريضة الحج، التي استقرت عليه بعد أن

* عدم جواز نيابة مَنْ استقر عليه الحج، فلو كان الحج على التراخي ولم يكن فورياً؛ لجاز لمن وجب عليه الحج أن ينوب عن غيره، ويؤخر حجّه الواجب إلى سنة أخرى.

* .. عن معاوية بن عمار، عن أبي عبدالله عليه السلام في رجل ضرورة مات ولم يحج حجة الإسلام، وله مال: قال: يحج عنه ضرورة لا مال له ^(٢٩).

* الحج البذلي ورواياته الظاهرة في وجوب الإتيان به فوراً وفي عام البذل، منها:

عن محمد بن مسلم، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: فإن عرض عليه الحج فاستحى؟ قال: هو ممن يستطيع الحج، ولم يستحى؟ ولو على حمار أجدع أبتز، قال: فإن كان يستطيع أن يمشي بعضاً ويركب بعضاً فليفعل.

لقد تحققت الاستطاعة بالبذل وهو أحد مصادر تحققها، وبالتالي وجب الحج على المكلف المبذول له، فلماذا لا نلحقه بالحج الواجب

توفرت شرائطها التي منها الاستطاعة خاصة مع احتمال الموت الذي سيحول بينه وبين أدائه للفريضة وقد يفاجئه في أي وقت.. وهذا الدليل وإن كان تاماً في نفسه إلا أنه لا ينطبق على تمام المدعى وهو وجوب الفورية في الحج ولو مع العلم بالبقاء والتمكن من الحج في العام القابل، والدليل لا يقتضي ذلك.

* الإجماع، ولأنه إجماع مدركي، وقد علم مدرك المجمعين، وبالتالي يمكن الاستناد إلى المدرك نفسه، فالإجماع هذا ليس بحجة.

* وجوب الاستنابة دليل على أن وجوب الحج فوري في أول عام الاستطاعة، وقد دلت الروايات على وجوبها على المكلف إذا ما توفر له العذر من مرض أو عجز، وعلم بعدم زواله.

أما لو علم بزوال العذر فيجوز له التأخير. فدليل وجوب الاستنابة ليس على إطلاقه يصلح دليلاً على ما يُراد من فورية الأداء.

والمبادرة إلى أدائه فوراً؟ فقد وجدت من يقول بالفصل بينه وبين الحج الواجب بالأصل، وبالتالي لا يعده دليلاً على فورية الحج كباقي الأدلة.

أقوال الفرق الإسلامية:

لقد استدل فقهاء المذاهب الإسلامية على كون الحج مبنياً على الفور أو التراخي - كل حسب طريقه الخاصة واجتهاده - من الأدلة الخارجية كالروايات، لا من فعل الأمر ذاته. وهذا ما نراه في قراءتنا لأقوالهم الآتية.

- الشافعية:

فقد ذهبوا إلى جواز تأخير الحج وأنه مبني على التراخي، قال الشافعي: يجب الحج وجوباً على التراخي، وليس على الفور، وبهذا نفسه قال كل من الأوزاعي، والثوري، ومحمد بن الحسن والشيباني، واحتجوا بما يلي:

✽ أن آية الحج «وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ..» نزلت سنة ست بعد الهجرة، وأن النبي ﷺ تمكن من الحج

سنة ثمان وسنة تسع للهجرة، حيث حج النبي ﷺ بأزواجه وحج معه أصحابه. فدل هذا على جواز تأخير الحج.

إذن فقد تمسك القائلون بالتراخي وعدم فورية فريضة الحج بأن آية الحج: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...» نزلت في السنة السادسة للهجرة، ولم يبادر الرسول ﷺ إلى أداء هذه الفريضة، وإنما أخرها إلى السنة العاشرة لا الثامنة أو التاسعة، فأدّاها مع زوجته وجمع عظيم من أصحابه في حجة الوداع، التي التحق بعدها رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى. ثم الآية مطلقة عن تعيين الوقت، والفور تقييد للنص ولا دليل عليه...

أقول: وقد أجيب عن ذلك بأجوبة متعددة:

(١) أنه قد حجّ سابقاً وبالتالي فهذه ليست حجة واجبة عليه حتى يبادر إليها، وإنما هي مستحبة.

(٢) أنه لم يستقر عليه الحج لعدم استطاعته.

(٣) أنه قد هادن قريشاً (أهل مكة) بأنه لا يأتي إليهم. ولما نزلت آية الحج سار حتى وصل الحديبية، فصدّوه، وحينئذ حلق وأحلّ. وقد ردّ هذا بأنه كان قبل عام الفتح، ولا يتم بعده، فإنه ﷺ قد فتح مكة في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة. ولم يحج ﷺ في هذه السنة ولا حتى في السنة التالية لها وهي التاسعة، التي حجّ فيها الإمام علي عليه السلام مع جمع من المسلمين وأدى عن الرسول ﷺ آيات أول سورة براءة.

(٤) أن تأخيره لعلّه كان لأجل دورات النسيء وهو تأخير حرمة الشهور الحرم (ذو القعدة وذو الحجة والحرم ورجب) أو شهر منها إلى شهر آخر أو شهور أخرى وهو ما كانت الجاهلية تفعله قال تعالى: «إنما النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يُحلّونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلّوا ما حرّم الله...» (٣٠).

لهذا فإن مسألة عدم حج النبي لا

تخلو من تأمل.

ثم إن آيتي الحج «وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...» و«وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ» لا يقتضيان أن يكون امتثال الحج الواجب على الفور أو في زمنٍ معيّن، وإنما يقتضيان إيجاب الشيء وإيجاده فقط، فلفظة افعل تقتضي هذين الأمرين دون التراخي أو الفور.

* أن المكلف إذا أخره من سنة استطاعته إلى السنة التالية أو أكثر، ثم قام بالحج، فإنه يعدّ مؤدياً للحج، وليس قاضياً له، وعلى هذا إجماع الفقهاء. ولو أن التأخير كان حراماً، أو فات وقته؛ لكان حجّه قضاءً لا أداءً.

وقاسوا ذلك على من صلى صلاة الظهر بعد فوات وقتها، فإن صلاته تكون قضاءً لها وليس أداءً كما في وقتها، لفوات وقتها أو لأن تأخيرها عن وقتها حرام.

* أما الرواية (من أراد الحج فليتعجل) فإنها مع ضعفها، فإن الأمر

بالتعجيل إذا أراد المكلف ذلك، فعَلَّقَ التعجيل على إرادته، وما دام هذا الأمر معلقاً فهو خارج عن كونه على الفور؛ لأن الفورية أو التراخي يختصان بالفعل المطلق كما ذكرنا ذلك. ثم لو كان على الفور لما أخره سَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد وجوبه.

وإذا ما أردنا عدم ترك هذا الحديث فليس لنا إلا أن نقول: إنه أمر يراجه الندب...

ومع قولهم بالتراخي فإنهم يقولون: إن المستحب لمن وجب عليه الحج أن يسارع في فعله، ودليلهم في هذا:

١ - قوله تعالى: ﴿واستبقوا الخيرات﴾.

٢ - لأنه إذا أخره عرّضه للفوات بحوادث الزمان، فكان الحزم والاحتياط المبادرة إلى فعله متى توافرت شرائط وجوبه وأدائه ^(٣١) وبه قال الأوزاعي والثوري والقاضي أبو علي. ومع أن وجوب الحج عند

الشافعية على التراخي، إلا أنهم قالوا أيضاً: إن من وجب عليه الحج، وتمكن من أدائه فمات بعد ذلك ولم يحج، فإنه يموت عاصياً على القول الأصح في مذهبه؛ لأنه إنما جاز له تأخير الأداء وأنه لا يأتى بشرط سلامة العاقبة، وبشرط العزم على أداء الفريضة في المستقبل، وإمكان قيامه بالحج قبل وفاته، فلو خشي العجز أو خشي هلاك ماله حرم التأخير، فإن لم يفعل كان مفرطاً، فيكون عاصياً. أما التعجيل بالحج لمن وجب عليه فهو سنة عند الشافعي ما لم يموت، فإذا مات تبين أنه كان عاصياً من آخر سنوات الاستطاعة ^(٣٢).

- الحنفية والحنابلة والمالكية وبعض الظاهرية:

وقد قالوا إن الحج مبني على الفور واحتجوا بما يلي:

١ - قوله تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ فهذا أمر بالحج، والأمر يقتضي الوجوب على الفور.

٢- ثم إن الاحتجاج بأن النبي ﷺ لم يحج بعد نزول آية الحج إلا بعد سنة أو سنتين. والجواب: لأن مكة كانت دار شرك، فكان ممنوعاً عنها.

٣-.. عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ».

وفي هذا الحديث دليل على أن الحج واجب على الفورية.

٤- روى البيهقي عن أمانة عن النبي ﷺ قال: «مَنْ لَمْ يَحْبِسْهُ مَرَضٌ، أَوْ حَاجَةٌ ظَاهِرَةٌ، أَوْ سُلْطَانٌ جَائِرٌ، وَلَمْ يَحْجِ، فَلَيْمَتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا».

٥- روى ابن ماجه في «سننه» عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ...».

٦- ذكر الترمذي حديثاً عن علي بن أبي طالب: من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً.

وإن ضعف الترمذي هذا الحديث لوجود هلال بن عبد الله وهو

مجهول عنده، إلا أن الجمهور استدلوا به على الوجوب الفوري للحج.

٧- ولأن المكلف لو مات، ولم يكن قد حج، لم يخل من أحد أمرين:

* إما أن يكون آثماً.

* وإما أن لا يكون آثماً.

فإن قلنا بالثاني، فقد أسقطنا بقولنا هذا وجوب الحج، حيث إن الإثم يتأتى عند ترك الواجب، والذي لا يترتب عليه الإثم هو ترك المندوب، فالحج إذن مندوب وليس بواجب.

وإن قلنا: إن المكلف يأثم، فقد سلمنا بأن الحج واجب على الفور. فمن تحقق الحج عليه في عام فأخره يكون آثماً وإذا أداه بعد ذلك كان أداءً لا قضاء وارتفع الإثم.

كما أن هناك بعض الحنفية قالوا: إن الأمر بالحج يحتمل الفور ويحتمل التراخي. وعندهم أن الحمل على الفور أحوط؛ لأن هذا يدفعه إلى المسارعة في أداء واجب الحج، فإن كان على الفور فقد عمل بالواجب، وإن كان على التراخي، فلا يضره

تعجله في أدائه^(٣٣). فالاحتياط في أداء يموت فيفوت الفرض، وتفويت الفرائض واجب، فلو أخر الحج عن السنة الأولى، فقد يمتدّ به العمر، وقد الفرض حرام فلهذا يجب على الفور من باب الاحتياط.

الهوامش :

- (١) سعد الدين التفتازاني، انظر أصول الفقه الإسلامي: ٢٢١.
- (٢) طه: ٩٣.
- (٣) النور: ٦٣.
- (٤) آل عمران: ١٥، وأنظر مادة: فور في المصباح وفي لسان العرب والقاموس المحيط والمنجد والمعجم الوسيط...
- (٥) أنظر التعريفات للجرجاني مادة فور، وأصول الفقه الإسلامي ١: ٢٢٩ للزحيلي.
- (٦) أنظر مادة: رخو في لسان العرب، والقاموس والمحيط والمصباح المنير والمنجد والمعجم الوسيط...
- (٧) انظر كشاف مصطلحات الفنون ٣: ٥٩٤.
- (٨) أصول الفقه الإسلامي للزحيلي ١: ٢٢٩.
- (٩) أصول الفقه الإسلامي للدكتور الزحيلي ١: ٢٣٠.
- (١٠) المائدة: ٦.
- (١١) المائدة: ٣٨.
- (١٢) النور: ٢.
- (١٣) وتتميماً للفائدة نقول: إن الجميع متفقون على أنه لا ريب في أن الخطاب لو كان مقيداً بقرينة تقتضي التكرار، وجب فيه التكرار كما لو قال: (صلّ أبداً) وكذلك لو كان الخطاب مقيداً بقرينة تفيد المرة الواحدة، حمل على الفعل مرة واحدة، وإنما الخلاف فيما إذا ورد الخطاب مطلقاً فإنه يمكن أن نقسم آراء الفقهاء والمتكلمين في هذه الصورة إلى أربعة وهي:
- ١- الأمر بالشيء لا يقتضي الفعل إلا مرة واحدة ولا يحمل على ما زاد إلا بدليل.
- ٢- الأمر بظاهره يقتضي تكرار الشيء أبداً، أي لو توجه الأمر بشيء، فإن على المكلف أن يكرّره مدّة

حياته بشرط الإمكان ..

- (نأمل أن نتناول في المقالة القادمة «المرة والتكرار» وهو موضوع اصولي وعلاقته بفريضه الحج.)
- ٣- الوقف: وقد اختلفوا في معنى الوقف ومفهومه، فذهب جماعة إلى أنهم توقفوا في الصيغة المطلقة في مقدار الفعل حتى يقوم الدليل على المرة أو الكلي أو على مقدار معلوم. وقال الشريف المرتضى (الذريعة ١: ١٠٠): «أراد المرة بلا شك، وما زاد عليها لست أعلم هل أراد أو لم يرد. فأنا واقف فيما زاد على المرة لا فيها نفسها».
- ٤- الأمر بالشيء لا يقتضي التكرار، حيث يعتقدون أن الأمر إنما يفيد طلب الماهية من دون دلالة على الوحدة أو الكثرة، ولكن بما أن الطبيعة لا تحصل في الخارج إلا بإحضارها مرة واحدة، صارت المرة من ضروريات الإتيان بالمأمور به، وإلا فإن الأمر لا يدل بذاته على المرة أو التكرار.
- فإن مختار الشيخ المفيد^(١) (التذكرة: ٣٠) وتبعه على ذلك الشيخ الطوسي، هو أنه «لا يجب ذلك أكثر من مرة واحدة، ما لم يشهد بوجوب التكرار الدليل» أما الشريف المرتضى، فقد ذكرنا رأيه (انظر في هذا الهامش كله مع أصحاب الأقوال: العدة في أصول الفقه للشيخ الطوسي - الهامش: ١٩٩ - ٢٠٠).
- (١٤) انظر في هذا كله: الموسوعة الفقهية - مصطلح أمر، وأصول الفقه الإسلامي للزحيلي، الأمر، والآية البقرة: ١٤٨.
- (١٥) انظر الواقية في أصول الفقه للفاضل التوني: ٧٨.
- (١٦) معالم الدين للعالمى الجبائي: ١٥٠ - ١٥٢، العدة للطوسي ١: ٨٥.
- (١٧) الأعراف: ١٢.
- (١٨) الحجر: ٢٩.
- (١٩) آل عمران: ١٣٣.
- (٢٠) محاضرات في أصول الفقه - الفياض، من تقارير السيد الخوئي.
- (٢١) أصول الفقه الإسلامي، للدكتور الزحيلي ١: ٢٣١.
- (٢٢) الذريعة ١: ١٣٢، معالم الدين للجبائي: ١٥٨ - ١١٥٩.
- (٢٣) الجواهر ١٧: ٢٢٤، في حالة حصول الاستخفاف المؤدي إلى الترك، وكما في مذهب الأحكام للسبزواري ١٧: ١٧.
- (٢٤) آل عمران: ٩٦.
- (٢٥) الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٤٢.
- (٢٦) كنز العمال - كتاب الحج ١: ٢٦٦.
- (٢٧) البقرة: ١٩٢.
- (٢٨) كنز العرفان - كتاب الحج.
- (٢٩) الوسائل - أبواب النياية.

- (٣٠) التوبة: ٣٧.
- (٣١) المجموع ٧: ٨٢، شرح المذهب ٧: ٨٥.
- (٣٢) انظر الأم ٢: ١١٧-١١٨، المجموع ٧: ٩٠.
- (٣٣) المغني ٣: ٢٤١-٢٤٢، البدائع ٢: ١١٩، شرح سنن أبي داود ٥: ١٥٧، وانظر أيضاً الموسوعة الفقهية لوزارة الأوقاف والشؤون الدينية ١٧: ٢٤.

الحج في الأدب العربي مختارات شعرية

إعداد محمد علي المقدادي

عيد الأضحى المبارك

أحمد الغزاوي

ومناطه الأجسام والأرواح	(عيد) به تتضاعف الأفراح
يزهو به الإمساء والإصباح	أضحى (الحجيج) به سعيداً هانئاً
وتفيض منه (مشاعر) وبطاح	يستقبل الغفران فيه مكبراً
في كل ما هو طاعة وفلاح	ظفروا بعفو الله واعتصموا به
أرج يطيب نسيمه الفواح	وكانما هم في المناسك كلها
هو للعباد الواهب المنّاح	بالحمد والشكران لله الذي
في نشوة منها القلوب تراح	يتهافتون على الحطيم وزمزم
كادت تطير وما لهنّ جناح	وقلوبهم من بهجة خفاقة
وتبكت الإلحاد وهو لقاح	وتلجّ بالتوحيد من أعماقها
بالأرض والأخطار وهي جراح	تخشى من الأوزار وهي محيطة

وتطوفُ بالبيت الحرام مثابةً تـرجو النـجاة وللهدى تـمتاحُ
وكأنما الأنفاس منها جذوة من فرط ما عبثت بها الأتراحُ
نزلت بها الأحداث وهي كوارث شتى ومنها القهر والأقراحُ
الله أكبر ما تألق كوكبُ وانجـابَ ليل واستهلَّ صـباحُ
ولينعم الحجاج بالفوز الذي هو في المعاد ذخيرة ورباحُ
ولينصرنَّ الله كلَّ موحدٍ وله الهدى في العالمين سلاحُ

لبيك

حسين عرب

لبيك ياربَّ الحجيج، جموعه وفدت عليك
ترجو المثابة في حماك، وتبتغي الزلفى لديك
لبيك والآمال والإفضال، من نُعمى يديك
لبي لك العبد المطيع، وجاء مُبتهلاً إليك

هذي الجموعُ تدفقت منها المسالك والبطاحُ
قطعوا لك الغبراء، والدأماء، واجتازوا الرياحُ
متضرعين إليك، مُستهدين، يرجون السَّماحُ
لبيك في الليل البهيم، وفي الغدو وفي الرِّواحُ

هذا الصباح يضحُّ بالتهليل، يتبعه الدعاء
هذا السماء يضحُّ بالتكبير، يبعثه الرجاء
في الأرض تلبية تفيض بها القلوب إلى السماء
لبيك في حرِّ الهجير وفي الصباح وفي المساء

بَيْنَ الْمَضَارِبِ فِي الْبُطَاحِ ، وَفِي حِمَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ
عِنْدَ الْمَحْصَبِ أَوْ بِأَرْجَاءِ الْحِطِيمِ أَوْ الْمَقَامِ
مُهَاجٍ وَأَرْوَاحٍ تَطُوفُ بِهَا كَمَا طَافَ الْحَمَامُ
لَبَيْكَ تَسْأَلُكَ الْهَدَايَةَ وَالْعَنَايَةَ وَالسَّلَامَ

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ يَا حَامِيَ حِمَى الْبَيْتِ الْأَمِينِ
يَا مُسِيلَ الرَّحْمَاتِ ، تَغْسِلُ مِنْ خَطَايَا الْمَذْنِبِينَ
إِيَّاكَ نَعْبُدُ مُخْلِصِينَ ، وَمَا بَغَيْرُكَ نَسْتَعِينُ
لَبَيْكَ سَبَّحْنَا بِحَمْدِكَ ، فَاهْدِنَا نَهْجَ الْيَقِينِ

يَا كَاشِفَ الضُّرِّ صَفْحاً عَنْ جَرَائِمِنَا
لَقَدْ أَحْطَاطْتَ بِنَا يَا رَبُّ بِأَسَاءِ
نَشْكُو إِلَيْكَ خُطُوباً لَا تُطِيقُ لَهَا
حَمَلاً وَنَحْنُ بِهَا حَقّاً أَحْقَاءُ
زَلَزَلُ تَخْشَعُ الصُّمُّ الصَّلَابُ لَهَا
وَكَيْفَ تَقْوَى عَلَى الزَّلْزَالِ شَمَاءُ
أَقَامَ سَبْعاً يَرْجُ الْأَرْضُ فَاَنْصَدَتْ
عَنْ مَنْظَرٍ مِنْهُ عَيْنُ الشَّمْسِ عَشَوَاءُ
بَحْرٌ مِنَ النَّارِ تَجْرِي فَوْقَهُ سَفُنٌ
مِنْ الْهَضَابِ لَهَا فِي الْأَرْضِ إِرْسَاءُ
تَرْمِي لَهَا شَرِراً كَالْقَصْرِ طَائِشَةٌ
كَأَنَّهَا دَيْمَةٌ تَنْصَبُ هَطْلَاءُ

تنشق منها بيوت الصخر إن زفرت
 رُعباً وترعد مثل السَّعَفِ أضواء
 منها تكاثف في الجوِّ الدُّخانُ إلى
 أن عادت الشمسُ منه وهي دهماء
 قد أثرت سعةً في البدرِ لفحَّتها
 فليلة التَّمِّ بعد النور ليلاء
 تحدَّت النَّيَّرات السَّبعُ السُّنَّها
 بما تلاقى بها تحت الثرى الماء
 وقد أحاطَ لظاها بالبروج إلى
 أن كادَ يُلحقها بالأرض أهواء
 فيالها آيةً من معجزاتِ رسو
 ل الله يـعـقـلُها القـوم الألباء
 فباسمك الأعظم المكنون إن عظمت
 منّا الذنوبُ وساء القلبُ أسواء
 فاسمح وهب وتفضل بالرضى كرماً
 واصفح فكلُّ لفرطِ الجهلِ خطاء
 فقومُ يُونس لما آمنوا كشف الت
 —عذيب عنهم وعمَّ القومَ نعماء
 ونحنُ أُمَّةٌ هذا المصطفى ولنا
 منه إلى عفوك المرجو دعاء
 هذا الرسول الذي لولاه ما سلكت
 حجةً في سبيل الله بيضاء

فأرحم وصلِّ على المختارِ ما خطبتُ
على علا منبرِ الأوراقِ ورقاء

دار الحبيبِ أحقُّ أن تهواها
وتحنُّ من طربٍ إلى ذكراها
وعلى الجفونِ متى هممتْ بزورةٍ
يا ابن الكرامِ عليك أن تغشاها
فلأنت أنتِ إذا حلتَ بطيبةٍ
وظللتَ ترتعُ في ظلالِ رباها
مغنى الجمالِ مئى الخواطرِ والتي
سلبتْ عقولَ عاشقين حُلاها
لا تحسب المسكَ الزكيَّ كثربها
هيهات أين المسكُ من رباها!
طابتْ فإن تبغِ التطيبَ يا فتى
فأدم على الساعاتِ لثمَ ثراها
وابشِرْ ففي الخبرِ الصحيحِ مُقرَّراً
أنَّ الإلهَ بطابةٍ سَمَّاها
واختصَّها بالطيبينِ لطيبها
واختارها ودعا إلى سُكناها
لا كالمدينةِ منزلٌ وكفى لها
شرفاً حلولُ محمدٍ بفناها
حظيتْ بهجرةٍ خيرٍ من وطئِ الثرى
وأجلَّهم قدراً فكيفَ تراها

كُلُّ الْبِلَادِ إِذَا ذُكِرْنَ^(١) كَأَحْرَفٍ
 فِي اسْمِ الْمَدِينَةِ لَا خَلَتْ مَعْنَاهَا
 حَاشَا مُسَمَّى الْقُدْسِ فَهِيَ قَرِيبَةٌ
 مِنْهَا وَمَكَّةَ إِنَّهَا إِيَّاهَا
 لَا فَرَقَ^(٢) إِلَّا أَنَّ ثَمَّ لَطِيفَةً
 مَهْمَا بَدَتْ يَجْلُو الظَّلَامَ سَنَاهَا
 جَزَمَ الْجَمِيعُ بِأَنَّ خَيْرَ الْأَرْضِ مَا
 قَدْ حَاطَ ذَاتَ الْمُصْطَفَى وَحَوَاهَا
 وَنَعَمْ لَقَدْ صَدَقُوا بِسَاكِنِهَا عَلَتْ
 كَالنَّفْسِ حِينَ زَكَتْ زَكَاةً وَأَوَاهَا
 وَبِهَذِهِ ظَهَرَتْ مَزِيَّةٌ طَيِّبَةٌ
 فَغَدَتْ وَكُلُّ الْفَضْلِ فِي مَعْنَاهَا
 حَتَّى لَقَدْ خُصَّتْ بِرَوْضَةِ جَنَّةٍ
 اللَّهُ شَرَّفَهَا بِهَا وَحَبَّاهَا
 مَا بَيْنَ قَبْرِ النَّبِيِّ وَمَنْبَرٍ
 حَيَّا الْإِلَهَ رَسُولَهُ وَسَقَاهَا
 هَذَا مُحَاسِنُهَا فَهَلْ مِنْ عَاشِقٍ
 كَلِفٍ شَحِيحٍ بِاخِلٍ بَنَوَاهَا
 إِنِّي لِأَرْهَبُ مِنْ تَوَقُّعِ بَيْنِهَا
 فَيُظَلِّ قَلْبِي مَوْجَعًا أَوَّاهَا
 وَلَقَلَّمَا أَبْصَرْتُ حَالَ مَوْدِعٍ
 إِلَّا رَثْتُ نَفْسِي لَهُ وَشَجَّاهَا

فَلَكُمْ أَرَاكُم قَافِلِينَ جَمَاعَةً
 فِي إِثْرِ أُخْرَى طَالِبِينَ سِوَاهَا
 قَسَمًا لَقَدْ أَذَكِي فَوَادِي بَيْنَكُمْ
 نَارًا وَفَجَّرَ مُقَلَّتِي مِيَّاهَا
 إِنْ كَانَ يُعْجِزُكُمْ طِلَابُ فَضِيلَةٍ
 فَالْخَيْرُ أَجْمَعُهُ لَدَى مَثْوَاهَا
 أَوْ خِفْتُمْ ضَرَاءَهَا^(٣) فَتَأَمَّلُوا
 بَرَكَاتِ بُلْغَتِهَا فَمَا أَزْكَاهَا
 أَفَّ لِمَنْ يَبْغِي الْكَثِيرَ لَشَهْوَةٍ
 وَرَفَاهَةٍ لَمْ يَذَرِ مَا عَقْبَاهَا
 وَالْعِيشَ مَا يَكْفِي وَلَيْسَ هُوَ الَّذِي
 يُطْغِي النُّفُوسَ وَلَا خَسِيسَ مُنَاهَا
 يَارَبِّ أَسْأَلُ مِنْكَ فَضْلَ قَنَاعَةٍ
 بِسِيرِهَا وَتَحَبُّبًا لِجِمَاهَا
 وَرِضَاكَ عَنِّي دَائِمًا وَلِزُومَهَا
 حَتَّى تُوَافِيَ مُهْجَتِي أَخْرَاهَا
 فَإِنَّ الَّذِي أُعْطِيَ نَفْسِي سُؤْلَهَا
 وَقَبِلَتْ دَعْوَتَهَا فَيَا بُشْرَاهَا
 بِجَوَارِ أَوْفَى الْعَالَمِينَ بِذِمَّةٍ
 وَأَعَزِّ مَنْ بِالْقُرْبِ مِنْهُ يُبَاهِي
 مَنْ جَاءَ بِالْآيَاتِ وَالنُّورِ الَّذِي
 دَاوَى الْقُلُوبَ مِنَ الْعَمَى^(٤) فَشَفَاهَا

أُولَى الْأَنْامِ بِخُطَّةِ الشَّرَفِ الَّتِي
تُدْعَى الْوَسِيلَةَ خَيْرٌ مِنْ يُعْطَاهَا
إِنْسَانٌ عَيْنَ الْكَوْنِ سِرٌّ وَجُودِهِ^(٥)

«يس» إكسِيرُ الْمُحَامِدِ «طه»^(٦)
حَسْبِي فَلَسْتُ أَفِي بِذِكْرِ صِفَاتِهِ

وَلَوْ أَنَّ لِي عَدَدَ الْحَصَى أَفْوَاهَا^(٧)
كَثُرَتْ مُحَاسِنُهُ فَأَعْجَزَ حَصْرُهَا

وَعَدْتُ وَمَا نُقِلِي لَهَا أَشْبَاهَا
إِنِّي اهْتَدَيْتُ مِنَ الْكِتَابِ بِآيَةٍ

فَعَلِمْتُ أَنَّ عُلاَّهُ لَيْسَ يُضَاهِي
وَرَأَيْتُ فَضْلَ الْعَالَمِينَ مُحَدَّدًا

وَفَضَائِلُ الْمُخْتَارَةِ لَا تَنْتَاهِي
كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى تَقْصِيٍّ مَدْحٍ مَن

قَالَ الْإِلَهِ لَهُ - وَحَسْبُكَ جَاهَا -
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا﴾

- فَيَمَا يَقُولُ - ﴿يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾؟!
هَذَا الْفَخَارُ فَهَلْ سَمِعْتَ بِمِثْلِهِ

وَاهَا لِنَشْأَتِهِ الْكَرِيمَةِ وَاهَا!
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا؛ فَبِذَلِكَ

تَهْدِي النَفُوسَ لِرُشْدِهَا وَغِنَاهَا^(٨)
صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ غَيْرَ مُقَيَّدٍ

وَعَلَيْهِ مِنْ بَرَكَاتِهِ أَنْمَاهَا

وعلى الأكابرِ آلِهِ سُجِّ الْهُدَى
أَحِبِّ^(٩) بِعَتْرَتِهِ وَمَنْ وَالَاهَا
وكذا السَّلامُ عليه ثُمَّ عليهم
وعلى عَصَابَتِهِ الَّتِي زَكَّاهَا
أَعْنِي الْكِرَامَ أُولِي النَّهْيِ أَصْحَابَهُ
فِئَةُ التُّقَى وَمَنْ اهْتَدَى بِهَدَاهَا
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَرِيمِ وَهَذِهِ
نَجَزَتْ وَظَنِّي أَنَّهُ يَرْضَاهَا

الهوامش :

- (١) في الوفاء وسبل الهدى «ذكرت».
- (٢) في الوفاء «لا غرو».
- (٣) في الوفاء وسبل الهدى ضراً.
- (٤) قال محقق تحقيق النصرة: في نسخة (آ) والأصل: الأذى.
- (٥) أنظر مجموع الفتاوى (١١: ٩٤-٩٨).
- (٦) أنظر الرياض الأنيفة في شرح أسماء خير الخليقة ﷺ (٣٠، ٢٠٤، ٢٧٢) ودلائل النبوة للبيهقي (١: ١٥٨، ١٥٩) حيث ذكرهما ﷺ في أسمائه ﷺ، والإشارة للحافظ مغلطي، وقد حققته والحمد لله وحده، وانظر الدر المنثور أيضاً عند الآيتين، من سورة (طه، يس)، والله أعلم.
- (٧) في التحقيق «أفداها» ولعله من المطبعة.
- (٨) في التحقيق «وعناها» بالعين المهملة، ولعله من المطبعة أيضاً.
- (٩) في سبل الهدى، والفضائل «أكرم».

«أزواجه أمهاتهم» أم سلمة

حسن الحاج

إن الكتابة عن أم المؤمنين أم سلمة وحياتها المضيئة، كتابة عن أظهر بيت عرفته الدنيا، وأعظم مكان صنعته السماء وباركته.. وكيف لا يكون كذلك وقد رعته يد الغيب؛ ليكون مبعث الطهر كله ونبع الخير كله، ومصدر العطاء كله، ومشعلاً للهداية، ومدرسةً للخلق الكريم والأدب الرفيع وقدوةً ورحمةً للعالمين... لقد كان هذا البيت مأوى الرسالة ومهبط الوحي، ومنزل القرآن ومبعث النور، الذي حمله صاحب هذا البيت رسول الله ﷺ الذي وصفه الله تعالى في كتابه الكريم: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» فكان هذا الخلق يواكب البيت الأول للدين الجديد.. وصارت عفته محط إعجاب من حوله وصار القدوة لهم والاسوة المحسنة قربوا أم بعدوا عنه. ولما يتركه من آثار خطيرة - إذا ما عصفت حوله المغريات.. على مسيرة الرسالة والرسالين.. تولته السماء، وراحت تُرسل آياتها الكريمة مبينة أهمية هذا البيت ومرشدة نساءه إلى مكانتهن ودورهن الرسالي ووظيفتهن. وفي الوقت الذي ضاعفت السماء العذاب لمن تأتي منهن بفاحشة، جعلت الأجر مرتين

لعملهنّ الصالح؛ لخطورة تواجدهنّ في هذا البيت وأثمنّ القدوة، التي يجب أن تكون صالحة، والأسوة التي يجب أن تتحلّى بأرقى درجات الإيمان والخلق الكريم.. «يانساء النبيّ من يأت منكّن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين..» «ومن يقنت منكنّ لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتيها أجرها مرّتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً»^(١).

ثمّ راحت السماء تبين مكانتهنّ، وخطورتهنّ وتكاليفهنّ ما دامت قد ارتبطت حياتهنّ بهذا البيت الكريم نساءً لرسول الله ﷺ: «يانساء النبيّ لستنّ كأحد من النساء إن اتقينّ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً» وقرن في بيوتكنّ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله^(٢) وكان لابدّ لهذا الطهر ولتلك العفة من ستر فكان الحجاب «ياأيّها النبيّ قل لأزواجك.. يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ»^(٣). لقد كانت أمّ سلمة أوّل نساء هذا البيت - بعد أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد - رضوان الله عليها - وعياً لدورها الرسالي، كما كانت أكثر نساء النبي التزاماً بهذا كلّ وأسرعهنّ طاعة لله ورسوله، وعاشت حياتها الإيمانية ومسؤوليتها الرسالية ووظيفتها الشرعية على أكمل وجه حتّى وفّقت لأن تكون أفضل نساءه ﷺ وأصدقهنّ وأخلصهنّ في تحمّل أمانة هذا البيت الكريم ورسالته.. بعد أن قدر لها أن تكون من نساءه ﷺ، وعاشت في كنفه، وظلّت في بيته كأثقى نساءه وأفضلهنّ بعد خديجة رضوان الله عليها طهارةً وعفةً وإيماناً وجهاداً وعلماً.. فقد راحت تتغذى من علمه ﷺ وأدبه وسنته، وتستقي من مصدر الوحي الذي مافارق منزلها.. وبرزت أمّاً للمؤمنين بنصّ القرآن الكريم وهو وسام منحته السماء.. وحفظت أمّ سلمة ذلك ورعته ووعته مسؤوليّة كبرى، وراحت تكثر الشكر لله تعالى على هذه النعمة.. مما جعلها مثلاً أعلى في إيمانها وعبادتها وورعها.. فنالت بذلك حبّ الله تعالى وحبّ رسوله ﷺ وأهل بيته

الطيبين، والمؤمنين جميعاً على مرّ الأجيال.

لقد كانت أمّ سلمة ترى هذه الامومة تكليفاً عظيماً ومسؤولية كبيرة لها حقوقها وعليها واجبات كثيرة لا بدّ من رعايتها، فكانت بحقّ أمّاً للمؤمنين بجنانها وشفقتها ورعايتها لهم واهتمامها بهم وخوفها عليهم وحرصها لهم...

لقد كانت - وكما عودتنا في حياتها المباركة - المبادرة إلى كلّ ما يرضي الله تعالى ورسوله ولم تتناول عليه ﷺ أبداً طيلة حياتها معه، كما تناولت عليه بعض نساءه، وكان هذا سبباً لأذيته ﷺ، فحينما رأى رسول الله ﷺ أنّ بعض نساءه كنّ يخلقن له المتاعب، ومطالبتهنّ بالنفقة والزينة حتى ورد قول بعضهنّ له: لعلّك ترى أنّك إن طلقنا أن لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوجونا.. وهذا الموقف دفع رسول الله ﷺ إلى أن يعتزلهنّ تسعة وعشرين يوماً، فكان موقفهنّ هذا سبباً لنزول آية التخيير ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجَكُ إِن كُنْتُنَّ تَرْضَوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ امْتَعِنَ وَاسْرَحْنَ سَرَاحاً جَمِلاً﴾ وإن كنتنّ تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإنّ الله أعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً^(٤).

فبادرت هنا أمّ سلمة قائلة: قد اخترتُ الله ورسوله، فنالت بذلك سبق الاختيار هذا وفضله وأجره.. ثمّ قامت بعدها ببقية نساءه ﷺ، فعانقته وقلنّ مثل الذي قالت أمّ سلمة، ولم تتخلف عن هذا إلا واحدة وهي فاطمة بنت الضحّاك، فإنّها اختارت الدنيا، ففارقها رسول الله ﷺ وبقيت في شقاء طول حياتها^(٥).

في بيت كريم:

هند (وقيل رملة وهو ضعيف) بنت سهيل أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشية، وكان أبوها جواداً كريماً سخياً، عرف بذلك في الجاهلية ولقبته العرب بزاد الركب حين كان هذا اللقب لا يُطلق إلا على ثلاثة أو أربعة أشخاص، راحت الأمثال تضرب بمجودهم، وسارت بذلك الركبان، كان هو أحدهم. فإذا ما كان أحدهم في سفر فإنّ رفقاء سفره مهما كثروا يتحمّل عنهم

زادهم وطعامهم طيلة الرحلة التي جمعتهم، ويرفض أن يحمل رفاقؤه شيئاً من ذلك.

قال صاحب لسان العرب في مادة زود^(٦)..

وأزواد الركب من قريش أبو أمية بن المغيرة، والأسود بن المطلب بن أسد ابن عبد العزى، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية، وكانوا إذا سافروا، فخرج معهم الناس، فلم يتخذوا زاداً معهم، ولم يوقدوا، يكفونهم ويغنونهم. وهناك من يقول: إنهم أربعة، فأضاف زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد^(٧)

أمّا أمّها فهي عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن جذيمة أو خزيمة بن علقمة الكنانية من قبائل بني فراس الأشراف الأجداد. وعلقمة جدّها كان يلقب بجذل الطعان، وذكرته كتب التاريخ بأنه رجل كريم يعطي ولا يبخل، يجود ولا يمنع.

وهناك من يقول: إنّ أمّها هي عاتكة بنت عبد المطلب بن عبد مناف عمّة رسول الله ﷺ. وقال آخر: إنّها ليست بنت عاتكة هذه وإنّما هي بنت زوجها. وعلى فرض كونها بنتاً لعاتكة بنت عبد المطلب أو بنتاً لزوج عاتكة فهي أخت لكلّ من عبد الله وزهير ابني عمّة رسول الله ﷺ...

كما أنّها أخت لعمار بن ياسر الصحابي الجليل من الرضاعة، وكانت قد تزوجت أخاً لرسول الله ﷺ من الرضاعة أرضعتها ثوبية، مولاة أبي لهب وترباً له وابن عمته برّة بنت عبد المطلب، وأحد أشراف بني مخزوم رأياً وشجاعةً وكرماً وجوداً، من المسلمين الأوائل وممن هاجر الهجرتين وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان ذاك قبل أن يميّن الله تعالى عليها لتكون أمّاً للمؤمنين بنصّ القرآن الكريم، بعد أن تلطّف الله تعالى عليها لتكون زوجة لحبيبه رسول الله ﷺ.

وكانت - كما يقول الذهبي - من أجمل النساء، وأشر فهنّ نسباً.

قالت أم المؤمنين عائشة - عن جمال أم سلمة -: «لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة» حزنْتُ حزناً شديداً لما ذكر لنا من جمالها، فتلطفْتُ حتى رأيتها، فرأيتُ أضعاف ما وُصفت به».

إذن فكلٌّ من أصلها العريق ومنبتها الكريم أضفى على حياتها صفات عظيمة وخلقاً كريماً واكبها طيلة حياتها المباركة وميّزها عن غيرها من النساء.. يقول عنها أحمد خليل جمعة في موسوعته القيمة (نساء أهل البيت): لو ألقينا الأضواء على حياة أم سلمة قبيل الإسلام؛ لألقينا أنها امرأة ذات شرف وطهر في أهلها، وذات نسب مُعَرِّق في المعالي، ومنبت كريم حسيب في قومها بني مخزوم، ثم هي بعد ذلك كله، ابنة واحد من كرماء قريش، وأنداهم كفاً، وأجودهم عطاءً، فأبوها زاد الركب أحد الأجواد الذين سارت الأمثال والركبان بالحديث عن جودهم، فكانوا إذا سافروا، وخرج معهم الناس، لم يتخذوا زاداً معهم، ولم يوقدوا ناراً لهم، فيكفونهم ويغنونهم.

ولا ريب أن هند بنت أبي أمية، قد تأثرت بهذه البيئة الكريمة، التي عاشتها في مطلع فجر حياتها، وأرت مارأت من مكانة أبيها وكرامته وكرمه بين الناس، فلا عجب أن تكون هي الأخرى، ذات يد معطاء، ونفس صافية، تعرف مكانَ الرحمة، فتفجر البر في نفوس الناس تفجيراً^(٨).

إسلامها وهجرتها:

في بداية نور الإسلام ورغم عناد الوليد بن المغيرة، زعيم بني مخزوم، أسلمت أم سلمة وزوجها.. وبعد ما ثارت حفيظة مشركي مكة وعظم غيظهم واشتد أذاهم للمسلمين، هاجرت معه إلى الحبشة فكانا أول المهاجرين، فنالت بذلك وسام أولى المهاجرات.

يقول النووي في تهذيبه نقلاً عن ابن الأثير: أول مهاجرة من النساء أم سلمة^(٩). وما إن عادت وزوجها إلى مكة من الحبشة مكان هجرتها الأولى حتى

استعدا للهجرة مرة أخرى إلى المدينة بعد أن توفي أبو طالب عم رسول الله ﷺ وحاميه، فعادت بذلك قريش إلى اضطهاد المسلمين، فصدر أمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، فكان زوجها أبو سلمة أول المهاجرين حيث هاجر قبل بيعة العقبة بسنة، وقد حلت مصيبة مؤلمة بهذه الأسرة الكريمة.

تقول الرواية عن أم سلمة:

قالت: لما أجمع أبو سلمة على الخروج الأول إلى المدينة رحل لي بعيه، ثم حملني عليه وحمل معي ابني سلمة في حجري، ثم خرج يقود بي بعيه، فلما رآته رجال بني المغيرة.. قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرايت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد؟

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه، وغضب عند ذلك بنو عبد أسد، رهط أبي سلمة، قالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، فتجاذبوا ابني سلمة بينهم، حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو أسد، وحسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني. فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي، سنة أو قريباً منها، حتى مرّ بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمي، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون من هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها؟ فقالوا لي: ألحقي بزوجك إن شئت، وردّ بنو عبد الأسد عند ذلك ابني.

فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعتة في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وماعني أحد من خلق الله.. حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة [وكان مشركاً] أخا بني عبد الدار، فقال: إلى أين يا بنت أبي أمية؟

قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة.

قال: أو ما معك أحد؟

فقلت: لا والله إلا الله وابني هذا.

قال: والله مالك من مترك.

فأخذ خطام البعير، فانطلق يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، حتى أقدمني المدينة.

فلما نظر إلى قرية بني عامر بن عوف بقاء قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلاً - فأدخلها على بركة الله. ثم أنصرف راجعاً إلى مكة، وهنا كانت تقول أم سلمة: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة، وهناك رواية أخرى تحمل كلاماً آخر لها تقول فيه:

«فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أكرم منه، ولا أشرف منه، كان إذا بلغ منزلاً من المنازل ينيخ بعيري، ثم يستأخر عني، حتى إذا نزلت عن ظهره واستويت على الأرض، دنا اليه وحطّ عنه رحله، واقتاده إلى شجرة وقيده فيها... ثم يتنحى عني إلى شجرة أخرى فيستريح جوارها، فإذا حان الرواح، قام إلى بعيري، فإذا ركب، أخذ خطامه وقاده. (وقد أسلم في الحديبية وهاجر إلى المدينة، ثم شهد فتح مكة، وتسلم مفتاح الكعبة من رسول الله ﷺ). هذا عن هجرتها إلى المدينة.

أمّا عن هجرتها الأولى إلى الحبشة وكانت برفقة زوجها أبي سلمة، فقد تفرّدت روايتها عن تلك الهجرة بدقة وصفها لها وللدور العظيم الذي أدّاه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه. تقول رواية أم سلمة التي اتسمت بقوة بيانها وفصاحتها ودقة تصويرها لأحداثها حتى عدت روايتها للهجرة من أوثق مصادر الهجرة.

تقول روايتها:

لما ضاقت على النبي ﷺ مكة، وأوذى أصحابه، وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم

من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه.

فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنا على ديننا، ولم نخش ظملاً.

فلما رأت قريش أننا قد أصبنا داراً وأمناً، اجتمعوا على أن يبعثوا إليه فينا؛ ليخرجنا من بلاده، وليردنا عليهم. فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، فجمعوا له هدايا ولبطارقتة، فلم يدعوا منهم رجلاً إلا بعثوا له هدية على حدة، وقالوا لها: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا فيهم، ثم ادفعوا إليه هداياه، وإن استطعتم أن يردهم عليكم قبل أن يكلمهم فافعلوا.

أقول: كانت تخشى قريش أن ينطلق الحق من لسانهم ووقع الذي كانت تخشاه.

فقدما علينا، فلم يبق بطريق من بطارقتة إلا قدّموا إليه هديته، فكلّموه، فقالوا له: إنّنا قدّمنا على هذا الملك في سفهاء من سفهائنا، فارقوا أقوامهم في دينهم، ولم يدخلوا في دينكم، فبعثنا قومهم ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمناه فأشيروا عليه بأن يفعل، فقالوا: نفعل، ثم قدّموا إلى النجاشي هداياه، فكان من أحب ما يهدى إليه من مكّة الأدم. فلما أدخلوا عليه هداياه، فقالوا له: أيها الملك إن فتية منا سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجأوا إلى بلادك، فبعثنا إليك فيهم عشائرهم، آبائهم وأعمامهم وقومهم لتردهم عليهم، فهم أعلى بهم^(١٠) عينا.

فقال بطارقتة: صدقوا أيها الملك، لو رددتهم عليهم وكانوا هم أعلى بهم، فإنهم لم يدخلوا في دينك فيمنعهم أملك. فغضب، ثم قال: لا، لعمر الله، لا أردّهم

عليهم حتى أدعوهم وأكلمهم وأنظر ما أمرهم، قوم لجأوا إلى بلادي، واختاروا جوارى على جوار غيري، فإن كانوا كما تقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم، ولم أدخل بينهم وبينهم، ولم أنعمهم عينا فأرسل إليهم النجاشي فجمعهم - ولم يكن شيء أبغض إلى عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة من أن يسمع كلامهم - فلما جاءهم رسول النجاشي اجتمع القوم فقال: ماذا تقولون؟ فقالوا: ماذا نقول؟! نقول والله ما نعرف وما نحن عليه من أمر ديننا، وما جاء به نبينا ﷺ كائن من ذلك ما كان، فلما دخلوا عليه كان الذي يكلمه منهم جعفر بن أبي طالب، فقال له النجاشي:

ما هذا الدين الذي أنتم عليه؟ فارقتم دين قومكم، ولم تدخلوا في يهودية ولا نصرانية، فما هذا الدين؟

.. أيها الملك كُنتَ قوماً على الشرك، نعبد الأوثان، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم.. وغيرها، لا نحل شيئاً ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقته وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلي الله تعالى، ونصوم له، ولا نعبد غيره، فقال: هل معك شيء مما جاء به؟ وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله، فقال له جعفر: نعم، فقال: هلم فأتل علي ما جاء به. فقرأ عليه صدراً من «كهيعص» فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوها مصاحفهم. ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى؛ انطلقوا راشدين، لا، والله لا أردهم عليهم، ولا أنعمكم عينا، فخرجنا من عنده، وكان أتقى الرجلين فينا عبدالله بن أبي ربيعة، فقال عمرو بن العاص: والله لأثنيته غداً بما أستأصل به خضراءهم^(١١). فلا خبرنه أنهم يزعمون أن إلهه الذي يعبد عيسى بن مريم عبد.

فقال له عبدالله بن أبي ربيعة: لا تفعل.. فإنهم إن كانوا خالفونا فإن لهم رحماً

ولهم حقاً، فقال: والله لأفعلن، فلما كان الغد دخل عليه، فقال: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عنه، فبعث إليهم، ولم ينزل بنا مثلها. فقال بعضنا لبعض: ماذا تقولون له في عيسى إن هو سألكم عنه؟ فقالوا: نقول والله الذي قاله الله تعالى، والذي أمرنا به نبينا ﷺ أن نقول فيه: فدخلوا عليه وعنده بطارقتة، فقال: ما تقولون في عيسى بن مريم؟ نقول: هو عبدُ الله ورسوله وكلمتهُ وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فدلّ النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ عوداً بين أصبعيه، فقال: ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العويد^(١٢)، فتناخرت بطارقتة، فقال: وإن تناخرتم والله، إذهبوا، فأنتم شيوم في أرضي - والشيوم: الآمنون - مَنْ سَبَّكُمْ غرم، ثمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غرم، ثمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غرم، فأنا ما أحب أن لي دبراً وأني آذيتُ رجلاً منكم - والدبر بلسانهم: الذهب - فوالله ما أخذ الله تعالى مني الرشوة حين ردّ علي ملكي فأخذ الرشوة منه، ولا أطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه، ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة إليهما، وأخرجنا من بلادي. فرجعا مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به. فأقننا مع خير جار، وفي خير دار.

فلم ينشب أن خرج عليه رجل من الحبشة ينازعه في ملكه، فوالله ما علمنا حزناً حزناً قط كان أشدّ منه فرقاً من أن يظهر ذلك الملك عليه، فيأتي ملك لا يعرف من حقنا ما كان يعرفه، فجعلنا ندعو الله ونستنصره للنجاشي، فخرج إليه سائراً... فهزم الله ذلك الملك وقتله، وظهر النجاشي عليه... فوالله ما علمنا فرحنا بشيء قط فرحنا بظهور النجاشي، ثمَّ أقننا عنده حتى خرج من خرج منا راجعاً إلى مكة، وأقام من أقام...^(١٣)

وأخيراً عادت أم سلمة وزوجها ومعهما أولادهما (زينب وسلمة وعمر ودرة) الذين ولدوا هناك - على قول - في دار هجرتها الحبشة، عادوا جميعاً إلى مكة، وكانت عودة المهاجرين إلى مكة إمّا خفاءً أو بجوار أحد من وجوه مكة بعد

أن وردتهم أخبار بأن أهل مكة قد أعلنوا إسلامهم وآمنوا برسالة محمد ﷺ، فلما وصلوا مكة عرفوا أن لا صحة لما سمعوا، فدخلوها متخفين أو لائذين بوجه من وجوه أهل مكة، فدخلت أم سلمة وزوجها في جوار أبي طالب بن عبدالمطلب وهو خاله.

وهناك من يقول: إنها وزوجها هاجرت هجرتين إلى الحبشة: الأولى في رجب سنة خمس من المبعث، والثانية بعدها بعدة شهور بعد أن رجع المسلمون المهاجرون ظانين إسلام قريش، فاشتد أذى قريش لهم، فأذن لهم الرسول ﷺ بالهجرة مرة ثانية. (١٤)

رحيل «أبو سلمة»

كان صحابياً مجاهداً هاجر الهجرتين، وشهد بدرًا وقد أبلى فيها بلاءً حسناً، وبعدها شهد أحداً فلم يقل بلاؤه فيها عن بدر، حتى ثخن بالجراح، فشفي منها إلا جرح كان غائراً في عضده اندمل ظاهره دون باطنه، ومع هذا فقد استعمله رسول الله ﷺ على المدينة مرة، ومرة أخرى قاد بأمر رسول الله ﷺ سرية، ومعه مائة وخمسون رجلاً إلى قطن وهو جبل لبني أسد في نجد. نترك ابنه عمر يشرح لنا كل ذلك حيث قال: خرج أبي إلى أحد فرماه أبو سلمة الجشمي في عضده بسهم فمكث شهراً يداوى من جرحه ثم برئ الجرح. وبعث رسول الله ﷺ أبي إلى قطن (وهي جبل من أرض بني أسد ناحية فيد وفي الطبقات: بُيِّد^(١٥)). في المحرم، على رأس خمسة وثلاثين شهراً، فغاب تسعاً وعشرين ليلة ثم رجع. فدخل المدينة لثمان خلون من صفر سنة أربع. والجرح منتقض، فمات منه لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة أربع من الهجرة. (١٦)

لقد كان الهدف من غزوة أبي سلمة هو منع بني أسد من الهجوم على المسلمين في المدينة بعد أن بلغه - أي بلغ رسول الله - أن قائدي بني أسد يحرضان قومهما لغزو المدينة ونهب أموال المسلمين فيها. (١٧) فكان لحملة دور كبير في إعادة ما خسره

المسلمون في أحد من معنويات بعد أن نالت النصر على أعدائهم..
وراح هذا الصحابي الجليل يواصل جهاده في الوقت الذي لم يندمل جرحه
الذي راح هو الآخر يتسع، مما دفع أبو سلمة إلى أن يلازم فراشه.
مما أنعم به الله تعالى على هذا المجاهد أن يكون رسول الله ﷺ وهو أخوه من
الرضاعة وابن عمته وحيبيه حاضراً لحظات حياته الأخيرة يودعه ويسبل يديه
ويغلق عينيه ويدعو له :

«اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المقربين..»

ثم صلى عليه. ويروى أن الرسول ﷺ كبر في هذه الصلاة تسع تكبيرات،
ولما انتهى من الصلاة سأل أصحابه عن ذلك فقال: لو كبرت على أبي سلمة ألفاً
لكان أهلاً لذلك.

الزواج المبارك:

رحل عنها أبو سلمة، وتركها ذات عيال، أربعة أولاد: سلمة وقد وُلِدَ
بالحبشة، وعمر ودرة (رقية) وبيرة وقد غير اسمها رسول الله ﷺ إلى زينب، قائلاً:
لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منك (منكم)، سموها زينب.
وقد كبر سنّها، وراحت - مع كلّ آلامها على زوجها، الذي ماجفت دموعها
لفقده، فقد كانت تحبّه حبّاً عظيماً - ترعى صغارها، وتتذكر ما كان يوصيها به أبو
سلمة في مرضه الذي توفي فيه، عبر حوارٍ دار بين الاثنين أحدهما كان مسجّى
والآخر يذرف دموعه بألم وحرقة ومرارة.

قالت أم سلمة: بلغني أنه ليس امرأة يموت زوجها وهو من أهل الجنة، ثم لم
تتزوج بعده إلا جمع الله بينهما في الجنة، وكذلك إذا ماتت المرأة وبقي الرجل بعدها.
فتعال اعاهدك على ألا تتزوج بعدي، ولا أتزوج بعدك.

قال أبو سلمة: أطيعيني؟

قلت: ما استأمرتك إلا وأنا أريد أن أطيعك.

قال: فإن متُّ فتزوجي بعدي، ثم قال: اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلاً خيراً مني لا يُحزنها ولا يؤذيها^(١٨).

وإني لأذكر ما كان يقوله أبو سلمة ويدعو به وهو ما تعلمه من رسول الله ﷺ: إذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك أحسب مصيبي، فأجرني فيها، وأبدلني بها ما هو خير منها.

وتقول أم سلمة: لما احتضر أبو سلمة قال: اللهم اخلفني في أهلي بخير. فلما قبض قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أحسب عندك مصيبي. وأردت أن أقول (وهنا توقفت أم سلمة قليلاً قبل أن تقول): وأبدلني بها خيراً منها، فقلت: ومن خير من أبي سلمة؟!

وفي رواية أمها قالت: من هذا الفتى الذي هو خير من أبي سلمة؟ وفي أخرى قالت: أي المسلمين خير من أبي سلمة، أول بيت هاجر إلى رسول الله؟! قالت: فما زلتُ حتى قلتها^(١٩).

وهي في هذا الحال - وبعد أن انتهت عدتها - تقدّم لخطبتها بعض كبار الصحابة: أبو بكر، فلم توافق عليه، وجاءها خاطباً عمر بن الخطاب وهو من أرحامها، يلتقي نسبه ونسبها في كعب، فعمر بن نفيل بن عبد العزى... بن عدي ابن كعب. وأمّا أم سلمة فهي بنت أبي أمية... بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب. في حين وجدتُ أن موسوعة أمّهات المؤمنين قد ذكرت أن في زاد المعاد في ج ١ ص ٤١ أن أم سلمة خالة عمر بن الخطاب، فأُمّه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة، وأمّ سلمة بنت سهيل بن المغيرة.

أقول: إنها هنا - وبحسب ما ذكره - ابنت عمّ أمّه وليست خالته، ولهذا تقدّم لخطبتها^(٢٠) فردّته بقوة.

أرسل لها رسول الله ﷺ من يبلغها برغبته في الزواج منها.
تقول: أرسل لي رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخاطبني له.

فقلتُ: مرحباً برسول الله وبرسوله. أخبر رسول الله أني في خلال، لا ينبغي لي أن أتزوج رسول الله. وراحت بكل أدب وحياء وعفة تبين له هذه الصفات. وهي: أني امرأة مُصيبة. أي ذات أولاد. وأنني غيرى. وأنه ليس أحد من أوليائي شاهداً. وأنا امرأة قد دخلت في السن...

فبعث لها رسول الله ﷺ: أمّا قولك: إني مُصيبة، فإن الله سيكفيك صبيانك. وأمّا قولك: إني غيرى، فسأدعو الله أن يذهب عنك غيرتك. وأمّا الأولياء، فليس أحد منهم، شاهد أو غائب، إلا سيرضاني^(٢١). وأمّا ما ذكرت من السن، فقد أصابني مثل الذي أصابك.

فتزوجها رسول الله ﷺ في السنة الرابعة وقيل الثالثة في العشر الأواخر من شهر شوال، وقد زوجه إياها سلمة بن أبي سلمة ابنها، وأصدقها رسول الله ﷺ فراشاً حشوه ليف، وخدماً وصحفَةً ومِحْشَةً^(٢٢).

وبذلك صارت أم سلمة زوجة لرسول الله ﷺ، وولجت بيته المبارك، وكانت غرفتها غرفة أم المؤمنين زينب بنت خزيمة، التي توفيت في أول العام الرابع للهجرة، وهي أول من توفي من نساء اللاتي كنّ عنده بعد أم المؤمنين خديجة. وفي أول يوم زواجها أخذت أم سلمة تتفحص حجرتها؛ لتعرف ما بها، قالت: ... فإذا جرة فاطلعت فيها، فإذا فيها شيء من شعير، وإذا برحى، وبرمة، وقدر، فنظرت فإذا فيها كعب من إهالة، فأخذت ذلك الشعير وطحنته، ثم عصدته في البرمة، وأخذت الكعب من الإهالة فأدمت به، فكان ذلك طعام رسول الله، وطعام أهله ليلة عرسه^(٢٣). وكانت المكافأة التي قدمها رسول الله ﷺ لسلمة على ما قدمه هذا الأخير في زواج أمه من رسول الله ﷺ أن زوجه رسول الله ﷺ أمامة بنت حمزة سيد الشهداء، وأقبل ﷺ على أصحابه قائلاً: ترون كافأته؟

حبّها للجهاد:

لم يكلف الإسلام المرأة بالقتال وجنّبها إياه، وإن تحمّلت أعباءه وآثاره، فقد

كانت المرأة المسلمة تبادر إلى الخطوط الخلفية للمعارك وحتى الأمامية أحياناً، لتضميد الجرحى ومداواتهم وتجهيز المقاتلين بما يحتاجون إليه من ماءٍ وطعامٍ وعدةٍ وسداد.

وأمُّ المؤمنين أمُّ سلمة كانت واحدة من اللواتي قن بدورهنّ هذا، ونالت شرف الجهاد والمجاهدين بعد أن صحبت رسول الله ﷺ في غزواته ومعاركه في غزوة المريسيع وفي فتح خيبر وفي حصاره للطائف وغزوة هوازن وثقيف، كما أنّها رافقته في رحلته الأولى إلى مكة حيث تمّ صلح الحديبية.

طالما تمنّت هذه المرأة مع غيرها من المؤمنات أن يكلفهنّ الله سبحانه وتعالى بالجهاد إلى جنب إخوانهنّ من المؤمنين طمعاً في أجره العظيم وثوابه الجزيل وشرفه الكبير في الدنيا والآخرة فقلن:

(ليت الله كتب علينا الجهاد، كما كتب على الرجال، فيكون لنا من الأجر مثل ما لهم).

فكان قولهنّ هذا وامنيتهنّ سبباً في نزول الآية الكريمة: ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ (٢٤).

منزلها مهبط الوحي:

كانت حجرتها مهبط الوحي، فقد ورد أن من مكارمها أنها رأت جبرئيل عليه السلام وهو في صورة دحية الكلبي، فقد ورد عن الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضوان الله عليه حيث قال: أنبئت أنّ جبرئيل عليه السلام أتى النبي ﷺ وهو عند أمّ سلمة، فجعل يتحدث، ثمّ قام، فقال النبي ﷺ لأمّ سلمة: ومن هذا؟ قالت: هذا دحية الكلبي.

قالت: والله ما حسبته إلاّ إياه. (٢٥)

ومن مكارمها أيضاً نزول آية التطهير ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ في بيتها. فبعد أن جمع رسول الله كلاً من علي

وفاطمة والحسن والحسين وضمّهم تحت كساء واحد، نزل جبرئيل بهذه الآية المباركة عليهم.. تنظر أم سلمة إلى مقام به رسول الله ﷺ من جمعهم وضمّهم تحت كساء واحد.. ولأنها على قدر كبير من المعرفة والمنزلة، ولأنها السبابة إلى كل خير وإلى كل ما ينفعها في آخرتها ودنياها أيضاً، ولأنها تعرف منزلة المجتمعين، راحت تتمنى بل طلبت الانضمام اليهم بقوة وأن تكون معهم؛ لتنال بذلك ممّا أعدّه تعالى لهؤلاء الصفوة من خير وبركة..

وكيف لا تتمنى أن تكون معهم وهي تسمع رسول الله ﷺ ودعائه: اللهم هؤلاء أهل بيتي، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. فتبادر إلى ذلك قائلة:

فأنا منهم يا نبي الله؟!

ويأتيها الجواب من رسول الله ﷺ:

«أنتِ على مكانك، وأنتِ على خير» أي أنّ مكانك محفوظ أمّا للمؤمنين، وموقفك يتسم بالخير والصحة، ولكنك لست من أهل بيتي الذين خصّهم الله تعالى بخصائص، وتفرّدوا بصفات اختارها الله لهم دون غيرهم، وميّزهم بها على جميع خلقه..

وكان لأم سلمة شرف رواية هذا كله حيث قالت: «دعا رسول الله حسناً وحسيناً، وفاطمة، فأجلسهم بين يديه ودعا علياً فأجلسه خلفه، فتجلّج هو وهم بالكساء، ثمّ قال: «هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» (٢٦).

فعن عطاء بن أبي رباح عن أم سلمة: أنّ النبي ﷺ كان في بيتها، فأتته فاطمة ببرمة فيها جزيرة، فدخلت بها عليه، فقال ﷺ لها: ادعي زوجك وابنيك.. إلى أن قالت: فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً»... ثمّ قالت: فأخذ فضل الكساء، فغشاهم به، ثمّ أخرج

يده، فألوى بها إلى السماء، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».

قالت أم سلمة: فأدخلت رأسي البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ قال ﷺ: «إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ، إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ».

تحدثت رواية أخرى عن أنها من أهل البيت بنص رسول الله ﷺ، وهي ما كانت تسعى إليه طيلة عمرها المديد: حدثوا أنه كان يوماً عندها وابنتها زينب هناك، فجاءته الزهراء مع ولديها الحسن والحسين رضي الله عنهما، فضمتهما إليه، ثم قال: «رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميدٌ مجيدٌ».

فبكت أم سلمة فنظر إليها رسول الله ﷺ وسألها في حنو: ما يبكيك؟

أجابت: يا رسول الله خصصتهم، وتركتني وابنتي.

قال: إِنَّكَ وابنتك من أهل البيت (٣٧).

ومن حبها لأهل البيت: أن جعلت ابنها عمر بن أبي سلمة في جيش علي رضي الله عنه، ولها مواقف أخرى سنأتي على ذكر بعضها.

أبو لبابة الأنصاري:

«إن نزلتم على حكمه (حكم رسول الله ﷺ) فهو الذبح».

هذا ما قاله أبو لبابة الأنصاري لزعماء يهود بني قريظة. فقد غزاهم رسول الله ﷺ في السنة الخامسة للهجرة وحاصره حتى جاهدتهم الحصار. قذف الله في قلوبهم الرعب، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يرسل إليهم صاحبه «أبا لبابة ابن عبد المنذر الأنصاري؛ ليستشروه في أمرهم. فأرسله إليهم، فلما رآوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرّق لهم.

وسألوه: يا أبا لبابة، أترى أن نزل على حكم محمد؟

فأجاب: نعم، إنه الذبح، وأشار بيده إلى حلقه.

فما زالت قدماء من مكانها حتى عرف أنه خان الله ورسوله. وانطلق على

وجهه، فربط نفسه إلى عمود من عمد المسجد، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت...

ولما بلغ رسول الله ﷺ خبره، وكان قد استبطأه، قال: أما أنه لو جاءني لاستغفرت له. فأما إذ فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

أو أن الانصاري المذكور كان واحداً من جماعة تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك على رواية ثانية.. وكلُّ منهما - لا شك - ذنب كبير وخطير. أو ثَق - لأحد السببين المذكورين - نفسه بسارية المسجد النبوي معترفاً بما جنته نفسه، وبقي هكذا ست ليال، كانت تأتية امرأته في كلّ صلاة فتحمله للصلاة، ثمّ يعود فيرتبط بالجذع رافضاً أن يُطلقه غير رسول الله ﷺ.. وقد رفض هو الآخر إطلاقه حتى يأتيه أمر الله تعالى به، وكان رسول الله ﷺ منتظراً لذلك.

وشاءت السماء أن يكون منزل أم سلمة مهبطاً للوحي يحمل الآية الكريمة: ﴿... وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً...﴾ (٢٨).

تقول أم سلمة: سمعتُ رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك.

قالت: قلتُ: ممّ تضحك يا رسول الله ﷺ، أضحك الله سنك؟

قال: تيب على أبي لبابة.

قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟

قال: بلى، إن شئت.

فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب عليهنّ الحجاب.

فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك.

قالت: فثار الناس إليه ليطلقوه.

فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده..

فلما مرّ عليه رسول الله ﷺ - بعد نزول الآية - خارجاً إلى الصلاة، أطلقه (٢٩).

ومن بيتها أيضاً انطلقت توبة السماء على الثلاثة (كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع) الذين تخلفوا من الصحابة عن غزوة تبوك.

يقول واحد منهم وهو كعب بن مالك مبيناً دور أم سلمة وإحسانها اليه:
... ونهى النبي ﷺ عن كلامي وكلام صاحبي، ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا، فاجتنب الناس كلامنا، فلبث كذلك حتى طال عليّ الأمر، وما من شيء أهم إليّ من أن أموت فلا يصلي عليّ النبي ﷺ، أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمني أحد منهم، ولا يصلي عليّ، وفي رواية: أن رسول الله ﷺ قال: اقسم بالله، لا أطلقهم حتى أوامر بإطلاقهم، ولا أعذرهم حتى يكون هو يعذرهم، فانزل الله توبتنا على نبيه ﷺ حين بقي الثلث الآخر من الليل، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة، وكانت أم سلمة محسنة في شأني، معنية في أمري. فقال رسول الله ﷺ: «يا أم سلمة تيب على كعب».

قالت: أفلا أرسل اليه فأبشره؟

قال: «إذا يحطمكم الناس (يدوسونكم ويزدحمون عليكم) فيمنعونكم النوم سائر الليلة، حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر، آذن بتوبة الله علينا..» (٣٠)

الرشيدة الشفيعة الحازمة

ذكرت مصادر التاريخ دورها الرشيد في السنة السادسة للهجرة، وقد صحبت الرسول ﷺ وهو يريد مكة للعمرة فصدته قريش ومنعته والمسلمين من دخول مكة. وبعد أن تمت كتابة شروط صلح الحديبية.. واضطربت الأمور بين المسلمين، وكان الأمر ينذر بخطر جسيم بينهم..

تقول الرواية:... أمر النبي أصحابه أن يقوموا فينحروا ثم يحلقوا.. فما قام منهم رجل، فقال ذلك ثلاث مرات، ومامنهم من يستجيب.

فدخل على زوجه أم سلمة التي كانت معه يومذاك، فاضطجع، فقالت: مالك يا رسول الله؟

فذكر لها مآلتي من الناس، وأنه أمرهم بالحلق والنحر مراراً فلم يجيبوه، وهم يسمعون كلامه، وينظرون إلى وجهه الشريف .

قالت أم سلمة: التمس لهم العذر يا رسول الله . إنهم يرون الكعبة ويرون ديارهم، ثم يُحَرِّمون من دخول مكة ..

ثم قالت: يا نبي الله أتحب ذلك؟

أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمةً واحدةً حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك .. فإن ذلك سيقطع أمهم ..

فقام فخرج فلم يكلم أحداً حتى فعل ذلك، ونحر بدنته، ودعا حالقه ..

فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً^(٣١).

كما كانت شفيعة للمؤمنين وهذا جزء من مسؤوليتها كأم لهم، فقد شفعت لأخيها عند رسول الله ﷺ، حيث قالت للنبي ﷺ وهي تغسل رأسه: كيف ينفعني عيش وأنت عاتب على أخي؟

فأرأت من النبي ﷺ رقة، فأومأت إلى خادمها، فدعت أخاها، فلم يزل بالنبي ﷺ يذكر عذره حتى رضي الله عنه...^(٣٢)

وشفعت لأبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وعبدالله بن أمية بن المغيرة وقد كانا من الذين يؤذونه ﷺ.

وقد كلمته أم سلمة فيهما ورجت أن يصفح عن زلتهما فيما مضى، فقالت: يا رسول الله لا يكن ابن عمك، وابن عمتك وصهرك أشقى الناس بك. قال ﷺ: لا حاجة لي بهما. أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي فهو الذي قال لي بمكة ما قال.

قال أبو سفيان بن الحارث - لما سمع بذلك -: والله لتأذن لي، أو لآخذن بيد نبيّ هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً.

فلما سمع الرسول ﷺ بذلك رقّ لهما، فدخلوا وأسلما. وسرت بذلك أم سلمة.

أما حزمها وقوة شخصيتها، فقد ظهرت بوضوح في مواقفها الحكيمة القوية من عائشة وحفصة وفي موقفها من قريبها عمر بن الخطاب، تقول بنت الشاطئ: وبدا واضحاً أنّ أم سلمة تعرف لنفسها قدرها، وتأبى على عائشة أو سواها المساس بكرامتها، وقد أعزّها مجدُّ عتيق موروث وآخر حديث مكتسب، وكذلك أبت على «عمر» أن يتكلم في مراجعة امهات المؤمنين لزوجهن الرسول ﷺ، وقالت له منكرةً: عجباً يا ابن الخطاب، قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله وأزواجه.

قال عمر: فأخذتني أخذاً كسرني به عن بعض ما كنت أجده. (٣٣)

الفتنة:

«استحي أن ألقى محمداً ﷺ هاتكةً حجاباً قد ضربه علي».

هذا جزء من كلمة طويلة قالتها لعائشة حينما هبت هذه الأخيرة تقارع الإمام علياً عليه السلام وتقف بجانب طلحة والزبير تحرض الناس ضد الإمام من على ناقتها، فكان دورها خطيراً جداً فيما وقع من فتنة بين المؤمنين، وفيما وقع من بغي على الإمام عليه السلام في معركة الجمل في البصرة.

قالت لعائشة كلمات تتصف بالقوة والشدة: أي خروج هذا الذي تخرجين؟!

نصّ كلمتها لعائشة حينما جاءتها هذه الأخيرة؛ لتخادعها على الخروج للطلب بدم عثمان، وقد قالت عائشة لها: يابنت أبي أمية، أنت أول مهاجرة من أزواج رسول الله ﷺ وأنت كبيرة أمهات المؤمنين، وكان رسول الله ﷺ يقسم لنا من بيتك، أو كان يشير إلى بيتك عندما يؤتى بالهدايا، ومن بيتك يبعث إلينا بسهامك (بسهما منا)، وكان جبرئيل أكثر ما يكون في منزلك..

فقالت أم سلمة: لأمر ما قلت هذه المقالة!

ثم لما سمعت برغبتها أو مسيرها مع كل من طلحة والزبير؛ لشنّ حربهم ضد الإمام عليّ كتبت تقول: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد فقد هتكت سُدةً بين رسول الله ﷺ وأُمَّته، وحجاباً مضروباً عليَّ حرمة، قد جمع القرآن ذبولك فلا تسحبها، وسكّر خفارتك فلا تبذلها، والله من وراء الأُمَّة. لو علم رسول الله ﷺ أنَّ النساء يحتملن الجهاد عهد إليك، أما علمت أنَّه قد نهاك عن الفراط في الدين؟ فإنَّ عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال، ولا يرأب بهنَّ إن صدع. جهاد النساء غصَّ الأطراف وضَمَّ الذبول وقصر المادة. ما كنت قائلة لرسول الله ﷺ لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصبة قلوبك قعوداً من منهل إلى منهل؟ وغداً ترددين على رسول الله ﷺ. وأقسم لو قيل لي: يا أُمّ سلمة أدخلي الجنة؛ لاستحييت أن ألقى رسول الله ﷺ هاتكةً حجاباً ضربه عليّ، فاجعليه سترك، وقاعة البيت حصنك فإنَّك أنصح لهذه الأُمَّة ما قعدت عن نصرتهم، ولو أني حدثتك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لنهشت نهش الرقشاء المطرقة، والسلام (٣٤). وهناك رواية لكلمتها هذه تختلف عنها قليلاً. ثم راحت أُمّ سلمة تعلن تأييدها للإمام علي ﷺ. تقول عنها بنت الشاطئ: ثم حاولت من بعده ﷺ أن تتجنب الخوض في الحياة العامة.. إلى أن كانت الفتنة الكبرى، فاندفعت تؤازر الإمام عليّاً، ابن عمّ الرسول، وزوج ابنته الزهراء، وأبا الحسن والحسين.

وودت لو تخرج فتنصره، لكنها كرهت أن تبثلي وهي أُمّ المؤمنين بمثل ذاك الخروج، فجاءت «عليّاً» كرم الله وجهه، وقدمت إليه ابنها «عمر» قائلة: يا أمير المؤمنين، لولا أن أعصي الله عزّ وجلّ، وأتّك لا تقبله مني؛ لخرجت معك. وهذا ابني عمر، والله هو أعزّ عليّ من نفسي، يخرج معك فيشهد مشاهدك. وفعلاً شهد عمر مشاهد الإمام ﷺ ومنها معركة الجمل. واستعمله على فارس وعلى البحرين.

ومما يدلُّ على حبّها لآل الرسول ﷺ وخاصة للإمام علي ﷺ ودفاعها عنه ﷺ ما كتبه إلى معاوية مستنكرة ما كتبه إلى عمّاله أن يلعنوا عليّاً على المنابر،

ففعّلوا، فكان ما كتبته رضوان الله عليها: إنكم تلعنون الله ورسوله على منابرکم، وذلك أنكم تلعنون علي بن أبي طالب، ومن أحبه، وأنا أشهد الله أن الله أحبه، ورسوله.. لكن معاوية لم يلتفت إلى كلامها^(٣٥).

وكيف لا يكون حبها لآل البيت عظيمًا ثابتًا وقد رافقت رسول الله ﷺ في حياته ومسؤولياته ووعت كل ما سمعته عنهم، خاصة وهو يلي آخر خطبة له في حجة الوداع... من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله..

استوقفتها هذه الكلمات كثيراً، وراحت تتأمل ما تحمله كلماته ﷺ هذه وغيرها بوعي وأناة حتى دخلت قلبها ومشاعرها، فثبت ولاؤها لأهل البيت. وانطلقت تقول كلمة الحق وتكشف الظلم وتشجب كل فرقة، وتقيم دعائم الوحدة بين المسلمين على أساس حبها لله تعالى ولمحمد وآله ﷺ.

علمها وروايتها:

كانت جليلة القدر، جزيلة الرأي، ملتزمة، تقية، عارفة بالقرآن الكريم وأحكامه، راوية للسنة الشريفة، شارحة لأحكامها، مبينة لها، طالما اجتمع حولها النساء يستمعن لها ويتعلمن منها وينقلن عنها، ويستترشدن بأرائها ويتحاكمن إليها كما تفعل بعض نساء النبي ﷺ وقد انتفع الرجال بعلمها وروايتها ونصائحها وآرائها حتى عدت مصدراً من مصادر التفسير والفقه والرواية والتأريخ والسيرة النبوية..

وقد بلغ عدد ما روته من الأحاديث ثلاثمائة وثمانية وسبعين حديثاً. يقول أحمد خليل جمعة عنها: وأُم سلمة رضي الله عنها قد وعت الحديث الشريف، وتفقهت بأمور الدين والشريعة الغراء، حتى كانت تعد من فقهاء الصحابييات، ومن يرجع إليها في بعض الأمور والأحكام والفتاوى، وخصوصاً فيما يخص فقه المرأة المسلمة، وفيما يتعلق ببعض أحكام الرضاع، أو الطلاق، أو

ماشابه ذلك . وقد ورد أن سيدنا عبد الله بن عباس كان يُرسل ، فيسأله عن بعض الأحكام .

كما كانت تعد من جملة من يُرجع إليهم بالفتيا من الصحابة، وقد روى عنها كل من عبد الله بن عباس ، وأبو سعيد الخدري وابنها عمر بن أبي سلمة ، ومن النساء عائشة ، وابنتها زينب بنت أبي سلمة . ومن التابعين؛ سعيد بن المسيب ، والشعبي ، ومجاهد ، وعطاء بن أبي رباح ، وسليمان بن يسار ، وعروة بن الزبير ، وآخرون . ومن النساء طيرة أم الحسن البصري ، وهند بنت الحارث الفراسية ، وصفية بنت شيبة ، وصفية بنت محسن وغيرهن^(٣٦) .

ومن رواياتها:

استأذن أبو ثابت مولى علي عليه السلام على أم سلمة ، فقالت : مرحباً بك يا أبا ثابت ، ثم قالت : يا أبا ثابت أين طار قلبك حين طارت القلوب مطيرها؟ قال : تبع علياً ، فقالت : وفقت ، والذي نفسي بيده لقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : عليٌّ مع الحقِّ والقرآن ، والحقُّ والقرآن مع عليٍّ ، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض . قالت أم سلمة : أغد^(٣٧) رسول الله صلى الله عليه وسلم على عليٍّ وفاطمة والحسن والحسين خميسة سوداء ، ثم قال : «اللهم إليك لا إلى النار ، أنا وأهل بيتي» . قالت : قلتُ : وأنا يارسول الله . قال : «وَأَنْتِ» .

وقريب من ذلك ما روته ابنتها زينب مع اختلاف يسير حيث قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عند أم سلمة ، فجعل حسناً في شقٍّ ، وحسيناً في شقٍّ ، وفاطمة في حجره وقال : «رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد»^(٣٨) . وأنا وأم سلمة جالستان ، فبكت أم سلمة ، فقال : «ما يبكيك؟» قالت : يارسول الله خصصتهم وتركنتني وابنتي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إِنَّكَ [وابنتك] من أهل البيت»^(٣٩) .

ومما روته ، قالت : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا حضرتم المريض أو الميت

فقولوا: خيراً، فإن الملائكة تؤمن على ماتقولون. فلما مات أبو سلمة أتيتُ النبي ﷺ فأخبرته، فقال: قولي: اللهم اغفر لي وله، وأعقبني منه عقباً حسناً، فقلتُ ذلك. فأعقبني الله منه مَنْ هو خيرٌ منه رسول الله. وعنها قالت: كان النبي ﷺ إذا خرج في سفر يقول: «اللهم إني أعوذ بك أن أزل أو أزل» (٤٠).

عن زينب بنت أبي سلمة، عن أمِّها أم سلمة رضي الله عنها: قالت سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنما أنا بشر، وأنتم تختصمون إليّ، ولعلَّ أحدكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض، فأقضي نحوه ما أسمع منه، فمن قضيتُ له بشيء من حق أخيه منه شيئاً، فإنما أقطعُ له قطعةً من النار» (٤١).

ولما قدم ابن أبي جهل المدينة، فجعل يمرُّ في الطريق، فيقول الناس: هذا ابن أبي جهل. فذكر ذلك لأمِّ سلمة، فما كان منها إلا أن ذهبت إلى رسول الله ﷺ فذكرت له ما سمعت: فخطب ﷺ الناس وقال: «لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات» (٤٢).

ولما سئلت: ما أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

قالت: فقلتُ له: يا رسول الله: ما أكثر دعائك «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»؟!

قال: «يا أم سلمة، إنَّه ليس من آدمي إلا وقلبه بين اصبعين من أصابع الله، ما شاء الله أقام وما شاء أزاغ» (٤٣).

ومما روته بحقُّ أخيها من الرضاة عمار بن ياسر، الذي طالما رعته وغضبت له حينما فعل به عثمان فعلته القذرة، شتمه وأمر به فأخرج من مجلسه...، وقد أثقلوه باللبن حينما شارك في بناء مسجد رسول الله ﷺ في المدينة، فقال: يا رسول الله قتلوني يحملون عليّ ما لا يحملون.

وهنا قالت أم سلمة: فرأيتُ رسولَ الله ﷺ ينفضُ وفرتَه بيده، وكان رجلاً جعداً وهو يقول: «ويح ابن سميّة ليسوا بالذي يقتلونك، إنما تقتلك الفئة الباغية» وارتجز عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعداً
ومن يرى عن الغبار حائداً

فأخذها عمّار بن ياسر فجعل يرتجز بها (٤٤).

وفاتها:

أبت أم سلمة - وقد عرفت جيداً قدر نفسها - أن تموت دون أن تترك خلفها دروساً ينتفع بها الآخرون، فحياتها بكلّ مفاصلها كانت مفعمة مليئة بالأحداث سواء قبل إسلامها وهي تعيش في بيت عرف - كما قلنا - بالكرم والشرف والإباء، أم في حياتها الأولى مع أبي سلمة زوجةً صالحةً، أم في إسلامها وهجرتها وتصويرها لهجرتها حتى كانت روايتها أوثق وأدقّ روايات الهجرة، أم في هجرتها الثانية إلى المدينة وأحداثها وما رافقها من آلام..

أم في زواجها المبارك الذي اختارته السماء، وهي تعيش أطهر بيت مع أعظم إنسان عرفته الدنيا، لم تكن حياتها معه إلا طاعة وإيماناً وتصديقاً وخدمة وجهاداً، حتى لم يعثر على خطأ لها على كثرة ما تركبه النساء من أخطاء وما تصنعه من متاعب..

ورغم ما عانته من غيرة وحسد أم المؤمنين عائشة وكذلك أم المؤمنين حفصة وما خلقتا لها من متاعب وصعاب. كانت تقابل كلّ ذلك بحكمة وهدوء حتى تبعد هذا البيت عن كلّ ما يتعب صاحبه ﷺ ويعكر عليه حياته، أو يشغله عن مهامه العظيمة...

وبقيت محافظة على سيرتها وإن طال عمرها حتى تجاوز الثمانين عاماً،

فكانت آخر من توفي من زوجاته عليها السلام ويبدو أنه قدر لهذه المرأة الصالحة المخلصة لزوجها ولأهل بيته أن تشارك رسول الله صلى الله عليه وآله عزاءه وحزنه، فقد بلغها استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، فوجمت لذلك، وغشي عليها، وحزنت حزناً شديداً، ولم تلبث بعد ذلك إلا يسيراً، ثم انتقلت إلى رحمة الله (٤٥).

وأما بنت الشاطئ فتقول: وتقدم العمر بأم سلمة حتى امتحنت، كما امتحن الإسلام وامته، بمذجة «كربلاء» ومصارع الإمام الحسين وآل البيت صلوات الله عليهم، على الساحة المشئومة.

توفيت رضي الله عنها بعدما جاءها نعي الحسين بن علي عليه السلام (٤٦).
ويكفيها فخراً أن رسول الله توفي وهو راضٍ عنها وعن أولادها الذين تكفلهم برعايته وتربيته..

وبقيت هذه المرأة ورضا رسول الله صلى الله عليه وآله يلاحقها ويواكبها حتى غدت وبيتها «مركز الإشعاع العلمي والفقهي للصحابة والتابعين والعلماء من شتى الأمصار» (٤٧).

توفيت سنة إحدى وستين وقليل سنة اثنتين وستين في عهد يزيد بن معاوية، وشيعها المسلمون تشييعاً عظيماً حتى مرقدها الأخير في مقبرة البقيع في المدينة المنورة.

الهوامش :

(١) سورة الأحزاب: ٣١.

(٢) سورة الأحزاب: ٣٢-٣٣.

(٣) سورة الأحزاب: ٥٩.

(٤) سورة الأحزاب: ٢٨-٢٩.

- (٥) البحار ٢٢: ٢٠٤، الميزان في تفسير الآية.
- (٦) ابن منظور في لسان العرب ٤: ١٨١، وغيره من مصادر التاريخ.
- (٧) ذكر ذلك في الهامش صاحب كتاب نساء أهل البيت عن المحبر ١٣٧ وعن المنمق: ٣٦٨ - ٣٦٩.
- (٨) أحمد خليل جمعة - نساء أهل البيت: ٢٢٥ - ٢٢٦.
- (٩) تهذيب النووي ٢: ٣٦٢.
- (١٠) .. وأعلى بهم عيناً أي أبصر بهم، وأعلم بحالهم، اللسان: علا.
- (١١) خضراء هم: شجرتهم التي منها تفرعوا.
- (١٢) العويد: أي مقدار هذا العود الصغير.
- (١٣) مختصر تاريخ دمشق ٦: ٦٣، ٦٤، ٦٥.
- (١٤) انظر طبقات ابن سعد ١: ٢٠٣ - ٢٠٧.
- (١٥) معجم البلدان ٤: ٣٧٤.
- (١٦) الطبقات ٨: ٨٧ - ٨٨.
- (١٧) غزوات الرسول، لمحمود شيت خطاب.
- (١٨) الطبقات ٨: ٨٧ - ٨٨.
- (١٩) الطبقات ٨: ٧٨.
- (٢٠) موسوعة امهات المؤمنين، هامش: ١٤٣.
- (٢١) الطبقات ٨: ٨٧.
- (٢٢) السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٦٤٥.
- المجشة: الرحي، يُقال: جششتُ الطعام في الرحي إذا طحنته طحناً غليظاً، ومنه الجشيش والجشيشة.
- (٢٣) الطبقات ٨: ٩٢.
- (٢٤) أعلام النساء ٥: ٢٢٤.
- (٢٥) التاج الجامع للاصول ٣: ٣٨٣.
- (٢٦) تاريخ الطبري، تاريخ ابن كثير، الترمذي في صحيحه.
- (٢٧) انظر السمط الثمين: ٢٠.
- (٢٨) سورة التوبة: ١٠٢.
- (٢٩) السيرة النبوية (لابن هشام ٣: ٢٣٨، وأسباب النزول للواحدي: ٢٦٣ ومجمع البيان للطبرسي، الآية من سورة التوبة.
- (٣٠) انظر المغازي في حديث كعب بن مالك، ومسند أحمد وغيرها...
- (٣١) الطبري ٢: ٧٨٦.
- (٣٢) الكامل في التاريخ ٢: ٣٧٨.

- (٣٣) انظر نساء النبي : ١٤٤ الدكتور بنت الشاطئ.
- (٣٤) العقد الفريد، ابن عبد ربّه ٣: ٩٦.
- (٣٥) العقد الفريد، ابن عبد ربّه ٣: ١٢٧.
- (٣٦) نساء أهل البيت: ٢٤٦ - ٢٦٥ وانظر الهوامش.
- (٣٧) أغدق: بغير فداق فقاء: أرسل وغطى، ومنه غداق المرأة، وهو ما تستربه وجهها: ١٥٤ من كتاب أزواج النبي للإمام محمد بن يوسف الدمشقي.
- (٣٨) سورة هود: ٧٣.
- (٣٩) ذكره صاحب كتاب أزواج النبي عن الطبراني في الكبير ٢٤: ٢٨١ - ٢٨٢ وغيره..
- (٤٠) ربيع الأبرار ٤: ١٩٦.
- (٤١) البخاري، ومسلم في الأفضية والنسائي في القضاء والشافعي في الأم..
- (٤٢) ربيع الأبرار ٢: ٨٤١.
- (٤٣) العقد الفريد ٣: ٢٢.
- (٤٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ١١٤.
- (٤٥) الرسول في بيته: الدكتور أحمد شلبي: ٧٨.
- (٤٦) نساء النبي ﷺ: الدكتور بنت الشاطئ: ١٥٠ - ١٥١.
- (٤٧) نساء أهل البيت، أحمد خليل جمعة: ٢٦٩.

الحج عبر الديانات والأمم (٢)

ماجدة المؤمن

الحج في الديانة اليهودية:

مارس اليهود الحج بأشكال مختلفة، واتجهوا إلى أماكن متعددة، واتخذت كل فرقة من فرقهم وجهة معينة، تحج إليها في أعيادها الخاصة، وعلى وفق مذهبها وتعاليمه وعقيدتها، وما تفرض عليها من الأوامر والنواهي...

وفكرة الحج، ليست طارئة على اليهود، فقد كانت منتشرة آنذاك، فمن كان على دين إبراهيم عليه السلام، كان يعرف الحج ويمارسه في بيت الله الحرام، ومن

كان من الأقوام السامية، فانه يحج إلى المعابد والهياكل وقبور الموتى، وغير ذلك مما وجدناه في الحضارات والأمم. فاليهود كغيرهم، حجوا ومارسوا طقوساً خاصة بالحج، وسفر الخروج في التوراة حدّد لهم أعياداً دينية سنوية يزورون فيها مقدساتهم بملابس خاصة أو جديدة، وينحرون ويطوفون ويقرأون الأدعية والتعويزات الخاصة وغير ذلك، وحجهم خليط من حج وضعي وحج سماوي، فهو صورة جديدة بين حج



وثني باطار توحيدى .

والظاهر أن حج اليهود كان فرضاً واجباً أوجبه التوراة عليهم، هذا ما يؤكد النص التالي :

«والحج إلى معبد من المعابد عادة سامية قديمة جعلت حتى في الأجزاء القديمة من أسفار موسى الخمسة فرضاً يجب أدائه، فقد ورد في سفر الخروج، في الاصحاح الثالث والعشرين، الآية الرابعة عشرة: «ثلاث مرات يعيد لي في السنة» وفي الآية الثالثة والثلاثين من الاصحاح الرابع والثلاثين «ثلاث مرات في السنة يظهر جميع ذكورك أمام السيد الرب إله إسرائيل» وربما كان في بلاد العرب أيضاً أماكن كثيرة للحج حيث كانت تقام شعائر شبيهة بالحج إلى عرفات»^(١).

وفي كل عيد من هذه الأعياد الثلاثة اتخذت الفرق اليهودية حجاً إلى أماكن معينة، ففي يوم الاستغفار (عيد المظال) كانوا يحجون إلى جبل سيناء، وفي عيد الفصح إلى بيت

المقدس، وفي عيد استير وعيد المطر و... و... الخ يستجهون إلى أماكن أخرى، كما سنرى من خلال البحث ان شاء الله...

مع هذا، وعند استقراءنا للتوراة، لم نجد ذكر مكان معين خاص للحج على لسان نبيهم موسى عليه السلام كوعده إلهي لهم، ونتساءل هنا: هل الله تعالى لم يشرع لهم فريضة الحج إلى مكان معين، أم رواة وكتبة النصوص الدينية التوراتية تجاوزوا ذكرها، أم تعدوا تحريفها لعنصريتهم المعروفة؟ ولهذا تعددت أماكن الحج، وكثرت إليها الرحلات اليهودية في الأعياد السنوية، ويكاد كل موضع يبدأ اسمه بكلمة «بيت» يكون مكان حج وزيارة سابقاً أو لاحقاً، فمثلاً «بيت المقدس» و «بيت إيل» و «بيت آون» كان بالقرب من بيت إيل و «بيت إصل» في يهوذا و «بيت حور» بالقرب من القدس و «بيت هاجن» في المكان الذي ولد فيه عيسى عليه السلام في بيت لحم و «بيت هاشطة» وبيوت أخرى

وأخرى كثيرة يطول الكلام في عدّها وذكرها، يمكن الرجوع إلى الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) حيث أحصاها وعدّها عدّاً... وفي تحديد أوقات الحج، يقول د. حسن ظاظا: أما الأوقات التي يحجون فيها فهي موازية لأعيادهم وهي ثلاثة أوقات:

١ - عيد الفصح: ويقع في فصل الربيع، ومدته ٧ أيام تبدأ يوم ١٥ نيسان في التقويم اليهودي.
٢ - عيد الحصاد أو الأسابيع (شبو عوت)، ومدته يوم واحد، ٦ من شهر سيوان اليهودي، ويقع في أوائل الصيف (يونية).

٣ - عيد الظلّل: (سوكوت) ومدته ثمانية أيام، ويأتي في الخريف، ويبدأ يوم ١٥ تشري اليهودي، ويسمون هذه المواسم «الثلاثة الاعتيادية» يستحب فيها الحج؛ لاقترائها بالكثير من الصدقات^(٢).

وجهة النبي موسى ﷺ في الحج
ومن الضروري والمناسب أن

نعرف وجهة كلّم الله النبي موسى ﷺ في الحج، قبل أن نقف على ما حرّف اليهود من شريعة موسى ﷺ نبيهم الذي ينسبون أنفسهم إليه، ويدّعون أنهم من أتباعه ومحبيه والسائرين على خطه وتعاليمه...

عند تتبعنا للأخبار والروايات والأحاديث الواردة من السنة الشريفة لا نجد الكلّم موسى ﷺ توجه بوجهة معاكسة أو مخالفة لما توجه إليها أنبياء الله والمرسلون فهو ﷺ حج وطاف ولبي في بيت الله العتيق مقتدياً بسنة آبائه وأجداده من الأنبياء، ومجيباً لأوامر السماء، هذا ما تؤكده الروايات في حجه ﷺ، نختار منها:

روي عن ابن عباس أنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة، فمرنا ببوادٍ، فقال: أي واد هذا؟ قالوا: وادي الأزرق، قال: كأني أنظر موسى صلى الله عليه وسلم (فذكر من طول شعره شيئاً لا يحفظه داود - أحد رواة

الحديث -) واضعاً أصبعيه في أذنيه، له جوار إلى الله بالتلبية ماراً بهذا الوادي، قال: ثم سرنا حتى كذا وكذا... الخ»^(٣) أي ذكر حجه إلى مكة المكرمة والكعبة الشريفة.

وروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: مرّ موسى بن عمران عليه السلام في سبعين نبياً على فجاج الروحاء... يقول: لبيك عبدك ابن عبدك»^(٤).

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام أيضاً أنّه قال: «أحرم موسى من رملة مصر، قال: ومرّ بصفائح الروحاء محرماً، يقود ناقة بخطام من ليف، عليه عباءتان قطنيتان، يُلبّي وتجيبة الجبال»^(٥).

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مرّ موسى النبي (صلوات الله عليه) بصفائح الروحاء على جبل أحمر، خطامه من ليف عليه عباءتان قطنيتان وهو يقول: لبّيك يا كريم لبّيك»^(٦).

وجاء في أخبار مكة: «حج موسى النبي على جبل أحمر فرّ

بالروحاء عليه عباءتان قطنيتان متزر بأحدهما مرتدي بالأخرى فطاف بالبيت، ثم طاف بين الصفا والمروة فبينما هو بين الصفا والمروة إذ سمع صوتاً من السماء وهو يقول: لبيك عبيدي أنا معك، فخر موسى ساجداً»^(٧).

والنبي موسى عليه السلام من كبار الأنبياء والرسل، وفي مصطلحاتنا الإسلامية يُعدُّ من أولي العزم، وعليه فلا يمكن أن ينحرف في حجه إلى الوجهة غير الصحيحة وغير المرضية عند الله تعالى، وإذا وجدنا هناك انحرافاً في اليهودية فهو في قومه الذين خالفوه، ولم يلتزموا بتعاليمه وأوامره مما أخذهم الله تعالى بانحرافهم وذنوبهم، فكانوا قوماً مهانين ومغضوباً عليهم إلى يوم يبعثون، قال تعالى فيهم:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بَأْسُهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا

عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ»^(٨).

انحراف اليهود في حجهم

لم يتبع اليهود سنة كلیم الله موسى ﷺ، نبیهم الذي توجه في حجه الى بيت الله العتيق كما مرّ علينا سابقاً، بل حرّفوا أغلب تعالیم دينه ومن ضمنها الحج، ومن الملاحظ أن: «الحج عند اليهود في الوقت الحاضر ليس بفريضة عندهم ولا بركن من أركان العبادة كما هو في الإسلام، فهو على أكثر تقدير يشبه (العُمرَة) عند المسلمين»^(٩).

وانقسم^(١٠) اليهود بعد الكلیم ﷺ الى عدة فرق، وكلُّ فرقة اتخذت لها وجهة ومكاناً تحج إليه بوضع تعالیم وطقوس وشعائر خاصة بها.

ولنعرض قسماً منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ - توجه قسم منهم إلى بيت المقدس وھیکل سليمان ﷺ.

٢ - والقسم الآخر إلى جبل النبي موسى ﷺ في طور سيناء.

٣ - وآخرون إلى بئر الحی الرائي

بالقرب من مدينة الخلیل.

٤ - ومنهم من توجه إلى (بقاع مباركة) - حسب تعبيرهم - أهمها الجبال الشامخة والتلال والآبار وعيون الماء وأماكن طبيعية أخرى.

وسنحاول ان شاء الله تعالى تفصيل هذه النقاط قدر استطاعتنا، وبيان الأساليب المتبعة في حجهم وتاريخه والمواقع الجغرافية لكلٍّ منها.

الحج إلى بيت المقدس

يُعدُّ بيت المقدس أو القدس من أهم الأماكن المقدسة لدى اليهود - إضافة إلى أهميته عند المسيحيين والمسلمين - لذلك تميّز حجهم لهذا البيت بقدسية ومعنى خاصين.

عظّم اليهود بيت المقدس وخاصة فرقة (يهوذا) المنحدرة من داود وسليمان ﷺ، خصوصاً بعد بناء النبي سليمان ﷺ للهيكل المعروف في القدس الشريفة بـ (هيكل سليمان).

«وقدسية بيت المقدس عند اليهود تاريخها مقارناً لبناء سليمان

الهيكَل، والهيكَل المعبَد المركزي لليهود الذي صار حرمًا للحج وقبلة للصلاة منذ عهد داود وسليمان عليهما السلام، وهذا المعبَد الضخم تعرض عبر تاريخه ولحد الآن إلى أحداثٍ جسام لم يبق منه إلا جزء من جدار، يعرف عند اليهود باسم (الجدار الغربي) وعند سائر الأمم باسم «حائط المبكى» وهو جدار من سور يرجع إلى عهد هيرودس المعاصر لمولد المسيح عليه السلام»^(١١).

والقدس: مدينة تقع وسط فلسطين فوق تل صخري من تلال اليهودية على ارتفاع (٧٦٢م) على بُعد حوالي ٥ كم من يافا، وهي المدينة الجديدة... أما المدينة القديمة فتقع بآثارها الدينية بالمملكة الأردنية الهاشمية.

وبيت المقدس: هو البيت الذي فيه مقدسات الأديان الثلاثة (اليهودية - والمسيحية - والإسلام) وتضم المدينة القديمة معظم الأماكن المقدسة. كان اليهود يعتقدون أن

جانباً من أحد جدران المسجد الأقصى بني بأحجار أخذت من هيكَل سليمان، وهو الجدار المعروف بحائط المبكى... وقد تكون هي شليم، المذكورة في سفر التكوين، وجعلها داود عاصمته بعد انتزاعها من اليوسيين، وأقام سليمان هيكله العظيم بها، فزاد من بهائها وعظمتها، واتخذها ملوك يهوذا عاصمة مملكتهم. التي ظهر فيها كثير من عظماء الأنبياء من بني إسرائيل الذين نادوا برسالتهم في شوارعها.

ويقال: «ما فيها موضع شبر إلا وقد صلى فيه نبي»^(١٢).

«حارب اليهود العرب لانتزاعها من أيديهم، واضطر اليهود إلى أن ينزلوا للعرب عن المدينة القديمة، ولكن المدينة الجديدة لا تزال في قبضتهم»^(١٣).

المهم، أنهم - فرقة يهوذا - اتخذت من بيت المقدس وهيكَل سليمان محجةً سنويةً لها في العيد السنوي الديني المسمى بـ (عيد

الفصح) (١٤).

وأهم المراسم المتبعة فيه هي «الضحية» أي القربان أو «الهدي» في المصطلح الإسلامي، يقدم إلى الرب أو الإله، وهذا القربان تؤكدُه وصايا تلمودهم^(١٥)، التي تختلف اختلافاً كبيراً مع الوصايا المنصوص عليها في التوراة في مسألة «الضحية»، فالتوراة أوصاهم بتقديم «ثور»^(١٦) قرباناً للرب في عيد الفصح. أما تعاليم التلمود فكانت توصيهم أن تكون الضحية من البشر:

و«تختار الضحايا أو الذبائح في عيد الفصح من الأطفال، الذين لا تتجاوز سنهم العاشرة أو تزيد عنها قليلاً. ويمزج دم الضحية بعجين الفطائر قبل تجفيفه أو بعده... ويستنز اليهود دم الضحية بطرائق كثيرة: فأحياناً يتم ذلك عن طريق «البرميل الابري» وهو برميل مثبت على جوانبه من الداخل إبر حادة توضع فيه الضحية حيّة فتتغرز هذه الإبر في جسمها، وتسيل الدماء ببطء

من مختلف الأعضاء، وتظل كذلك في عذابٍ أليم حتى تفيض روحها، بينما يكون اليهود الملتفون حول هذا البرميل في أكبر نشوة بما يبعثه هذا المنظر في نفوسهم من لذة وسرور. وينحدر الدم إلى قاع البرميل ثم يصب في إناء مُعد لجمعه»^(١٧).

و«أحياناً تقطع شرايين الضحية في عدة مواضع ليتدفق الدم من جروحها. وأحياناً تذبح الضحية كما تذبح الشاة ويؤخذ دمها، وبعد أن يتجمع الدم بطريقة من الطرق السابقة أو غيرها تسلم إلى الحاخام أو الكاهن أو الساحر، الذي يقوم باستخدامها في إعداد الفطائر المقدسة أو في عمليات السحر»^(١٨).

أما الزمان أو الوقت الذي يحجون فيه إلى بيت المقدس، ليقيموا شعائهم في عيدهم الديني هذا، فهو اليوم الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم الدينية وهو شهر نيسان، ويحتفلون فيه بنجاة موسى عليه السلام وبني إسرائيل من فرعون وقومه

عيد الفصح ليست إلا تخفيفاً لهذه التضحية البشرية اقتضاه تقدم المدنية»^(٢١).

والظاهر أن اليهود في الحال الحاضر يضحون بحمل أو جدي في حجهم إلى بيت المقدس، وقتلهم للبشر اتخذ صوراً أخرى...

جبل موسى ﷺ في صحراء سيناء اعتقد اليهود أن الجبل الواقع في طور سيناء، الذي يبعد (٣٢٠) كيلومتراً عن منطقة عيون موسى والذي يبلغ ارتفاعه (٧٦٠٠) قدم، هو الجبل الذي كلم الله تعالى موسى ﷺ فيه، وأنزل عليه الألواح المقدسة... فقدسوا هذا الجبل جيلاً بعد جيل وحجّوا إليه، وعدّوه من المقدسات اليهودية المهمة.

وقد صرح الاستاذ (منشه حاريل) استاذ الجغرافيا الدينية وتاريخ الأديان بالجامعات العبرية قائلاً: «إن اليهود يحجون كل عام... ومن القرن السابع الميلادي حتى اليوم إلى جبل موسى، ويتحملون مشقة

وخروجهم من مصر»^(١٩).

والفصح في اللغة (فصح أي الفصح أو الخروج أو المرور).

وقد ورد أن هذا العيد «عيد اليهود، ١٥ نيسان (الشهر السابع في التقويم العبري) ويسمى أيضاً عيد الفطير، وفيه خروج بني إسرائيل من مصر هرباً من فرعون»^(٢٠).

وعن قضية التضحية بالأطفال يقول ول ديوارنت:

«لقد كان اليهود الأقدمون يشتركون مع الكنعانيين والمؤابيين والفينيقيين والقرطاجنيين وغيرهم من الشعوب في عادة التضحية بطفل، بل بطفل محبوب، لاسترضاء السماء الغضبي، ثم أصبح في الإمكان على توالي الأيام أن يستبدل بالطفل المجرم المحكوم عليه بالإعدام، وكان البابليون يلبسون هذا الضحية أثواباً ملكية، لكي يمثل بها ابن الملك، ثم تجلد وتشنق، وكان هذا نفسه يحدث في رودس في عيد كرونس. وأكبر الظن أن التضحية بحمل أو جدي في

الوصول إليه ، وتسلق (٣٨٠٠) درجة للوصول إلى 'قته' ، التي يعتقدون أن موسى كَلَّمَ رَبَّهُ فوقها ، وتلقى منه الرسالة والوصايا ، حتى أصبح ذلك الجبل بالنسبة لهم كالكعبة بالنسبة للمسلمين . ولا يقل عدد من تحملوا مشقة ذلك الحج عن العشرين مليون يهودي ، حتى أصبح ذلك الجبل من المقدسات الدينية» (٢٢) .

ثم بين خطأ اعتقادهم وصرح في حديث له نُشر في مجلة المختار الألمانية عام (١٩٧٤م) بأن كل ما ورد ببحوث البعثة الأمريكية صحيح ، وأنه يتفق مع النتائج ، التي توصلت إليها بحوث معهده ، وتمّ تسجيلها وإعداد مخططاتها من بضع سنوات ، فالجبل الذي يحجون إليه ليس هو نفسه الجبل الذي كَلَّمَ الله تعالى موسى ﷺ فيه .

ولما سئل عن سبب عدم موافقته على نشرها وإعلانها رسمياً قال : «إعلان تلك البحوث أو الحقائق التاريخية ستخيب آمالهم وتفقدتهم ثقتهم في اسطورة تحولت إلى

عقيدة» (٢٣) .

والحقيقة ، أن التوراة تذكر مشخصات وعلامات لجبل موسى ﷺ تختلف عما موجود في الجبل الذي يحجون إليه سنوياً كبُعد من عيون موسى ، وارتفاعه وغيرها من العلامات ... ووصف الأرض أنها أرض مناجم الفيروز والنحاس ، الذي اشتهر اليهود بصناعتها والتجارة فيها في ذلك الوقت (٢٤) .

فالجبل الذي يحجون إليه سنوياً بعيد عن عيون موسى ، وأكثر ارتفاعاً من الجبل المذكور في التوراة ، والذي كشفته البعثة الأمريكية للآثار ، وليس لمناجم الفيروز والنحاس وجود فيه ...

إذن هذه العقيدة الإسطورية لليهود ، أصبحت واضحة للعيان كوضوح الشمس في ظهر النهار أنها بدعة ابتدعتها أنفسهم بعد ميلاد عيسى المسيح ﷺ بسبعة قرون ، ومثلها تعاليم التلمود ، ومثلها من تدوين التوراة من قبل ، وهكذا . أما

وبين عيد الحريف عند سامي الشمال، وهو عيد المظال (أو يوم الاستغفار) وهو أمر نجد له ما يؤيده أيضاً من أن عيد المظال في التوراة غالباً ما يطلق عليه للايجاز اسم «حج» (سفر القضاة، الاصحاح ٢١، الفقرة ١٩، وسفر الملوك الأولى، الاصحاح الثامن، الفقرات ٢ و ٦٥) «...» (٢٧).

بئر الحي الرائي بالقرب من الخليل وهناك فرقة أخرى من اليهود قدست هذه المنطقة التي فيها (البئر المقدس) وحجت إليها، وما زالت هذه الفرقة تعتقد أنها بلد جدّهم الأعلى إسحاق بن الخليل ابراهيم عليه السلام، ومدينة إقامته ووفاته.

جاء في التوراة: «وكان بعد موت إبراهيم أن الله بارك إسحاق ابنه، وأقام إسحاق عند بئر الحي الرائي و... الخ» (٢٨).

وذكرت التوراة أيضاً أن إسحاق تزوج من (رفقة) في ذلك المكان في حياة أبيه إبراهيم عليه السلام وأمه سارة: «وكان إسحاق قد أتى من وُروُد

مناسك حجهم إلى هذا الجبل، يمكن بيانها من خلال الموازنة التي أجراها (هوتسما) (Houtsma) بين الوقوف - وقوف المسلمين في عرفات - وبين إقامة بني إسرائيل على جبل سيناء، فهؤلاء يعدون أنفسهم لهذه الإقامة بالامتناع عن النساء (سفر الخروج، الاصحاح ١٩، آيه ١٥)، وبغسل ثيابهم (الخروج، ١٩/١٠ و ١٤) وبذلك يقفون أمام الرب، وعلى هذا النحو لا يقرب المسلمون النساء ويرتدون ثياب الإحرام ويقفون أمام الخالق في سفح جبل سيناء» (٢٥).

ومن مناسك هذا الجبل أيضاً، الاستسقاء من ماء عين (شيلوه المقدسة) ولهذا الاستسقاء تعويذة خاصة، وإنارة المعبد، وكذلك الضحية (الهدي) وأمور أخرى، إضافة إلى ذلك فإن وقت هذا الحج لهذا الجبل، يكون عادةً في عيد المظال أو (يوم الاستغفار) (٢٦)، «فمن الطبيعي عند البحث في معناه الأصيل أن نوازن بينه

بئر لحي رُئي. إذ كان ساكناً في أرض الجنوب، وخرج إسحاق ليتأمل في الحقل عند إقبال المساء، فرفع عينيه ونظر وإذا جمالٌ مقبلة، ورفعت رفقةً عينيهما فرأت إسحاق فنزلت عن الجمل، وقالت للعبد: مَنْ هذا الرجل الماشي في الحقل للقائنا؟ فقال العبد: هو سيدي. فأخذت البرقعَ وتغطّت، ثم حدّث العبدُ إسحاق بكلّ الأمور التي صنع، فأدخلها إسحاق إلى خباء سارة أمّه، وأخذ رفقة فصارت له زوجة وأحبها» (٢٩).

ولهذه القصة في هذا المكان المقدس، لها وقع خاص في قلوب اليهود؛ لذلك قُدمت المنطقة وقُدس ماءً بئرها.

ومنطقة (بئر لحي الرائي) تقع بالقرب من مدينة الخليل، والخليل على بُعد (٤٤) كم جنوب بيت المقدس، وهي مدينة حبرون القديمة، وفيها قبر الخليل إبراهيم وزوجه سارة وإسحاق ويعقوب وقبر رفقة، ويضمّ هذه

القبور مسجدٌ كبير (٣٠).

ولهؤلاء الخمسة مكانة خاصة عند بعض اليهود؛ لذلك قُدمت قبورهم وأماكن ذكرياتهم، واعتبرت مكاناً يُحج إليه، ويتقرب بهم إلى الله في تقديم الأضاحي والندورات والهدايا، وقراءة الأدعية والتضرع والتخشع والبكاء؛ للحصول على النعيم الأخروي من خلاصهم ولرضا الربّ الاله.

ويقول د. حسن ظاظا في الحج إلى هذه المنطقة:

«وبئر لحي الرائي، بالقرب من الخليل، وقبله سديانة قُرا، كثير من أتقياء اليهود يحجون إليها حتى اليوم، لما جاء في التوراة: وكان بعد موت إبراهيم أن الله بارك إسحاق ابنه، وأقام إسحاق عند بئر لحي الرائي، وتزوج عندها في رفقة قبل موت أبويه سارة وإبراهيم» (٣١).

معبد (بيت إيل) بالقرب من نابلس (٣٢)

عظمت هذا المعبد فرقة أخرى



من اليهود وهي فرقة (السامرية) وهي الفرقة اليهودية التي لا تؤمن إلا بالأسفار الخمسة، التي تمثل القسم الأول من (العهد القديم)، وكذلك لا تؤمن بالبعث واليوم الآخر... وقد ذكرها ابن حزم في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) قائلاً:

«أنهم يطلون كل نبوة كانت في بني إسرائيل بعد موسى ويوسع عليه السلام، فيكذبون شمعون وداود وسليمان وأشعيا واليسع وإلياس وعاموص وحبقوق وزكريا وأرميا وغيرهم، وأنهم يقولون: إن مدينة القدس هي نابلس، وهي من بيت المقدس على ثمانية عشر ميلاً، ولا يعرفون حرمة بيت المقدس ولا يعظمونه. وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنها» (٣٣).

وكان معبد «بيت إيل» الذي أقامه يعقوب في أرض كنعان بالقرب من نابلس، المكان الأول الذي يحج إليه بنو إسرائيل حتى أن شيد سليمان الهيكل في القدس، ولم يفقد منزلته

هذه إلا بعد انشطار مملكة سليمان نصفين بعد وفاته:

١ - السامرة شمالاً وكانت مملكة معادية لأسرة داود وسليمان في الجنوب، وتسمى نفسها إسرائيل! واستمرت في الحج إلى بيت إيل.

٢ - يهوذا المنحدرة من داود وسليمان، فكانت تحج إلى «الهيكل» في أورشليم، وهو الاسم الذي اشتهرت به منذ سليمان (٣٤).

وفي هذا المعبر قبر يوسف عليه السلام، وعين يعقوب عليه السلام بالقرب منها (٣٥).

أما القبلية التي تتوجه إليها فرقة السامرة فهي نحو جبل يقال له «غريزيم» بين بيت المقدس ونابلس. قالوا: إن الله تعالى أمر داود أن يبني بيت المقدس بجبل نابلس، وهو الطور الذي كلم عليه موسى عليه السلام، فتحول داود إلى (إيلياء) وبني البيت ثمة، وخالف الأمر، فظلم، والسامرة توجهوا إلى تلك القبلية دون سائر اليهود (٣٦). الذين قبلتهم بيت المقدس.

السمات للشيعه الإمامية، ذكر قدسية هذا المكان، ويبدو أنّ السبب هو تجلي مجد الله تعالى للنبي يعقوب عليه السلام جاء في الدعاء: «اللهم وباسمك العظيم الأعظم الأعزّ الأجل الأكرم، وبمجدك الذي تجليت به لموسى كليمك عليه السلام ول... ول... وليعقوب نبيك عليه السلام في بيت إيل» (٣٨).

أماكن مقدسة من الطبيعة

وحجّ قسم آخر من اليهود إلى أماكن طبيعية كالجبال الشاهقة، وبعض التلال والأشجار والآبار وعيون الماء، اعتماداً على النصوص التوراتية، واقتداءً بسنة الأجداد، الذين قدسوها واعتبروها آيات عظيمة تقرهم إلى الرب.

وهذا النص التوراتي يبين قدسية الأماكن الطبيعية من الأرض: «هذه هي الفرائض والأحكام التي تحفظون لتعلموها في الأرض التي أعطاك الرب إله آبائك؛ لتمتلكها كلّ الأيام التي تحيون على الأرض. تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم، التي

وكلمة «إيل» تعني «الله» فيكون معنى المعبد «بيت الله» ويجاور هذا المعبد، جبل ونخلة، الجبل اتخذه كعرفات في مكة، والمعبد كالكعبة، والنخلة ك(العزى): وهي في وادي بطن نخلة، قطعها خالد بن الوليد بأمر النبي محمد ﷺ التي كان يُحجُّ إليها في الجاهلية ويُعلق عليها النذور والهدايا... فقام تلك النخلة كهذه.

ولفرقة السامرة طقوس خاصة كالطواف والأضاحي وغيرها من صعود الجبل والوقوف عليه، وتقديم النذورات والهدايا والقرايين للشجرة المقدسة؛ لتقضي لهم حوائجهم... وقد جاء في سفر القضاء: «وكانت دبورة النبية، زوجة لفيدوت متولية قضاء بني إسرائيل في ذلك الزمان - أي بعد موسى بقرنين - وكانت دبورة تجلس تحت (نخلة دبورة) بين الرامة وبيت إيل (في إقليم نابلس) في جبل أفرام، وكان بنو إسرائيل يصعدون إليها لتقضي لهم» (٣٧).

ومن الجدير ذكره أنّ دعاء

ترثونها آلهتها على الجبال الشاخحة، وعلى التلال، وتحت كل شجرة خضراء. وتهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم، وتحرقون سواربهم بالنار، وتقطعون تماثيل آلهتهم، وتحمون اسمهم من ذلك المكان... لا تفعلوا هكذا للرب إلهكم. بل المكان الذي يختاره الرب إلهكم من جميع أسباطكم ليضع اسمه فيه سكناه تطلبون والى هناك تأتون. وتقدمون إلى هناك محرقاتكم وذبائحكم وعشوركم ورفائع أيديكم ونذوركم ونوافلكم وأبكار بقركم وغنمكم»^(٣٩).

وهذا النص التوراتي له وقع كبير في نفوس بعض اليهود، حيث يذهبون سنوياً إلى تلك الأماكن المخصصة من الطبيعة، التي احتلها الأجداد وقضوا على سكانها، وأحرقوهم، وقتلوهم، يذهبون إليها حجاجاً معيدين مع ذبائحهم وضحاياهم ونذورهم وهداياهم، وهذا ما يوجبه عليهم المقطع الأخير من النص، إضافة إلى

أمرهم بالصلاة الخاصة هناك، وتقديم البكر من البقر والغنم إما ضحية أو هدية، وقبل هذا كله يوصيهم النص أن يقدموا محرقاتهم أي (يبنروا المكان) ليستضيئوا ولا تمسهم الظلمة. وهذا الحج في الحقيقة عادة وثنية اقتبسها اليهود، الذين عاشوا في قرون سبقت عهد موسى ﷺ، فانتقلت إلى أبناءهم فدخلوا عليها عبر القرون والأيام ما يسد حاجتهم العنصرية والنفسية، فجعلوها ضمن معتقدهم الديني.

ويقول د. حسن ظاظا: «كان اليهود - أو بنو إسرائيل - يجعلون من الأشجار والجبال والتلال وعيون الماء والآبار مزارات يحجون إليها ويتبركون بها، ويبنون عندها معابدهم»^(٤٠).

جاء في الحديث عن إبراهيم ﷺ في التوراة: «وتجلى له الرب في سندبانة (قُرا) وهو جالس بباب الخيمة، عند ارتفاع النهار. فرفع بصره وألقاه فرأى ثلاثة رجال

وراءه. وكان إبراهيم وسارة شيخين طاعنين في السن، يستحيل أن يكون لهما ما للنساء. فضحكت سارة في نفسها قائلة: أبعد شيخوختي يكون لي تَنَعُّمٌ^(٤١)؟ وبعلي شيخ كبير! فقال الرب لإبراهيم: ما بال سارة قد ضحكت قائلة: أألدُّ وأنا عجوز؟ أهذا على الرب أمر عسير؟ في مثل هذا الوقت من قابل، أعود اليك ويكون لسارة ابن»^(٤٢).

ولأن التجلي الإلهي والبشرى بإسحاق كانتا عند هذه الشجرة (السنديانة)، فقد قدسها بنو إسرائيل وكانوا يحجون إليها، ويتبركون بها، ويطلبون منها حوائجهم.

«أما العيون والآبار فمن أشهرها «قادش» الذي يدل اسمها المؤابي على تقديسها، واحتفظت في اسمها بالعربية (عين قديس) ويتصدر الآبار (بئر سبع) جنوب شرقي غزة. وكان الساميون القدماء من بني إسرائيل وغيرهم يعتقدون أن هذه البئر (مسكونة) أي تقيم فيها كائنات غير

واقفين أمامه، فلما رآهم همَّ لاستقبالهم أمام باب الخيمة، وسجد إلى الأرض قائلاً: مولاي! إن كانت لي حظوة في عينيك، فلا تضرب صفحاً عن عبدك، سأقدم لكم بعض الماء فتغسلون أرجلكم، وتتكئون تحت الشجرة، وأقدم كسرة خبز، لتسندوا بها قلوبكم، ثم تنصرفوا، بعد ذلك، فإنكم لذلك مررتم بعبدكم. قالوا: اصنع كما قلت! فاسرع إبراهيم إلى الخيمة، إلى سارة، وقال: هاقي ثلاثة أصواع من دقيق سمين، فاعجنها واصنعها خبز مَلَّة. وبادر إبراهيم إلى البقر فأخذ عجلاً حنيذاً طيباً، ودفعه إلى الغلام، فأسرع في إعداده. ثم أخذ زبدًا ولبنًا، والعجل الذي كان قد هيَّأه، ووضع ذلك بين أيديهم، وهو واقف أمامهم تحت الشجرة، فأكلوا. ثم قالوا: أين سارة، امرأتك؟ قال: هي في الخباء، قال: سأرجع إليك مثل الآن في العام القادم، ويكون لسارة امرأتك ابن. وكانت سارة تستمع عند باب الخباء، وهو

والحج فُرض على الناس منذ زمن الخليل إبراهيم عليه السلام حين أذن في الناس: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (٤٤).

وهذا الفرض السماوي عين المكان وعين الزمان واشترط الاستطاعة لأدائه، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (٤٥) أي حق على الناس كافة أن يحجوا إليه - إلى البيت الحرام - حيث هي الدعوة عامة وليست خاصة لفئة معينة من الناس دون أخرى، ولم يخص المسلمين دون غيرهم أو المؤمنين دون غيرهم، الله تعالى لا يفرق بين عباده، فلم يقل والله على المسلمين أو على المؤمنين أو على الفرقة الفلانية أو الفئة الفلانية، أو تلك القبيلة أو العنصر المعين أو اللون المفضل، بل جاء الخطاب عاماً ﴿لِلنَّاسِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا

منظورة من الملائكة والجن، وأن عدددهم سبعة، تسهر على عقاب الحانث في يمينه، المتعمد للكذب، فكان عليه أن يذهب مع خصمه إلى تلك البئر، ويدعو على نفسه باللعنات السبع، كأن يموت بلا عقب، وأن يفقد كل عزيز عليه، وأن يصاب في ماله، وصحته، وشرفه، وأن يضرب في الأرض شريداً، وأن يفقد السمع والبصر والعقل... الخ﴾ (٤٣).

تلخيص واستنتاج

وصفة القول أن الديانة اليهودية عرفت الحج كممارسة عبادية، مادية ومعنوية، كما عرفت الديانة الإسلامية والديانات الأخرى التوحيدية وغير التوحيدية، لكن الفرق يكمن في ماهية هذه العبادة والأعمال والشعائر والمكان والزمان، والأهم من هذا كله، اتباع ما اعتقدوا هم به، وليس بما جاءهم به نبيهم من شريعة السماء، بالتوجه الصحيح إلى المكان المطلوب، والزمان المعين، والمناسك المفروضة... الخ.

الى طريق الهوى وطريق الغواية...
قال تعالى:

﴿لَمَ تَلْبِسُونِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤٨).

فاليهود يعلمون أن الله تعالى
شرع حجاً... ويعلمون قدسية بيت
الله الحرام، ويعرفون أن جدّهم
إبراهيم الخليل عليه السلام بيتاً لعبادة الله
تعالى، مع هذا انكروا الحق وألبسوه
بالباطل وتوجهوا إلى أماكن ارتاحت
لها أنفسهم وثبتت فيها عنصريتهم.
ونسج الانحراف خيوطه فتاهت
الحقيقة عليهم جيلاً بعد جيل،
وضاعت معه مقدساتهم الحقيقية
ومعتقداتهم الواقعية، ولعب الهوى
أيضاً دوره، والإنسان ابن الهوى إذا لم
يقيده قيد ويرشده مرشد (٤٩)... وهذه
المسألة في غاية الدقة والأهمية.

الحجّ في الديانة المسيحية:

مضى النصارى على شاكلة
نظائرهم اليهود في اتخاذ وجهات
متعددة، ومراسم وسلوكيات خاصة،
خطّتها لهم خيالاتهم وأهواؤهم،

وهدّى للعالمين (٤٦). ومن غير
الممكن أن يجعل الله تعالى لفئة من
عباده بيتاً فيه البركة والهدى والرحمة
وغفران الذنوب... ويحرم
آخرين منه.

وقد روي عن الإمام موسى
الكاظم عليه السلام حين سُئل عن هذه الآية
﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ... وَمَنْ
كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ قال:
«من قال ليس هذا هكذا فقد
كفر» (٤٧).

إذن فالحج لغير بيت الله الحرام لا
يُقبل من أي إنسان أياً كان، فهو بدعة
لا يقبلها الله تعالى ولا تأخذ معنى
الحج الحقيقي.

هناك نصوص قرآنية تدين
الخلط بين الحق والباطل، وتدين
التباس الأمر على الناس نتيجة
الانحراف، وترجعها إلى انعدام الرؤية
الواضحة والصحيحة والاضطراب
عند بعض من الناس، من أضلهم
وأغواهم الشيطان للانحراف عن
الطريق المستقيم وعن جادة الصواب،

وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم وتصرفاتهم، حتى أحسوا أنهم على حق وغيرهم على باطل.

عرفوا الحج أنه طواف ودوار حول مقدسات العقيدة، فطافوا بمقدساتهم، وقدموا الأضاحي والنذورات والهدايا... بكوا وتضرعوا وطلبوا الغفران، وبعضهم ترك ملذات الدنيا المحللة والشهوات المباحة، واتجهوا للرهبانية عن الحياة ليتخذوا من (العذراء مريم) اسوة، ومن إلههم الثاني عيسى المسيح رباً - كما يزعمون - يغفر ذنوبهم ويكفر عنهم سيئاتهم ويدخلهم نعيم الجنة!! وانقسم المسيحيون إلى عدة فرق وكل فرقة اتخذت وجهة خاصة في الحج ومراسم وطقوس حج خاصة.

وقد خصص لهم كتابهم (الإنجيل المحرف) أعياداً دينية، كـ (عيد الفصح) و(عيد القيامة)، و(عيد الميلاد) و(عيد الفطاس)، وغالباً ما يصاحب أعيادهم حج وطقوس خاصة به. يقول أحد الكتاب المسيحيين

(فنسنك wensinck) في معنى الحج عندهم: «وقد فسّر لغويو العرب الحج بأنه «القصد» ويتفق هذا ومعنى الحج عندنا (أي عند النصارى) على أنه من الواضح أن هذا المعنى اصطلاحى، كالفعل العبري، ولعل المادة ومعناها في اللغات السامية الشمالية والجنوبية «يطوف» أو «يدور»...» (٥٠).

ولم نقرأ في إنجيلهم المحرف ذكراً للحج عندهم، بل هناك أعياد دينية، يفرحون بها ويذكرون الله (الأب) وابنه (يسوع المسيح) الذي جمع في تكوينه بين الروح الإلهية والتكوين الإنساني فهو - حسب تعبيرهم - مركب من إله وإنسان.

وعلى هذا فالمسيحية ذات إلهين وليس إلهاً واحداً، وإن ديناً له أكثر من إله واحد ليس ديناً توحيدياً بل ثنائياً أو ثلاثياً يُسيره الإله الأب والإله الابن وروح القدس.

فالمكان الذي وُلد فيه الإله الابن محجة أولى لهم، ومكان الصلب والرفع

محجة ثانية، وكل مكانٍ صلى فيه عيسى المسيح أو ظهر هو أو أمّه مريم العذراء، فهو مكان مقدس ومحجة لهم، وهذا الظهور والتجلي في أي زمان أو مكان أو لأي شخص منهم فهو مقدس ومحل زيارة ومحجة سنوية في أحد الأعياد الدينية التي رسمها لهم كتبة الإنجيل.

الإنسان المتدين بدين المسيحية كأَي إنسان آخر فهو ابن عقيدته، ونظرة أي إنسان إلى الحياة والكون ومفاهيمه في شتى المجالات، بل وحتى عواطفه وأحاسيسه كلّها تدور حول محور العقيدة التي يتبناها، والتي تسهم في بنائه الفكري والأخلاقي والاجتماعي والعبادي.

فإذا حكم الإنسان عقله تجلّى له الطريق الصحيح، وإذا قلّد أو غفل أو تعصب انحرف. فكتبة الإنجيل من أمثال هؤلاء الذين قلّدوا وغفلوا وتعصبوا فامتزج عندهم الحق بالباطل. وأول من أدخل البدع وحرّف في الديانة المسيحية، شاب

يهودي اسمه شاول يذكر قصته الكتاب المقدس في الاصحاح السابع من العهد الجديد، ادّعى أنّه حصلت له رؤيا ظهر فيها عيسى المسيح ودعاه الى التبشير. وفجأةً غير هذا الشاب اسمه إلى 'بولص' وأدخل في المسيحية ما ليس فيها؛ ليكسب بدعوته الوثنيين والجهال من اليهود ومن غيرهم. ففي كتاب: «المئة: تقييم الأشخاص الأكثر أهمية في التاريخ» فإنّ مؤلفه مايكل هارت يقول: «ليس هناك شخص لعب دوراً في الضخامة كالدور الذي لعبه بولص في إشاعة المسيحية»^(٥١).

وجهة النبي عيسى عليه السلام في الحج

وعيسى روح الله عليه السلام لبّى نداء نبي الله و خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، حين أمره الله تعالى أن يؤذن في الناس بالحج، وعلم (وهو من الأنبياء الكبار: أي من أولي العزم) من الله تعالى أن هذا النداء عام ولم يختص بشريحة معينة من شرائع المجتمع، بل هو يشمل جميع الأديان السماوية

وجميع الأنبياء والرسل، وهو تكليف عام، واجب على المكلفين ومستحب لغير المكلفين، وسنبين شروط التكليف في الفصول اللاحقة إن شاء الله تعالى.

وقد أكدت الروايات الشريفة عن الرسول ﷺ وعن أئمة الهدى عليهم السلام، حج ابن مريم عيسى روح الله ﷺ، إلى الكعبة الشريفة، فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده ليُهَلَّنَّ ابن مريم بفجِّ الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليشنَّيهما» (٥٢).

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، قال: «ومرَّ عيسى بن مريم عليه السلام بصفائح الروحاء وهو يقول: لبيك عبدك وابن أمتك» (٥٣).

وفي تحديد الوقت الذي كان الأنبياء يحجون فيه إلى البيت العتيق، ومن ضمنهم عيسى عليه السلام، قال الإمام الرضا عليه السلام:

«... وقتها عشرة ذي الحجة... النبيون آدم ونوح وإبراهيم وعيسى وموسى ومحمد (صلوات الله عليهم)

وغيرهم من الأنبياء، إنما حجَّوا في هذا الوقت، فجعلت سنة في أولادهم إلى يوم القيامة» (٥٤).

والنبي عيسى عليه السلام أحد أولي العزم الخمسة، ومن غير الممكن أن تكون وجهته في الحج مخالفة عن وجهة بقية الأنبياء والرسل، كأن يتخذ من بيت المقدس أو مكاناً آخر محجة خاصة له ولقومه واتباعه.

انحراف النصارى في الحج

والنصارى أو المسيحيون حالهم حال اليهود في التحريف والانحراف عن سنة الله والأنبياء، وعدم التزامهم بتعاليم نبيهم المرسل إليهم الذي ينسبون أنفسهم إليه، وما انزل عليه من شرائع السماء، وضرهم على تعاليم الشريعة بحُجب التحريف والكتان، والترك الصريح لها، وقد ذكرهم القرآن الكريم، مستنكراً أعمالهم وعبادتهم في آيات بينات كثيرة منها قوله تعالى:

«قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل

وما أنزل إليكم من ربكم وليزیدن كثيراً منهم وما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين» (٥٥).

فالآية الكريمة صريحة البيان واضحة المعنى أن أعمالهم ليست مقبولة، وهي لا شيء حتى يعملوا بما أمرهم الله من خلال الكتب السماوية المنزلة على أنبيائه.

عيسى عليه السلام كغيره من الأنبياء جاء بشيراً ونذيراً وهو بشر نبياً، لكن المسيحيين انقسموا فريقين من بعده: فريقاً كفروا وعادوا إلى وثنياتهم. والفريق الآخر جعل من شخصية عيسى عليه السلام مرتكزاً للدين وأخذ الدين اسمه من عيسى المسيح، وأخذت كل المعتقدات المسيحية تتمحور حول عيسى؛ المسيح. الأعياد المسيحية الرئيسية تتعلق بأحداث في حياة عيسى المسيح. ورمز العقيدة المسيحية، وهو الصليب، يشير إلى عيسى المسيح. وصلوات المسيحيين موجهة إلى عيسى لأنهم يعتبرون أن

الله نفسه لا يمكن أن يخاطبه إنسان عادي. وحسب ما يقوله المؤلف المسيحي فرتز رايدنور: «إن مفتاح العقيدة المسيحية هو أن عيسى المسيح كان في الواقع السبب في وجودها كلها، وأنه هو الذي يحافظ على تماسكها بأجمعه» (٥٦).

فهذه الملة من البشر جعلوا من أماكن ذكريات نبهم، وما تجلى لهم من شخصه وشخصية أمه عبر تاريخه إلى يومنا هذا، جعلوها أماكن حج دينية في أعيادهم السنوية... نذكر من هذه الأماكن المقدسة ما يلي:

١- اتجه بعض المسيحيين إلى بيت المقدس في فلسطين حيث الصليب الأصيل للسيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام اقتداءً بسنة الملكة هيلانة.

٢- واتجه قسم آخر إلى كنيسة رومة في إيطاليا (Rome rom).

٣- ومنهم من حج إلى لورد في فرنسا للمكان الذي ظهرت فيه السيدة العذراء لهم.

٤- وتوجه منهم إلى كنيسة (فاطمة) (Fatima) لتجلى السيدة النورانية صاحبة المسيحة فاطمة.

٥- وآخرون توجهوا إلى أماكن متفرقة كقبور الأسلاف من موتاهم، أو إلى الجبال وغيرها من الطبيعة.

وسنحاول قراءة كل واحدة من هذه النقاط قدر استطاعتنا، وإلقاء الضوء على الموقع الجغرافي ونبذة عن تاريخها إن شاء الله تعالى.

الحج إلى بيت المقدس

التوجه في الحج إلى بيت المقدس، لم يرد فيه نص لا في التوراة ولا في الإنجيل، بل سنة اتبعت نتيجة أسباب معينة، فعند النصارى كان السبب الرئيسي هو اتباع سنة الملكة، (هيلانه) (ste) (Helene) أمّ الامبراطور قسطنطين، التي اكتشفت العود الأصلي، الذي صُلب عليه عيسى المسيح، فجعل ذلك اليوم مباركاً وعيداً يحج فيه إلى بيت المقدس الذي يحتضن العود المقدس...

«وهيلانة التي اهتدت إلى الدين المسيحي، وقامت عام (٣٢٦م) بجولة تفقدية في الشرق، زارت خلالها الأماكن المقدسة في فلسطين، وقامت ببناء كنائس في أورشليم وبيت لحم. يُروى أنّها عثرت على عود الصليب الحقيقي» (٥٧).

ويُروى أنّها «كرست اهتمامها لكشف مواضع الحوادث المهمة للمسيحيين، ولبناء كنائس تذكراً لها» (٥٨).

فالمسيحيون يكرّمون «كنيسة القبر المقدس، التي تقوم على المكان التقليدي لجبل (الجلجثة)، الذي يعتقد المسيحيون أن المسيح صلب عليه. يحيط بالمدينة القديمة سور شيدته السلطان سليمان القانوني عام (١٥٤١)، وفي شرق المدينة القديمة يقع وادي قدرون وبه بستان جشمانى» (٥٩) و«حينما منع الأتراك السلاجقة، المسيحيين من زيارة بيت المقدس، وهدموا كنيسة القبر المقدس (الآن كنيسة القيامة) قامت الحروب

وهو يوم ٢٥ ديسمبر بالتقويم الغربي ،
ويوم ٢٩ كهيك بالتقويم القبطي ،
احتُفِلَ به قبل (٢٠٠) ، ثم انتشر
وأصبح شائعاً وشعبياً في القرون
الوسطى ، التصقت به عادات وتقاليد
قومية ، مثل غناء الترانيم ، وتبادل
الهدايا وإرسال التهاني ، وغير ذلك ،
أما إقامة (شجرة عيد الميلاد) فهي
عادة ألمانية الأصل (٦٢) .

وهنا لا يهمننا هذا العيد ، ولكن
الشيء بالشيء يذكر ، لأنهم يستحب
لهم في عيد الميلاد زيارة (كنيسة
القيامة المقدسة) إن استطاعوا ، وإلا
فأي كنيسة أخرى .

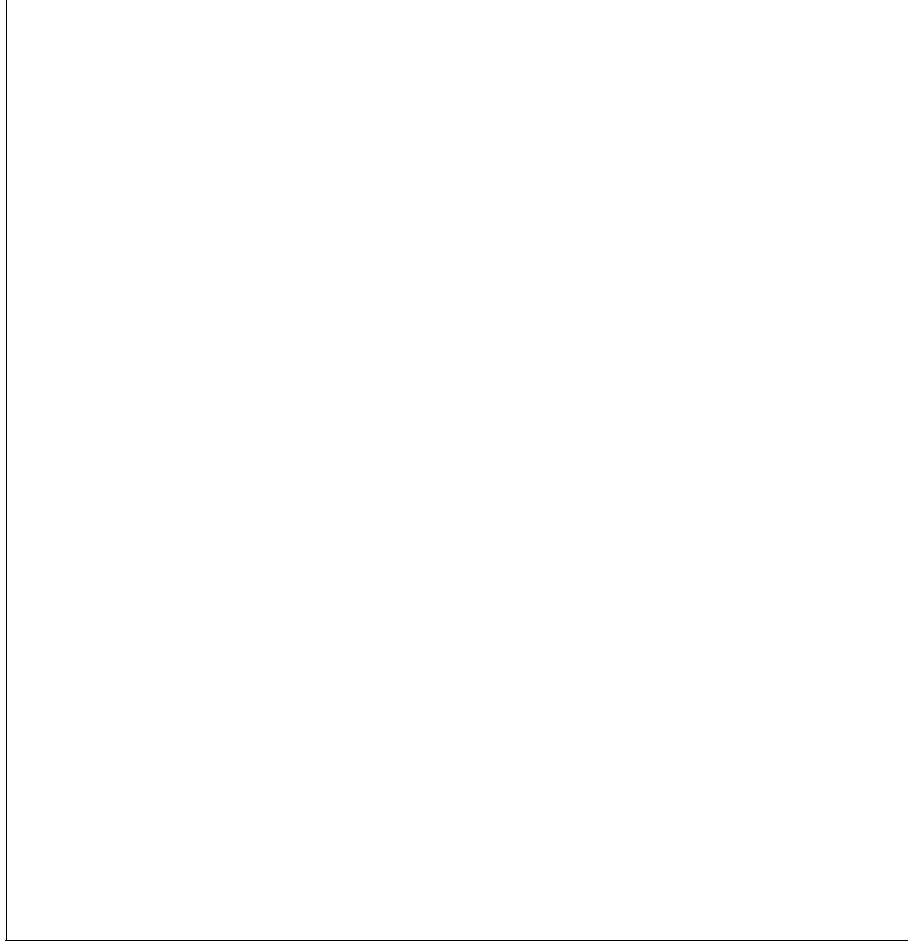
أما الحج إلى (كنيسة القيامة) في
بيت المقدس الشريف المُسن من قبل
الملكة هيلانه ، فهو ذكرى العثور على
عود الصليب الأصلي كما ذكرنا سابقاً ،
يحيون ذكره ، حتى أصبحت عادة
وسنة جيلاً بعد جيل ، وكأنهم يحجون
إليه لفريضة أو أمر إلهي شرعه له
عيسى المسيح ﷺ فتركز في نفوسهم ،
أما حقيقة هذا الحج فهو التراث الذي

الصلبية ، فسقطت في أيدي الصليبيين
عام (١٠٩٩) ...» (٦٠) .

والزيارة أو الحج إلى كنيسة
القيامة (كنيسة القبر المقدس) ، عادةً
تكون في عيد الفصح السنوي وهو :
«العيد الرئيسي عند المسيحيين ، وهو
ذكرى قيامة المسيح بين الأموات في
العقيدة المسيحية ، ويقع بين (٢٢)
مارس و(٢٥) أبريل ويرتبط به عدد
كبير من الأعياد الأخرى ، ويُسبق
بالصيام الكبير الذي يدوم أربعين
يوماً ، ويجتمع معه «آلام
المسيح» ...» (٦١) .

وعيد الفصح : عيد ديني تُمارس
فيه أوامر ونواهٍ خاصة كالصوم
والصلاة والدعاء والنذور والأضاحي
وغيرها ، ويختلف بكثير عن عيد
الميلاد المسيحي المشهور ، الذي تحوّل
إلى عيد قومي يُلزم به المتدين وغير
المتدين من المسيحيين ، وهو ذكرى
مولد السيد المسيح ، يلي صيام أربعين
يوماً (هذا بالنسبة للملتزمين ، أما غير
الملتزمين فلا يعنيه هذا الصيام) ،

خَلَّفَتْهُ (هَيْلَانَهُ)، فَهُوَ تَرَاثٌ وَحَجٌّ مَزِيْفٌ وَلَيْسَ حَجًّا إِلَهِيًّا حَقِيقِيًّا.



كنيسة القيامة في القدس الشريف

رومة في إيطاليا Rome [rom]	ويطلق عليها: (المدينة الخالدة)
تعدُّ روما من المدن المهمة	وكذلك (المدينة المقدسة) وهي وسط
والمقدسة للمسيحيين، وهي مركز	إيطاليا قرب الساحل الغربي على
ثقافي وفني وديني منذ عهد طويل	ضفتي نهر «التيبر»، عاصمة إيطاليا،

الشعوب على 'اختلافها' (٦٥).
وروما المدينة الجميلة ذات
الطبيعة الخلابة والآثار المجدبة ومقر
الكنيسة الكاثوليكية ومقر الكرسي
الرسولي، التي تستهوي القلوب
المسيحية التي تعلقت بشخص عيسى
المسيح ﷺ، اعتُبرت كنيستها والآثار
المحيطة بها، محجةً سنوية ومركزاً
تجارياً وترفيهياً.

والحج لهذه المدينة الأثرية - في
اعتقادنا - ما هو إلا نزهة سنوية
ترفيهية أكثر مما هي معنوية الهية أو
روحية.

إنّ هذا النوع من النزهة السنوية
ممكّن في كل مكان وزمان، ولم يتوفر
على أيّ من شروط الحج، ونحن نعتقد
وتبعاً لما نعرف من الأوضاع
الاجتماعية المتردية في الغرب، لا بد
وأن يصاحب هذه السفرة السياحية
قضايا وامور انحرافية لا أخلاقية مما
لا يرضى الله بها ولا السيد المسيح
نفسه، فكيف يطلقون على 'هذه النزهة
«حجاً»؟!«

وفيها الفاتيكان مقر البابوية، وكان
للإصلاح الكاثوليكي بعد عام
(١٥٢٧)م أثر في استفادة البلاط
البابوي - بعد أن خرب جنود شارل
روما عام ١٥٢٧م - وكذلك استعاد
مكانته وسلطته الروحية. استمرت
روما في الازدهار والإفادة من وفود
جموع الحجاج عليها (٦٣).

وروما من كُبرى مُدن إيطاليا،
ويرقى تاريخها إلى القرن الثامن قبل
الميلاد. كانت فيما مضى عاصمة
الجمهورية الرومانية، ثم عاصمة
الامبراطورية الرومانية، ثم عاصمة
المقاطعات البابوية... وهي اليوم
عاصمة الجمهورية الإيطالية،
والعاصمة الإدارية والروحية
للكنيسة الرومانية الكاثوليكية
بوصفها مقرّ الكرسي الرسولي (في
الفاتيكان) (٦٤).

جاء في تاريخ الحضارات العام:
«فإننا نشاهد عناصر عديدة من
المسيحيين تقوم في العاصمة روما،
ملتقى جميع الملل والطوائف، ومحجة

والظاهر أن زيارة المسيحيين لرومه تكون عادةً في عيد القيامة، ويصاحبها استعمال البخور والماء المقدس في التطهير، وإيقاد الشموع وتقديم النذور وبعض الأضاحي^(٦٦).

كنيسة لورد في فرنسا Loord

ابتدع هذا الحج عام (١٨٥٨م) أي بعد ميلاد السيد المسيح ﷺ بأكثر من ثمانية عشر قرناً، ويرجع سببه إلى ادّعاء إحدى راهبات الكنيسة في فرنسا أنها شاهدت مريم العذراء، تجلت لها بجوار المغارة التي كانت بالقرب منها.

ولورد: بلدة في الجزء الجنوبي الغربي من فرنسا. كانت في القرون الوسطى ذات موقع استراتيجي هام. أصبحت منذ العام (١٨٥٨م) محجاً يقصده المرضى من الكاثوليك التماساً للشفاء بعد الذي أذيع من أن العذراء تجلّت غير مرة، في مغارة هناك لفتاة ريفية اسمها برنات (Bernadette)^(٦٧).

وتدّعي الكتب المسيحية أن

برنات سوبيروس... المولودة عام (١٨٤٤م) في لورد (فرنسا) ظهرت لها السيدة العذراء عام (١٨٥٦م) أو (١٨٥٨م)، أي كانت بالغة من العمر (١٢ - ١٤) عاماً، ودعتها إلى تأسيس معبد (لورد) الحالي، وكانت وفاتها عن عمر يناهز (٣٥) عاماً أي عام (١٨٧٩م)^(٦٨).

ومدينة لورد الواقعة بمقاطعة البرانس العليا جنوب غرب فرنسا يؤمها حوالى مليون زائر سنوياً، التماساً للعلاج عن طريق المعجزات^(٦٩).

ولا شك أن (مُودة) ظهور السيدة العذراء وتجليها للنصارى، أصبحت معروفة: وهي إما خيالات لمغالين أو لأغراض سياسية أو اجتماعية أو تبشيرية أو لأُمور أخرى! علماً أن هذه المغارة أصبحت لهم (باب المراد) يطلبون حوائجهم منها وينذرون لها ما استطاعوا إليه سبيلاً أو أكثر، يحيون الليل بالبكاء والتضرع آملين من العذراء غفران الذنوب

الميلادي، استولت عليها أوربا وانجلي الإسلام عنها، وأصبح أغلب سكانها من المسيحيين.

وفي عام (١٩١٧م) أصبحت فجأةً محجةً للمسيحيين ومقصداً للزوّار، والمتابع لأخبارها يعجب للدين المزيج من التعاليم المسيحية والتعاليم الإسلامية، خصوصاً عند أهل القرية التي تحتضن كنيسة فاطما...

وبدأت القضية هكذا: ثلاثة أطفال قرويين يفتحون عيونهم على حقيقة تجلت لهم في ضواحي القرية، لتصبح فيما بعد مَعِيناً متدفقاً لاعتقاد عميق في حياة أبناء هذا البلد. الأطفال هم: جاسنيتا - سبع سنوات - وفرانسيسكو - تسع سنوات - ولوسيا - عشر سنوات - الشاهد الأصلي لهذه الحادثة هي لوسيا. وتروي ألسنة الأطفال الثلاثة الحادث على النحو الآتي: في عام ١٩١٦، قبل عام واحد من رؤيتنا السيد التي تشع بالنور، تراءت لنا

وستر العيوب والشفاء من الأمراض. وعجباً لسذاجة بعض المسيحيين، أن يطلقوا على هذه الأماكن، أماكن حج يُعبد فيها الرب الإله والرب اليسوع عيسى وأُمّه، تذكرها كتبهم بكل جرأة ووقاحة... تجربهم طفلة أحببت العذراء مريم عليها السلام وتعلقت بها وتخيّلتها مرّات، هذا تعلّقنا على هذه القضية إن صحت الأخبار في نقلها...

كنيسة (فاطيمة) في البرتغال
«Fatima»

وقصة فاطما تتمحور في قضية مقدسة حدثت في أوربا، اهتم بها العالم المسيحي. لأنها من شؤونه الدينية الخاصة، وقد ارتبطت هذه القصة باسم يمت إلى العالم الإسلامي بصلة.

وفاطما: قرية في شبه جزيرة (فيبري) غرب اسبانيا في مدينة ليشبونة في البرتغال، فتحتها عبد الرحمن عام (٧١٠م) وبقيت تحت راية الإسلام حتى القرن الحادي عشر

«ملاكاً» ورددت هذه العبارة:

لا تخافوا... أنا «ملاك السلام». وقالت أيضاً «إلهي! أنا أعتقد بك وأؤمن بك وأحبك، وإني أطلب الغفران لهؤلاء الذين لا يؤمنون، ولا يعتقدون بك، ولا يحبونك».

بعد ذلك تراءت لهم ملاكاً مرتين في الصيف والخريف، وفي كل مرة كانت تقول لهم: «قدموا الأضاحي، واستغفروا للمذنبين وادعوا لهدايتهم» وقد لعبت المواقف الثلاثة دوراً في تهيئة الأطفال لرؤية السيدة صاحبة المسبحة، وفي الثالث عشر من آيار (مايس) ١٩١٧م، رأى الأطفال هالة النور مرتين، ثم أطل نور عظيم من أعلى شجرة البلوط، سيدة أشد ضياء من نور الشمس تسمى «فاطمة» راحت تكلمهم:

- لا تخافوا، لا أريد أن أخيفكم

- من أنت؟

- فاطمة بنت الرسول

- من أين جئت؟

- جئت من الجنة

- ماذا تريد منّا؟

- جئت لأطلب منكم أن تواظبوا على المجيء إلى هنا، وسأقول لكم فيما بعد ماذا أريد منكم. وأخذت تظهر كل شهر وفي لقاءها السادس والأخير أظهرت معجزة كبرى أمام أنظار سبعين ألف شخص كانوا قد احتشدوا لرؤيتها... إذ شاهدت الحشود المنتظرة، توقف هطول المطر فجأة، واهتزت الشمس واستقرت، ثم دارت مرتين بنحو ظن الناس بأنها ستسقط في أي لحظة على رؤوسهم. ثم عادت الشمس إلى موضعها. وأول صحيفة نشرت هذا الخبر (صحيفة ليسبون) في الخامس عشر من تشرين الثاني من العام نفسه^(٧٠).

وهناك مصدر آخر يقول: «ان فاطمة قرية وسط البرتغال زعم أن السيدة العذراء ظهرت لثلاثة من أطفالها (أطفال القرية) في ١٣ مايو عام ١٩١٧م. ومنذئذ أصبحت محجة يقصد إليها المسيحيون من مختلف أرجاء الأرض...»^(٧١).

وتعتبر ليلة الثالث عشر من مايو - يوم الحادث - من كل عام ليلة الدعاء المهمة في مزار فاطميا، إذ ينبغي وفقاً لوصية السيدة صاحبة المسبحة، قضاؤها بالدعاء والتسبيح والاستغفار، وهو درس تعلّمه الناس هنا من السيدة فاطميا؛ ليصبح فيما بعد واحداً من معتقداتهم وتصوراتهم الدينية. والطريف أن هذه الحشود البشرية، التي تقطع مئات الكيلومترات كل عام من شمال البلاد وجنوبها، قاصدة هذه المدينة المقدسة، لم يثنها عن مجيئها حرّاً ولا برد، ولا ليل ولا نهار، بل وبعد انتهائها من الزيارة يتمم كل واحد بهذه الكلمات:

«سيدتنا فاطميا! السيدة صاحبة المسبحة! السيدة هالة النور! أنا مضطر الآن للابتعاد عنك، ولكن أطلب من الله أن لا يجعل هذا اللقاء آخر لقائي بك، وأن يكون هذا الالتماس وهذا الشوق حياً في وجودي دائماً يا فاطمة! في أمان الله يا سيدتنا

الطاهرة» (٧٢).

وتعليقنا على هذه الواقعة التي جاءتنا من بعيد، من البرتغال أو بالأحرى من قرية نائية من البرتغال، من بيئة مسيحية، واقعة شاهد آثارها عدد كبير، وزارها الباب نفسه (٧٣)... وفي نفس الوقت تتعلق القضية بشأن إسلامي مهم هو ظهور السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ ذات المسبحة (٧٤).

ونحن نحترم السيدة مريم العذراء ﷺ، وفي الوقت نفسه نقدر السيدة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، فهل يا ترى أن الذي ورد صحيح مئة بالمئة؟ ذلك ما لا أستطيع أن أنفيه على الأقل...

ولكن أتساءل... لم نقرأ أن مجموعة من المسيحيين ومنهم صاحبة القضية الأصلية الراهبة (لوسيا) أنهم أسلموا مع أن القضية تستحق الإسلام، هذا إذا كان التجلي لشخص فاطمة الزهراء ﷺ، وإذا كان التجلي لشخص مريم العذراء ﷺ فلم نقرأ أن لمريم ﷺ اسماً يشابه اسم فاطمة؛ لكي



تُسمى المنطقة باسمها.

ثم إن اهتزاز الشمس ودورانها مرتين ورجوعها إلى حالها منذ زمن قريب جداً (سنة ١٩١٧م) ... ليس أمراً عادياً، إنه أمر كوني تنقلب له الدنيا وتهتز له عقول العلماء الفلكيين، ولكن لم نسمع ولم نقرأ عن هذا الحدث الكوني شيئاً، في حين أن تسجيلات خسوفات وكسوفات عادية جاءت من آلاف السنين.

إن القضية أو القصة يجب أن تُقرأ بشكل مفصل نظرياً وميدانياً، والله أعلم ما وراء ذلك ...

وقد سمعنا من أحد الناقلين القادمين من البرتغال أن التي تجلت لهم^(٧٥) كانت (فاطمة) بنت أحد الخلفاء المسلمين وليست بنت الرسول ﷺ، فإن كانت هذه أو تلك فالقضية تحتاج إلى دراسة أكثر كما ذكرنا أعلاه ...

حجهم إلى مقدسات أخرى

إضافة إلى ما ذكرنا من مقدسات النصراني، هناك أماكن أخرى قدسها

البعض منهم؛ كقبور الموتى وبعض الأشجار التي رُمز لها (بشجرة عيد الميلاد) وبعض الجبال وغيرها، ونذكر هنا تقديسهم وحجهم للقبور القديمة: كانت طريقة الدفن المسيحية آخر ما تُكرَّم به حياة المسيحي، ذلك أن من عقائد دينهم عودة الحياة إلى الجسم والروح، ولهذا كان يُعنى بالميت أشد عناية، فيقوم قسيس بالخدمة الدينية للميت وقت دفنه ... فكان العمال يحفرون طرقات طويلة تحت الأرض مختلفة البُعد عن سطحها، توضع فيها أجسام الموتى في دياميس بعضها فوق بعض ممتدة على جانبي هذه الطرقات، وسار الوثنيون واليهود على هذه السنة نفسها، ولعلمهم فعلوا هذا ليسهلوا مشقة الدفن ونفقاته على الجمعيات التي كانت تقوم بهذه المهمة. ويبدو لنا أن بعض هذه الطرقات قد جعلت ملتوية عمداً، وقد يبعث على الظن بأنها كانت تستخدم كمخابئ في أوقات الاضطهاد، فلما أن علا شأن المسيحية

وانتصرت على أعدائها زالت عادة دفن الموقى في السرايب، وأضحت الدياميس أماكن معظمة «يحجُّ» إليها الناس (٧٦).

والظاهر أن هذه الدياميس بقيت محجة لمئات السنين حتى حلَّ القرن التاسع الميلادي، سدَّت السرايب ونسيها الناس، ولم تُكشف إلا بطريق المصادفة عام (١٥٧٨) ميلادية (٧٧).

وكذلك عادة تقديس بعض الجبال وبعض الأشجار، فقد انقرضت بظهور عادة الحج إلى رومة وفاطما ولورد والقدس وغيرها من المقدسات الحديثة...

تلخيص واستنتاج

والحج المسيحي هو الآخر ليس حجاً إلهياً صحيحاً، وذلك بسبب من أصل العقيدة التي اختاروها أو صنعوها ومزجوا بها بين الله والانسان، فديانتهم التي اختارتمها عقولهم رأَت أن المسيح ﷺ هو الإله (الابن) المكمل للإله الحقيقي،

فالمسيحية هي ديانة ذات إلهين وليس إلهاً واحداً، وأن ديناً له أكثر من إله واحد ليس ديناً توحيدياً... وكما ذكرنا في المقدمة ما قالته

(بربارة براون) الكاتبة الأمريكية التي أسلمت عن قناعة راسخة بعد أن رأَت أن المعتقدات المسيحية كلها تدور حول الإله الابن (عيسى ﷺ) وقالت: «إنَّ المسيحية هي ديانة ذات إلهين وليس إلهاً واحداً» (٧٨)، والأعياد والصلاة و... و... كلها موجهة إلى عيسى المسيح...

وكذلك الحج عندهم ليس عبادة خالصة موجهة إلى الواحد الأحد - كما عند المسلمين - بل هي مرتبطة إما بشخص عيسى ﷺ أو مكان ذكرياته كمسقط رأسه أو العود الذي صُلب عليه، أو المكان المرتبط بالسيدة العذراء مريم ﷺ إذا تجلَّت لهم في خيال أو تصور أو منام أحدهم أو للمغالين منهم...

ومن هنا تبين الانحراف والابتعاد عن الحج الحقيقي، الذي

بالإنسانية، اصطفاه الله تعالى ليكون رسولاً نبياً. وأمه أيضاً لا يمكن أن تُعبد أو أن تكون في مقام أم الإله يسوع - كما يدعون -، فهي امرأة انسانية، لكنها وصلت مرحلة الأولياء الصالحين نتيجة علاقتها بالله وعبوديتها الحقّة له، ممّا جعلها سيدة نساء زمانها، وأمّ نبي الله. وأمّا النصارى فقد أشركوا بالله تعالى، حين جعلوا العيسى عليه السلام وأمه عليه السلام مقام الإلهية...

وضع الله الواحد الأحد هدفه الأسمى والأول والآخر، وغير ذلك لا يمكن أن نعتبره حجاً بأي حال من الأحوال مهما كان صاحبه مخلصاً، ومهما عمل من الأعمال والمناسك الدينية... فالحج عند النصارى إذن ليس مرتبطاً بالإله الحقيقي بالمرّة، وإنما مرتبط بالإنسان الذي خلقه الله تعالى للبشر؛ ليُبشّر ويُنذر وليبين الحق من الباطل... والنبي عيسى عليه السلام ما هو إلّا بشرٌ مثلنا يُشاركنا ونشاركه

الهوامش :

- (١) دائرة المعارف الإسلامية ٧: ٣٠٥.
- (٢) طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاها، الفيصل، العدد ٢١٠: ١٠.
- (٣) سنن ابن ماجه ٢: ٩٦٥، محمد بن يزيد القزويني، الحلبي وشركاه.
- (٤) وسائل الشيعة ١٢: ٣٨٥ ح ١٦٥٧٤.
- (٥) وسائل الشيعة ٩: ٥٤.
- (٦) بحار الأنوار ٩٩: ١٨٥، الطبعة البيروتية.
- (٧) أخبار مكة، الأزرق: ص ٦٨-٦٩.
- (٨) البقرة: ٦١.
- (٩) طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاها، الفيصل، العدد ٢١٠: ١٠.
- (١٠) انقسم اليهود بعد موسى عليه السلام إلى عدة فرق ودويلات من الناحية السياسية ومن الناحية القبلية ومن الناحية الدينية، والذي يهمنّا هنا انقسامهم من الناحية الدينية، فقد انقسموا إلى خمس فرق دينية، وهي: فرقة

- الفريسيين وفرقة الصدوقيين، وفرقة السامريين، وفرقة الحدسيين، وفرقة القرائين.
- (١١) طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ٢١٠: ٩.
- (١٢) معجم البلدان ١: ١١٢.
- (١٣) انظر الموسوعة العربية الميسرة: ٤٥٤.
- (١٤) انظر الموسوعة العربية الميسرة: ٤٥٤.
- (١٥) التلمود: تعاليم دينية وضعها علماء اليهود، وهي كالرسائل العملية عندنا، مع فارق لا قياس فيه.
- (١٦) العهد القديم، سفر الخروج، الاصحاح ٢٩: «خذ ثوراً واحداً ابن البقر وكبشين صحيحين و... الخ» راجع.
- (١٧) اليهود واليهودية، د. علي عبدالواحد وافي: ٤٤ - ٤٥، وكتاب حقائق وأباطيل، فوزي محمد حميد: ١٤١ - ٢٠٠.
- (١٨) المصدر نفسه، ومن المعلوم عندهم أن يكون دم الضحية من غير اليهود، وإذا كان دم مسيحي فيكون أفضل عندهم.
- (١٩) انظر العهد القديم، سفر اللاويين، الاصحاح ٢٣، الفقرات ٥ - ٩.
- (٢٠) الموسوعة العربية الميسرة: ١٢٤٧.
- (٢١) قصة الحضارة، مج ٦، ١: ٢٦٤.
- (٢٢) فرعون موسى، د. سيد كريم، مجلة الهلال، العدد ٥: ٧٣، عام ١٩٧٥م.
- (٢٣) المصدر السابق.
- (٢٤) راجع سفر الخروج (العهد القديم) يبين ويوضح جغرافية ذلك المكان.
- (٢٥) دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين ٧: ٣٠٦.
- (٢٦) راجع المصدر نفسه: ٣١٠.
- (٢٧) دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين ٧: ٣٠٦.
- (٢٨) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح ٢٥، الفقرة ١١.
- (٢٩) المصدر السابق، الاصحاح ٢٤، الفقرات ٦٢ - ٦٧.
- (٣٠) انظر الموسوعة العربية الميسرة: ٧٦٤.
- (٣١) طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ٢١٠: ٧.
- (٣٢) نابلس: مدينة بالمملكة الأردنية الهاشمية، على الضفة الغربية لنهر الأردن، وعلى بُعد ٦ كم شمال بيت المقدس، يعيش بها عدد قليل من السامريين القدامى، الذين مازالوا يحافظون على طقوس عبادتهم وعلى تقاليدهم القديمة. ذكرتها التوراة باسم شكيم بمعنى منكب، انظر الموسوعة العربية الميسرة: ١٨١١.
- (٣٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم ١: ٨٢.
- (٣٤) انظر طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ٢١٠: ٧.
- (٣٥) الموسوعة العربية الميسرة: ١٨١١.

- (٣٦) الملل والنحل، الشهرستاني، ت ٥٥٤٨: ٢٠٠، الطبعة الإيرانية.
- (٣٧) سفر القضاء، الإصحاح ٤، الفقرات ٤-٥.
- (٣٨) مفاتيح الجنان، الحاج الشيخ عباس القمي، دعاء السمات.
- (٣٩) سفر التثنية، الإصحاح ١٢، الفقرات ١-٧.
- (٤٠) طقوس الحج عند اليهود: ٧.
- (٤١) التنعم: يعني بنين أو بمعنى الذرية.
- (٤٢) سفر التكوين، الإصحاح ١٨، الفقرات ١-١٤.
- (٤٣) طقوس الحج عند اليهود: ٧.
- (٤٤) الحج: ٢٧.
- (٤٥) آل عمران: ٩٧.
- (٤٦) آل عمران: ٩٦.
- (٤٧) وسائل الشيعة ١١: ١٦، ح ٤١٢٨.
- (٤٨) آل عمران: ٧١.
- (٤٩) نقصد بالقيود والمرشد: العقل والإيمان الحقيقي، والارتباط بالله تعالى.
- (٥٠) دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين ٧: ٣٠٤.
- (٥١) عن كتاب: نظرة عن قرب في المسيحية، بربارة براون: ٢٢.
- (٥٢) مسند أحمد ٢: ٢٤٠ و ٢٧٢ بتفاوت يسير و ٢٩٠ في حديث قال فيه: «وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما».
- (٥٣) بحار الأنوار، المجلسي ٩٩: ١٨٥، الطبعة البيروتية.
- (٥٤) المصدر نفسه.
- (٥٥) المائدة: ٦٨.
- (٥٦) كيف تكون مسيحياً في عالم غير مسيحي: ١٧٦، نقلاً عن نظرة عن قرب في المسيحية، بربارة براون: ١٤.
- (٥٧) معجم الحضارات السامية، هنري س. عبودي: ٨٩٦، طرابلس-لبنان.
- (٥٨) العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة: ٣٩٠، العربي للإعلان والنشر.
- (٥٩) الموسوعة العربية الميسرة.
- (٦٠) المصدر نفسه.
- (٦١) الموسوعة العربية الميسرة: ١٢٤٧.
- (٦٢) انظر المصدر السابق.
- (٦٣) انظر الموسوعة العربية الميسرة: ٨٩٨-٩٠٠.
- (٦٤) انظر موسوعة المورد، منير البعلبكي ٨: ١٦٣.

- (٦٥) تاريخ الحضارات العام، اشراف موريس كروزيه ٢: ٤٢٦.
- (٦٦) انظر قصة الحضارة ١١: ٣١٤ - ٣٢٠.
- (٦٧) موسوعة المورد ٦: ١٤٨.
- (٦٨) المنجد، لويس معلوف: ١٢٧، دار الشرق - بيروت.
- (٦٩) انظر الموسوعة العربية الميسرة: ١٥٧٤.
- (٧٠) «فاطيمة» مهوى الأفتدة وملاذ المتضرعين، الطاهرة، العدد ٧٠: ١١ - ١٢.
- والفلم التحقيقي الذي عرضه تلفزيون الجمهورية الإسلامية باللغة الفارسية.
- (٧١) موسوعة المورد، البعلبكي ٤: ١٠٨.
- (٧٢) «فاطيمة» مهوى الأفتدة وملاذ المتضرعين: ١٣.
- (٧٣) في عام ١٩٦٧م. في الذكرى الخمسين لإقامة المزار، زارها البابا بولس السادس تجليلاً للبقعة المقدسة وتكريماً لها. كما زارها الباب بولس الثاني عام ١٩٨٢م.
- (٧٤) الطريف أن حجاج تلك الكنيسة يحملون بأيديهم مسيحة ويسبحون كتسبيح الشيعة الإمامية أي: يذكرون الله (٣٤) مرة (الله اكبر)، ويحمدون الله (٣٣) مرة (الحمد لله)، ويسبحون الله (٣٣) مرة (سبحان الله)، كل بلغته الخاصة.
- (٧٥) أي تجلت للأطفال الثلاثة.
- (٧٦) انظر قصة الحضارة ٦، ١١: ٢٨٥ - ٢٨٦.
- (٧٧) المصدر نفسه.
- (٧٨) نظرة عن قرب في المسيحية: ١٣.

من رحلات الحج الإيرانية (٣)

مقتطفات من يوميات مكة لكريمة فرهاد ميرزا

هذه هي إحدى يوميات السفر إلى مكة، التي كُتبت في العهد القاجاري، وكاتبة هذه اليوميات هي كريمة فرهاد ميرزا (صاحب إحدى يوميات الحج هو الآخر والتي طُبعت مراراً). وحسام السلطنة هو عمُّ الكاتبة، وهو كاتب اليوميات المعروفة باسم «سفرنامه مكة» والذي طبع على شكل كتاب مستقل. وجدير بالذكر أن حسام السلطنة كان قد حضر حج العام نفسه، الذي تشرفت به كاتبة هذه اليوميات بالحج ودوّنت هذا الكتاب، وكتب هو الآخر يومياته في السنة نفسها. وقد أورد الكاتبان ذكراً عن بعضهما الآخر في يومياتهما.

وأما ما يخصّ كريمة فرهاد ميرزا فلا نعلم عنها سوى أنها كانت زوجة وزير العسكر، وقد تكدرّ مزاجها كثيراً عند سماعها بالمرض الشديد الذي أصاب وزير العسكر في أواخر سفرها.

وقد تعرضت هذه اليوميات كغيرها من اليوميات المؤلفة، في العهد القاجاري، إلى بيان منازل الطريق إلى الحج والمشاكل والعقبات، التي يواجهها

المسافرون . وكانت القوافل إبان ذلك الوقت قلما تخلو من مواجهة المصاعب والمشاكل ، وخصوصاً عند تعرّضها للهجمات ، التي كان يقوم بها الأعراب وقطاع الطرق . وقد أطنب المؤلف في وصف تلك العقبات والمشاكل .

لقد سعى رجال البلاط في العهد القاجاري بجدّ إلى التعرف على الأدب والثقافة والتاريخ ، وهو أمرٌ شمل عدداً محدوداً من نساء الطبقة العليا لتلك العوائل . والكتاب الذي بين أيدينا هو خير شاهد على مستوى الثقافة الذي تطلّعت به بعض نساء البلاط آنذاك ، وتأتي أهمية هذا الكتاب إضافة إلى ما ذكر في كونه تأليفاً لامرأة ، من طبقة الأشراف ، حيث يعكس انطباعاتها بمهارة ، وهو ما يميّزه عن باقي اليوميات المكتوبة في الفترة نفسها . وهذه اليوميات ، التي تعود إلى العهد القاجاري هي الثانية بعد يوميات السفر المنظومة في العهد الصفوي من قبل امرأة مثقفة ، وقد طبعت ونشرت .

وقد تمّت تهيئة هذا المتن طبقاً لنسخة كانت معروفة لدينا ، هي نسخة محفوظة في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي رقم ٢ تحت رقم (١٢٢٥) (الفهرست ، ج ٢ ، ص ١٧٢) .

بداية الرحلة

هذه هي يوميات الرحلة إلى بيت الله الحرام ، التي اكتبها بمعونة الله القادر المتعال مشروطة بسلامة مزاجنا .

يوم الثلاثاء ٢٤ / شهر رمضان المبارك / ١٢٩٧ هـ ، لأربع ساعات بقين للغروب . تحركنا بالطالع الحسن من دار الخلافة ، ...

بداية السفر إلى الحج^(١)

ليلة السبت ، الثالث من شهر ذي القعدة الحرام ، جلستُ حتى الساعة السابعة مشغولة بالكتابة والتوديع وأردّد مع نفسي :

إلهي آمَنِي حتى أرى ثانيةً وجه الأُحبة وعيون المحبِّين .
وبعد كتابة الرسائل أعطيت الظروف إلى الساعي ، ثم نمتُ بعض الوقت ،
وبعدها سمعتُ صوت الطُّبَل .

الحقُّ أنَّ رُوحِي تكاد تخرج من جسدي اليوم . فقمْتُ وتوضأتُ وأدَّيتُ
فريضة الصبح . فقيل : بسم الله ، اركبوا . فجاء من كربلاء واحدٌ أو اثنان من
المودَّعين . إنَّ التحركَ اليوم أشدُّ وطأةً من تحركنا من طهران . وبعد قولنا بسم الله ،
استودعنا الجميع بحفظ الله ! وتحركنا من الحاضرة من هناك ولساعتين بقيتا
للغروب نزلنا ، وكان الهواء حارًّا والسير غير طبعي . عسى الله أن يتفضَّل علينا
بالفرحة والسلامة في مسيرنا خلال هذا السَّفر الطويل .

يوم السبت ، الثالث من شهر ذي القعدة الحرام ، كان المنزل في « خان شور » .
فقضينا الليلة هناك ، وعند السَّحر دقَّ الطُّبَل ، وبعد أداء صلاة يوم الأحد الرابع ،
من الشهر نفسه ، ركبنا وتابعنا المسير . وفي أثناء الطريق كانت هناك قلعة وعين
ماء تُعرف بـ (عين سعيد) . فغرس أمير الحاج عبد الرحمن هناك لواءً لأجل أخذ
الماء ، ويبدو أنَّه لا يمكن الحصول على الماء حتى اليوم التالي . فأقننا في الخيام ، وقد
استعذت بالله واستعنت به على صعوبات الطريق وشدة حرِّ النهار ، ورجوتُ أن لا
أمرض .

ليلة الاثنين ، الخامس من ذي القعدة الحرام ، عند مُنتصف الليل ركبنا ،
ولساعتين بقيتا للغروب ترجلنا في صحراء لا يرى فيها إلَّا الرمال . وبقينا في هذه
الصحراء إلى وقت السَّحر ، ولساعتين بقيتا لانبلاج الصبح تحرَّكنا ، يوم الثلاثاء ،
السادس من هذا الشهر الغروب تقريباً ، ولما وصلنا إلى المنزل ، توقَّفنا فيه قليلاً من
الليل ، ثم تحركنا لساعتين بقيتا للأذان . ماذا أقول وكيف أصوِّر قلة الماء وحرارة
الجوِّ ؟! أسأل الله أن لا يتعرض المسلم للهلاك في هذه الصحراء القاحلة ، التي لا ماء
فيها ولا زرع .

يوم الأربعاء وصلنا إلى مكان كانت فيه عدّة آبار، إلّا أنّ ماءها كان مالِحاً. وهنا أيضاً ذُكِرَ أنّه لا مجال للحصول على الماء حتى منازل ثلاثة قادمة، فمُلتِ القدور ماءً، ويوم الخميس والجمعة وليلة السبت لم يكن هناك ماء. ولأنّ الجمالين لم يكونوا وصلوا بعد، ضُربَ الطبلُ في أول تلك الليلة وتحركنا. بعض المشاة كان يبدو عليهم أنهم على وشك أن تُقبَضَ أرواحهم. وفي ذلك المنزل أيضاً بدا أحدهم وهو من أهل شميران مريضاً فتوفي، وبعد مشقة كبيرة حصلنا على قربة من الماء، ودُفعَ تومان واحد وعشرا التومان كمقدمة لتغسيله، ثمّ دُفِنَ المسكين في تلك الصحراء بشكل من الأشكال.

ركبنا وسرنا ساعة أو اثنتين حيث جاء كل جمّال حاملاً الماء لرئيس القافلة. وكانت في هذه الليلة نوبة واحدة لأخذ الماء بشكل لا يمكن أن يذكر بالكتابة. وبحمد الله تعالى فقد وصل الماء واستقرت أرواحنا. العجب من هذه الجمال التي ليس لها ماء ولا علف، وتسير النهار بطوله هنا!

ثلاث ساعات بقيت للغروب، وصلنا إلى بئر الماء التي قالوا عنها: إنها تحوي ماءً حلواً. في الصحراء الأحجار والصخور تحت الرمال، فإذا أردوا أن يغرسوا مسامير حديدية فيها من أجل ربط أطناب الخيام تحطّمت تلك المسامير. فكان لابد من ربط سرادق الخيام بالحجارة. كلما أزيل الرّمْلُ تكشّفت الحجارة من تحتها. ويقولون: إنّ في هذه الصحراء مئة وثمانين بئراً، وإنّها من عمل الغيلان! ويبدو أنّ الأمر هو كما يُقال، ذلك أنّه ليس بمقدور البشر أن يحفر في الصخر. ويبدو كذلك أنّ هذه الصحراء مخلوقة من الصّخر. على أيّة حال سحبوا بعض الماء، والماء هنا حلواً، إلّا أنّ لونه أصفر كالزّعفران؛ وذلك من كثرة أوساخ الجمال وسقوطها فيه.

بعد مضيّ ساعتين من الليل أعلن نقيب القافلة أنّه لا وجود للماء في المنزلين القادمين. وعند السحر ركبنا وكانوا يسرون فيها أظنّ أربع عشرة ساعة أو خمس

عشرة ساعة في اليوم.

نحو جَبَل:

يوم الثاني من ذي القعدة الحرام، خرجنا من كربلاء، ويوم الجمعة السادس عشر وصلنا جَبَل. وفي هذه الأيام لم يُشاهد سوى تُراب الأرض والسماء. قبل وصولنا إلى الجبل بيوم واحد كانت هناك قلعة، وكانت هناك مزرعة للذرة. ولأجل تناول الطعام، توقفنا هناك ساعة أو اثنتين وشربنا فنجاناً من الشاي، وبعد أن تزودنا بالماء ركبنا. ولساعة بقيت للغروب نزلنا؛ ولأن هذه المنازل ليس لها اسم مُعَيَّن، لم يذكر هنا.

الجمعة السادس عشر، لخمس ساعات بقين للغروب وصلنا «جَبَل» لنقضي فيه ليلة السبت السابع عشر ويوم السبت السابع عشر، جاء (الامير محمد خان) ملك «جَبَل» إلى الحجيج وزار مكانهم، وقد كان أنيقاً جداً في هيئته، وقد شدَّ لفرسه لجاماً من الذهب، ولبس هو قباءً عُجراتياً مُذهَّباً. وأمَّا غلمانُه فكانوا مُزينين تماماً ببنادق ذات محاجل فضيَّة، وجلسوا خارج الخيمة. وبعد أداء التشريفات جلس هو وسط الخيمة، فيما جلس جميع رجاله في الخارج. وكعادة الأعاجم حيث يجب على الخادم أن لا يجلس قرب المخدم، ولم تكن هنا من تلك التشريفات والمراسيم. وكانت لديه خمسة مدافع. وفي كلِّ ليلة يطبخون عدَّة جمال في معمله لإطعام رجاله وعُمَّاله.

ليلة الأحد، الثامن عشر وليلة الاثنين التاسع عشر، وبعد مضيِّ ساعتين على النَّهار، ركبنا، فسيرنا حتى ساعة بقيت للغروب، ومن كربلاء وحتى جَبَل لم يُلح لنظرنا جَبَل على الإطلاق، ما عدا أرض مستوية وتراب ناعم لا غير. كانت ثلاثة من المنازل التي مررنا بها عبارة عن أرض رملية، وربما لها كانت حمراء، ويُعرف هذا النوع من الرمل برمل الصياغة حيث يُنظَّف به الذهب والفضة. كانت منطقة جَبَل التي تكاد تكون كلُّها أرضاً جبلية، تحيط كالسور بهذه الصحراء

المترامية، وفي بعض الاماكن كان الجبل يبعد عن مثيله مقدار مئة ذراع لا غير. ولما رجعتُ ثانية من هناك كان يبدو أن سوراً كبيراً يُحيط بهذه الصحراء. ليلة الثلاثاء العشرين، لأربع ساعات بقين للغروب، وصلنا إلى قرية يُسمونها (عربان مستة جدّة). ونزلنا خلف حائط بستان، ثم ردّد نقيب القافلة ثانية صوته الكريه قائلاً: إحملوا معكم ماءً كثيراً، لأننا لن نحصل على الماء خلال الأيام القليلة القادمة.

ليلة الأربعاء، الحادي والعشرين ركبنا من مستة جدّة لستّ ساعات مضين من الليل، ولأربع ساعات بقين للغروب أصبحنا في صحراء يدعونها (غريالية). وعلى بُعد فرسخين بدت لنا منازل. كانت هنا أرض الأمير محمد. وبعد يومين آخرين يخرجون من أرض محمد ويدخلون أرض حربي^(٢).

ليلة الخميس، الثاني والعشرين من ذي القعدة الحرام، بعد طلوع القمر، تابعنا المسير. حفظنا الله بفضلته وسلّمنا من كلّ سوء خلال مسيرنا في هذا الطريق؛ لنصل مقصدنا إن شاء الله بسلام.

من ليلة الخميس، الثاني والعشرين وحتى ليلة الأحد الخامس والعشرين، لم يكن هناك ماء في منازلنا التي مررنا بها. يوم الأحد، وفي أثناء الطريق، وُجِدَتْ بئر ماء، فأخذوا من مائها الذي كان مُراً وما لحاً، بعدها لم نجد ماءً في المنازل الأخرى حتى يوم الثلاثاء، السابع والعشرين، حيث وُجِدَتْ بئر ماء أخرى. وكانت تكثر في هذه الصحراء أشجار أمّ غيلان، وكان يُظَنُّ أن هذه الأشجار مزروعة باليد، وكلّها مُرتّبة ومزروعة على شكل صفوف ثابتة. وأيضاً كانت هناك بعض المزروعات، والتي تُدعى (الدّفل). وكلّها أمطرت اخضرت جميعها. وكان أحد الحجّاج وهو من جرجان، والذي كانت امرأته في نفس المحفّة التي كان شخصنا فيها، وقد تحلّف يوم الأحد عن القافلة، وعندما نزلوا في الليل علِمَ أنه بقي في الصحراء. فبعثنا أحدهم للبحث عنه، فجيء به صباح يوم الثلاثاء. وبعد

قدومه علمنا أن اثنين من العرب الفرسان وثالثاً كان راجلاً سألوه: يا حاج! لم تخلّف عن القافلة؟ فأخبرهم المسكين - والذي كُتِبَ له أجلٌ جديد - أن بعيره لا يستطيع السير. فأجابوه: إذا أعطيتنا نقوداً فسنحمل لك متاعك. وعلى أيّة حال أنزل الفرسان الرجل المشار إليه من على بعيره، وحملوا متاعه على بعيرهم، وتحركوا ببطء شديد حتى غابوا عن أعين الحجاج، ثم أنزلوه، وكان معه (٦٠) توماناً من النقود فأخذوها منه واقتسموها بينهم، وأخيراً فكّروا في قتله، ولما احسّوا منه عجزاً شديداً انصرفوا عن قتله، ثم ضربوه ضرباً مبرحاً، وأخرجوا ونهبوا ما تحت ثيابه، وبعد ذلك قالوا له: اذهب من هنا إلى حيث شئت. ف قضى الحاج المسكين ليلته في تلك الصحراء بالبكاء والعيول حتى طلوع النهار. بقي الحاج على هذا الحال إلى الظهر حتى عثر عليه الرجال الذين خرجوا للبحث عنه، فأركبوه وهو في حالة يرثى لها وأوصلوه إلى قافلة الحجاج.

يوم الثلاثاء، السابع والعشرين، وصلنا رأس البئر، فلأنا الأواني ثانية بالماء، ثم ركبنا، ويبدو - إن شاء الله وبمساعدة الأئمة الأطهار عليهم السلام - أننا سنصل بعد يومين موقع الإحرام.

يوم الأربعاء، الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة الحرام، تحركنا بعد أداء فريضة الصبح، ولساعة بقيت للغروب وصلنا المنزل، وأما الماء وإن كان حُلواً ولكنه ليس ماءً مُستساغاً جداً.

يوم الخميس، التاسع والعشرين، تحركنا بعد فريضة الصبح، فلاح لنا صحراء مليئة بأشجار أمّ غيلان، وبقدرة الله تعالى كانت تبدو وكأنّها مرتبة من قبل بستانيّ. كان قسم من الصحراء يبدو وكأنّه كالبلستان. وكنا مستمرين في المسير. ليلة الجمعة غرة ذي الحجة، أنبئنا بأننا سنصل غداً (وادي عقيق).

ليلة السبت، الثاني من شهر ذي الحجة الحرام (١٢٩٧) وصلنا المحرم عند منتصف الليل. كان الجو لطيفاً تلك الليلة. وكان الغلمان والرجال الذين معنا، قد

علّمهم صِهْرُ السَّيِّدِ حَاجِي آخُونَ دَابِ الإِحْرَامِ، حَيْثُ أَحْرَمُوا فِي وَادِي عَقِيقٍ .
وَبَقَيْنَا فِي الإِحْرَامِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ .

يَوْمَ الْأَحَدِ، الثَّلَاثِ مِنْ شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ وَصَلْنَا (وَادِي لَيْمُو). وَكَانَتْ تِلْكَ
الْبَسَاتِينَ مَوْجُودَةً هُنَاكَ . وَلَمْ تُلْحَ لَنَا بَيْوتٌ مَسْكُونَةٌ فِي تِلْكَ الْمَنْطِقَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا
الطَّرِيقُ كُلُّهُ مِنَ الْوُدْيَانِ، أَخَذْنَا كَمِيَّةً مِنَ اللَّيْمُونِ وَالنَّارِنْجِ، وَاللَّيْمُونِ الْحَامِضِ
هُنَاكَ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي يُعْصَرُ فِي شِيرَازَ . عَرَبُ الْبَادِيَةِ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئاً عَنْ اللَّيْمُونِ
الرَّيَّانِ .

مَكَّةُ الْمُعْظَمَةُ:

الْاِثْنَيْنِ، الرَّابِعِ مِنَ الشَّهْرِ، وَصَلْنَا عَلَى بُعْدِ فَرَسَخٍ وَاحِدٍ إِلَى الْإِسْفَلِ مِنَ
الْوَادِي . وَفِي هَذَا الْيَوْمِ لِأَرْبَعِ سَاعَاتٍ بَقِيْنَ لِلْغُرُوبِ، بِحَمْدِ اللَّهِ وَصَلْنَا مَكَّةَ الْمُعْظَمَةَ .
وَعَلَى بُعْدِ فَرَسَخَيْنِ كَانَتْ تَوْجَدُ هُنَاكَ بئرٌ مَشْهُورَةٌ بِاسْمِ (بئرِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ) .
وَيَبْدُو أَنَّ جَبَلَ النُّورِ عَلَى بُعْدِ نِصْفِ فَرَسَخٍ .

لَيْلَةُ الْخَامِسِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، جَاءُوا بِقَرَبِ مَاءٍ مِنْ بئرٍ زَمَزَمَ، فَاغْتَسَلْنَا
غُسْلَ الطَّوَافِ، ثُمَّ تَشَرَّفْنَا بِالْحَرَمِ الشَّرِيفِ . وَبَعْدَ أَدَاءِ الطَّوَافِ، أَذَيْنَا السَّعْيَ بَيْنَ
الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَعِنْدَمَا رَجَعْتُ إِلَى الْمَنْزِلِ، كَانَ بَعْضُهُمْ يَقْرَأُ الْمُنَاجَاةَ . وَمِنْ شِدَّةِ
الْحَرِّ وَالتَّعَبِ فَإِنِّي لَمْ أَتَنَاوَلَ الْعِشَاءَ، فَقَدْ سَقَطْتُ عَلَى الْفَرَاشِ لِمُدَّةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
كَالْمَصْعُوقِ . ثُمَّ تَحَامَلْتُ عَلَى نَفْسِي بِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ وَتَشَرَّفْتُ فِي اللَّيْلِ بِالذَّهَابِ إِلَى
الْحَرَمِ ...

وَالْبَيْتَ الَّذِي كَانَ قَدْ كُرِّيَ لِأَجْلِنَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَجْلِسٌ لِلْخِدْمِ، فَشَاهَدْنَا الْبَيْتَ
ثُمَّ غَيَّرْنَا الْمَكَانَ، ثُمَّ جِئْنَا إِلَى بَيْتٍ آخَرَ يَعُودُ لِأَحَدِ الْأَشْرَافِ الْقَدَمَاءِ وَالَّذِي يُدْعَى
(الشَّرِيفُ مَهْدِي). أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الطَّابِقِ الْعُلُويِّ لِهَذَا الْبَيْتِ، فَلِلْوَصُولِ إِلَيْهِ يَتَحَتَّمُ
صُعُودُ (٥٦) دَرَجَةٍ بِحَيْثُ يَنْقَطِعُ نَفْسُ الشَّخْصِ مِنَ التَّعَبِ ...

مَعَ كُلِّ الْمَشَقَّةِ كُنَّا نَتَشَرَّفُ بِزِيَارَةِ الْحَرَمِ الشَّرِيفِ مَرَّتَيْنِ فِي الْيَوْمِ، مَرَّةً فِي

الصباح ومرة في الليل. وفي كل مرة من المرات الثلاث^(٣) كنّا نؤدي الطواف ثلاث مرّات أو مرّتين.

نحو عرفات:

ليلة الجمعة، الثامن من الشهر، أشتهر بين السادة من أهل السنة أنّ اليوم هو يوم عرفة. والحمد لله رحل الجميع إلى منى. ليلة الجمعة كان الحرم الطاهر خالياً. فاغتنمنا الفرصة هذه الليلة، وانشغلنا بالطواف حتى الصبح تقريباً، والحمد لله، كنّا نقبل الحجر بكلّ قلوبنا. وأديتُ الطواف خمس مرات، وكلّ طواف سبعة أشواط. الحمد لله الذي أنعم علينا بهذه النعمة، حيث اغتسلنا مجدداً صباح يوم الجمعة الثامن من الشهر، وتشرفنا بالحرم، ثم لبسنا الإحرام تحت ميزاب الرّحمة، ثم ذهبنا إلى عرفات... وفي الظهر أدّينا الوقوف في عرفات، وانشغلنا بالدعاء حتى الغروب. وفي الليل ركبنا وجئنا إلى المشعر. فجمعنا الحصى، وكان أهل السّنة قد ذهبوا إلى منى. وفي الصباح بعد طلوع الشمس جئنا إلى صحراء منى، وأتممنا رمي الجمرات، ثم قدّموا القرابين. لم يكن بالإمكان الذهاب إلى مكة المشرفة لأجل الطواف.

منى:

ليلة الحادي عشر والثاني عشر قام السادة من الحجاج الشاميين والمصريين بالألعاب نارية لطيفة، كلّ من جهته. كانوا قد نشروا ذلك على جبل باروط^(٤)، وكان انطلاقها شيقاً وممتعاً. وقد انشغلوا بالألعاب النارية لمدة ثلاث ساعات بل أكثر من ذلك. وفي اليوم الحادي عشر رجع السادة إلى مكّة. أنا كذلك جئتُ إلى المدينة وأديت طواف الحجّ وطواف النساء، ثم رجعت. وبقينا ليلة الثاني عشر كذلك، وبعد ظهر اليوم الثاني عشر ذهبنا إلى (مسجد الخيف) وأدّينا الصلاة، ثم عدنا إلى رمي الجمرات ورجعنا بعدها إلى مكّة. وفي الليل، وبالرغم من التعب والكلل، ذهبنا إلى بيت الله وأدّينا الطواف، وسألنا الله تعالى أن يُجيب دعوة

السائلين ويعطيهم حوائجهم المشروعة في الدنيا والآخرة إن شاء الله .
كان الجوُّ في منى رديئاً ، وقد توعّكت صحة الكثير من الحجاج . ليلة الثالث عشر أبتليتُ بالحمى ووجع في العظام ، واستمرّت الحمى ثمانية أيام . إضافة إلى سوء حالي العامة بحيث لم أستطع التحرك أبداً . بحمد الله تعالى نزلت رحمته ، فقد استعدتُ صحتي ، وتشرفتُ بزيارة الحرم ليلاً مع ما كان بي .

في يوم السبت الثاني والعشرين من الشهر ، تحسّنت حالي قليلاً ، فتشرفتُ بزيارة حضرة أبو طالب والسيدة خديجة الكبرى وعبد المطلب وعبد مناف والسيدة آمنه والدّة رسول الله ﷺ ، ثم تشرفتُ بزيارة الحرم كذلك في الليل مع ما كان بي ، ولم أستطع الطواف أكثر من مرّتين . وفي اليوم الخامس والعشرين من ذي الحجة ، تشرفتُ عصراً بزيارة الحرم الشريف ثم ركبنا وجئنا إلى المكان الذي يأخذون منه الناس إلى العمرة والمعروف بـ (الشيخ محمود) ، على أمل أن نركب ونسير غداً . ثم تبين أن هذا العربي من آل حرب لا يملك أيّ بغير .

نحو المدينة:

لساعة واحدة بقيت للغروب من يوم الاربعاء ، السابع والعشرين من ذي الحجة . تحرّكنا من موقف (شيخ محمود) وركبنا بغيراً من آل حرب ثم سرنا . نعوذ بالله من هذه البُعران التي تسير مقدار فرسخ واحد كلّ ثلاث ساعات . قريب طلوع الصبح وصلنا إلى (وادي فاطمة) . كان فيه ماء يجري . ويبدو أن ماء العين المذكورة حارٌّ لدرجة كأنّه مغليّ .

ثلاث ساعات بقيت للغروب من يوم الخميس الثامن والعشرين من الشهر المذكور ، ركبنا ثم سرنا ليلة الشتاء بطولها حتى انبلج الصّباح . فلم يكن بإمكاننا تناول العشاء ، ولا كان بالإمكان أخذ قسط من الراحة .

وبعد أداء صلاة الفجر ركبنا ثانية . وما إن انقضت ثلاث ساعات حتّى وصلنا إلى منزل آخر . كانت تلك الجبال المنهكة تماماً تسير ثماني عشرة ساعة . وفي

الساعة التاسعة من تلك الساعات وصلنا إلى منزل (بئر طفلة)، وكانت هناك بعض البيوت. ويوجد هناك بطيخ أيضاً، إلا أنه لم يكن من النوع الجيد. في يوم الجمعة، التاسع والعشرين من ذي الحجة، ركبنا ثم سِرنا، وعند الغروب تَرَجَلنا للصلاة، ثم أَقْنَا الصلاة. أَسْتَجِيرُ بِاللَّهِ مِنَ الْجَمَالِين، إِنَّهُمْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْغُلَمَانِ السُّودِ، الَّذِينَ يَتَسَبَّبُونَ فِي جَلْبِ الْمَصَائِبِ عَلَى الْحَجَّاجِ، لَا يَدْعُونَ الْجَمَلَ يَرْفَعُ قَدَمًا عَنْ قَدَمٍ، يَصِيحُونَ عَلَى الْجَمِيعِ وَيَصْرَخُونَ: شَوِيَّ شَوِيَّ. لأَرْبَعِ سَاعَاتٍ مُضِينَ مِنَ الْوَقْتِ، نَزَلْنَا. وعند وقت صلاة الصبح نَزَلَ كَذَلِكَ الْمَطَرُ. ومع مرور عدة أيام على الشتاء، لا يمكن ارتداء شيء أبداً. حتى في داخل المحفّة كُنَّا نَعْرِقُ. نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الصَّيْفِ إِذْ لَا يُعْلَمُ مَاذَا يَحْصِلُ لِلنَّاسِ!

يوم السَّيْتِ غُرَّةُ شَهْرِ مُحَرَّمِ الْحَرَامِ ١٢٩٨، نَزَلْنَا فِي (بئر هندي). كانت هناك بعض الآبار وقليل من البيوت المبنية من القَصَبِ. عند الغروب من اليوم نفسه ركبنا، وعند انقضاء ساعة من الليل توقَّفَ الْحَجَّاجُ؛ لِأَنَّ الطَّرِيقَ كَانَ مَوْحَلًّا وَلَا يُمْكِنُ السَّيْرُ فِيهِ، فَصَفَّوْا الْجَمَالَ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرٍ، وَبِمَشَقَّةٍ كَبِيرَةٍ سِرْنَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ حَتَّى صَلَاةِ الصَّبْحِ. بَعْدَ أَنْ أَقْنَا الصَّلَاةَ رَكَبْنَا. وَلأَرْبَعِ سَاعَاتٍ بَقِيْنَ لِلْغُرُوبِ وَصَلْنَا مَنْزِلَ (رَابِعٍ) عِنْدَ سَاحِلِ الْبَحْرِ. كُنَّا لِعِشْرِينَ سَاعَةً كَامِلَةً فِي الْمَحْفَةِ، جَائِعِينَ، دُونَ قُوْتٍ أَوْ غِذَاءٍ. مَنْزِلَ (رَابِعٍ) تَكَثَّرَ فِيهِ النَّخِيلُ، وَفِيهِ قَلْعَةٌ، وَهَنَّاكَ جُنُودٌ كَانُوا فِيهِ رَافِعِينَ عَلَمًا، وَبَعْضُ الْمَدَافِعِ كَذَلِكَ تَوْجَدُ فِي هَذِهِ الْقَلْعَةِ. يَوْجَدُ اللَّيْمُونَ وَالنَّارَنَجُ كَذَلِكَ فِي هَذَا الْمَكَانِ، وَلَمْ يَبْقَ لِلْحَجَّاجِ إِلَّا التَّعَبُ وَالْمَشَقَّةُ...

ليلة الأحد الثاني من شهر مُحَرَّمِ، لثلاث ساعات بَقِيْنَ مِنَ الْوَقْتِ رَكَبْنَا مِنْ مَنْزِلِ (رَابِعٍ)، وَأَدِينَا فَرِيضَةَ الصَّبْحِ خِلَالَ الطَّرِيقِ، ثُمَّ رَكَبْنَا ثَانِيَةً. وَفِي الْعَصْرِ نَزَلْنَا لِأَدَاءِ فَرِيضَةِ الظَّهْرِ وَالْعَصْرِ، ثُمَّ رَكَبْنَا ثَانِيَةً حَتَّى سَبْعِ سَاعَاتٍ مُضِينَ مِنَ اللَّيْلِ، سِرْنَا بِاسْتِمْرَارٍ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى مَنْزِلِ (بئر عثمان). كانت هناك بعض آبار الماء في هذا المنزل. لَا أَحَدٌ يَخْطُرُ بِبَالِهِ أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا مَا ظَلَّ رَاكِبًا إِحْدَى وَعِشْرِينَ

ساعة! ومن قِلَّةِ الجمال والحركة البطيئة للبقية الباقية منها، فقد كانت معاناة الحجاج بشكل لا يمكن وصفه في هذه السطور. الكلُّ مُتعب وحيران ودون عشاء، والجميع أصيبوا بالدهشة خاصة المشاة منهم!

وبعد مشقة وعناء ركبنا ثانية، وكان الركوب المذكور في يوم الثلاثاء الرابع من شهر محرم الحرام. كان الطريق اليوم كله أودية مُحاطة بأشجار أم غيلان من طرفيها. ووقت صلاة العصر، نزلنا، وبعد أداء الواجب ركبنا. لثلاث ساعات مضين من الليل، وصلنا ليلة الأربعاء الخامس من الشهر. كان الحجاج الشاميون ساقطين. وكانت الجمال كلها سائبة خلال الطريق بشكل لا يمكن وصفه.

وفي منتصف تلك الليلة قام الحجيج الشاميون بالطبخ، ثم تحركنا وقت أذان الصبح، وبقي الحجيج كلهم على الأرض. هذا المنزل الذي يُعرف بـ (أبوزجاح)^(٥)، ويُقال (بئر قچي) و(شيخ علي) كذلك، ويقولون: إن أهل هذه القرية كلهم من الشيعة، هذا المنزل تكثر فيه النخيل، وفيه قناتان أو ثلاث للماء الجاري أيضاً... قضت القافلة أربع ساعات على هذا المنوال، لقد تحمل الحجاج المساكين الكثير من الأذى على يد هؤلاء الجمالين، كان لابد من الإتيان تدريجياً بالجمال السائبة، ثم ركبوا. تحركنا من منزل اليوم وهو (بئر قچي)، وقطعنا الطريق كله خلال الوديان. كان هناك قليل من الأماكن العامرة، وهناك الكثير من النخيل على سفوح الجبال، كما كانت فيها مياه جارية جيّدة. مما جعله مكاناً لطيفاً وجميلاً جداً.

الخميس، السادس من الشهر، لأربع ساعات مضين من الليل، وصلنا منزل (بئر قچي) وكان الماء يخرج من تحت أرض قچي. وفي الساعة الثامنة تناولنا الطعام ثم نمنا. وعند انبلاج الصبح، تحرك الحجيج الشامي وكان السيد صاحب السمو حسام السلطنة دام اقباله العالي قد تحرك معهم، وبقي هنا الأمير ابو النصر ميرزا^(٦) مع متاعه. بعد انقضاء ساعتين من النهار، ذهب أحد الحجاج إلى بستان

كان هناك لكي يأتينا بالأنباء، ولحقه بعض المسلمين إلى المكان المشار إليه فوجدوه وقد أخذ كل شيء عنده فبادروا لانتقاذه منهم ومما يعاني من الآلام، وعلم أنه لو لم يذهبوا هناك لُقُتِلَ المشار إليه. تصوروا إلى أيِّ حَدٍّ وصل الحقد والعداوة عند هؤلاء ضدَّ (الشيعة)، إذ لم يتورَّعوا حتى عن قَتْل مساكين كهذا الحاج!

أربع ساعات مضين من يوم الخميس، ركبنا من منزل (بئر قجي) وبيرنا. مع حساب هذا اليوم بقي لنا منازل ثلاثة أخرى حتى المدينة المنورة. هذا هو منزل (بني الحرين). قَسَمَ الله الرحمن لنا الوصول بسلامة وبركة إلى تلك المدينة المباركة والتشرف بها وزيارتها. مضت أربع ساعات من ليلة الجمعة من محرم، وصلنا منزل (خيام). اسم هذا المنزل كما يبدو هو (عكّام)، فاذا وُجِدَ هنا أيُّ غلط أو اشتباه فالمقصر في هذا هو الراوي.

صباح الجمعة السابع من محرم ١٢٩٨، تحرّكنا بعد طلوع الشمس، ولساعة ونصف الساعة بقيت للغروب، نزلنا لأداء صلاة الظهر والعصر، ومع كون الصحراء كلها مملوءة بالأشواك، إلا أنّها صحراء نابضة بالحياة والجلال إلى حَدٍّ لا يوصف. وقد كانت هناك بعض الأشجار التي لا تحتوي أوراقها على الأشواك، فسألنا عنها، قالوا: هي أشجار يخرج منها الصمغ فيصنعون منه دهن البلسان. كان جذع البعض منها سميكاً جداً، ولها أوراق صغيرة خضر كأوراق الصَّغَر.

وعلى مسافة نصف ساعة أخرى من المسير، وجَدَتْ بُرٌّ وأشجار النخيل تملأ المكان في الصحراء. ويبدو أنّنا سنصل إلى المنزل الآخر بعد انقضاء أربع ساعات من الليل. على أي حال فإنّ هذه الجبال الضعيفة المتعبة وكلاب الجبال السود هذه سارت ببطء شديد جداً حتى أنّنا وصلنا إلى الحجيج الشامي بعد أذان الصّبح، وكانوا على وشك التحرك. لقد ظلّ الناس المساكين جالسين في محفّاتهم عشرين ساعة كاملة. أعان الله المساكين السائرين مشياً حتى وكأنهم أوشكوا على الهلاك. وحتى نَصَب الخيام، تكون الصلاة قد فات وقتها. من الله على القنصل

بشيء من الإنصاف حتى لا يجعلوا الحجيج رهن هؤلاء السود الذين لا يفقهون حديثاً، وهذه الجمال النحيفة .

إنَّ منزل هذا اليوم، السَّبت، الثامن من شهر محرم، يُقال له (بئر ماشي)، ويبدو أنه بقيت هناك ستَّة فراسخ إلى مدينة الرسول ﷺ. وفقنا الله تعالى لنكون في المدينة ليلة العاشر من المحرم ذكرى استشهاد الإمام الحسين وأهل بيته وصحبه. مَضَتْ أربع ساعات من ليلة الأحد التاسع من محرم الحرام ١٢٩٨، تركنا (بئر ماشي) راكبين ثم سرنا، اللَّيلة هي ليلة التاسع من المحرم، وعند وقت فريضة الصبح وصلنا مسجد (الشجرة). وأقنا فريضة الصبح في مسجد الشجرة ثم ركنا ثانية. ولما سرنا بعض الشيء، جاء المستقبلون مُصطحبين معهم خيالة، فاصطف العسكر جميعاً، وكانوا يعزفون الموسيقى. ويؤدّون (الهوسة) مع أنَّ هذه الليلة هي ليلة عاشوراء، لم يكن من المناسب ولا من اللائق أن تُعزف هذه الألحان...

المدينة المنورة:

وبعد أن سرنا شوطاً، بأنَّ لنا قبة الحرم المبارك وهي قبة خضراء، مع منائر الحرم كذلك. وبعد شكر الله وحمده الذي جعل هذه النعمة العظيمة من نصيب هذه الأمة، أدَّيتُ سجدة الشكر.

مضت أربع ساعات من يوم الأحد، التاسع من محرم، حيث دخلنا المدينة المنورة، فنزلنا قُرب الحرم المبارك في بيت المؤذن (الذي هو الخطيب كذلك)، وسكنا في الطابق الأعلى الذي يطلُّ على بستان وعلى جبل أحد كذلك، يالصفاء المدينة وطيب هوائها! الحقيقة أنَّها كالجنة! إنَّ لهذه الجبال جمالاً يسلبُ لُباب البشر! وبما أنَّ الوقت الآن هو الشتاء فإنَّ كلَّ شيء سينضج؛ من أمثال الباقلاء والبادنجان والخضَر كذلك والشبيهه بالزَّمَرْد.

وبعد دخولنا المنزل تناولنا الغداء، ثم اغتسلت، وتشرفت بعدها بالحرم المبارك. فقبَّلتُ الضريح المبارك، وقرأنا الزيارة، ومن ثمَّ تشرفتُ بحرم البقيع وزرنا

ثم رجعنا أدراجنا. في الليلة الأولى 'تشرّفنا بالحرم المبارك عن طريق باب الرّحمة. وبعد قراءة الزيارة قضينا في الحرم المبارك أربع ساعات مضين من الليل. كانوا قد أناروا جميع المنائر. وكانت تبدو جذابة للناظر إليها من الزّقاق. إنّ تلك المنائر التي كانوا قد أناروها هي على شكل ثلاث طبقات، وهناك ثمان منائر وفي كلّ طابق منها بالطّبع يضيء مئتا مصباح. وكانت تضيء الحرم المبارك كذلك مصابيح كثيرة. وكانت أصوات هذه المنائر تُسمع من البيوت أيضاً. وكذلك صوتُ عزف عالٍ.

وفي الحرم المبارك بعد صلاة العشاء مقابل مسجد النساء أمام منزل خواجهات الحرم، جالس جمعٌ من الناس في حلقة ذكر. ومجموعة أخرى كذلك مقابل الحرم المبارك كانت مشغولة بالذكر أيضاً، وكانوا يرددون (لا إله إلا الله) بلحن جميل. والحق أنّ ذلك المنظر كان ممتعاً للناظرين. لقد كانوا يرددون هذا الاسم المبارك بطريقة متواصلة بحيث ينقطع نفّسهم فيغشّ عليهم ويسقطون على الأرض، وكان الآخرون من جماعتهم يمسخون أوجهم ورؤوسهم من عرق أولئك المغشي عليهم للتبرّك. وكان يُوجد في الحرم المبارك مقابل الضريح المبارك محمّل رسول الله ﷺ ومحمّل آخر.

صباح يوم الاثنين الذي كان يوم الاستشهاد أي يوم عاشوراء، بعد أن تشرّفنا بزيارة الحرم المبارك وقراءة الزيارة وزيارة عاشوراء، ركبنا العربة وتشرّفنا بمرقد (حمزة). وزرنا المكان الذي تُحفظ فيه الأسنان المباركة، ومن هناك صعدتُ إلى الأعلى وزُرْتُ باقي الشهداء حتى وصلت قريباً من الجبل حيث يوجد مسجدٌ صغير وله محرابٌ كذلك. فدخلنا وصلينا ركعتين. في هذا الجبل توجد شجرة نابته من بين الصخور، وقيل: إنّها أنزلت على خاتم الأنبياء. فصعدنا قليلاً حتى وصلنا إلى شقّ الجبل. وهناك أيضاً أدّينا الزيارة ورجعنا.

ليلة الثلاثاء، الحادي عشر من شهر محرّم الحرام ١٢٩٨ دخلنا من باب الرّحمة، وتشرّفنا بزيارة الحرم المبارك، وقرأنا زيارة النبي ﷺ والصّديقة الطاهرة

فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - وجئنا قرب عمود التوبة وصلينا وقرأنا كذلك الدعاء الخاص بالعمود ورجعنا. صباح الثلاثاء، الحادي عشر تشرفنا بالحرم الشريف من باب جبرئيل. وبعد الزيارة جئنا إلى (بيت الاحزان). وأقنا مجلس الغزاء، وبعد الاستماع إلى ذكر المصيبة... قرأنا زيارة السيدة فاطمة بنت أسد في مكانين، الأول في البقعة التي تقع خلف البقيع، والشيخ أبو سعيد مدفون هناك كذلك، فقرأنا الزيارة، والثاني في الحرم المبارك للإمام الحسن عليه السلام، وقرأنا زيارة السيدة فاطمة بنت أسد - سلام الله عليها - ورجعنا إلى البيت، وبعد تناول الغداء تشرفنا بزيارة عبد الله عليه السلام والد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. قرأنا الزيارة ثم رجعنا.

ليلة الأربعاء، الثاني عشر من شهر محرم، بعد صلاة العشاء، تشرف السادة بزيارة الحرم المبارك، وبعد زيارة سيدنا خاتم الانبياء صلى الله عليه وآله وسلم والصديقة الطاهرة عليها السلام رجعنا إلى البيت. صباح الاربعاء تشرفنا بالدخول إلى الحرم المبارك من باب جبرئيل، ومن هناك ذهبنا إلى البقيع وقرأنا زيارة أئمة البقيع. ورجعنا إلى المنزل. صباح الخميس، الثالث عشر من محرم تشرفت بزيارة الحرم المبارك عن طريق باب جبرئيل، وبعد الزيارة ذهبنا إلى البقيع وزُرت أئمة البقيع عليه السلام وعند الرجوع، رأيت الحجاج خلال الزقاق وقد وصلوا حديثاً، فجئت إلى البيت.

وفي ليلة الجمعة الرابع عشر، وبعد الصلاة، تشرفت بالدخول إلى الحرم الشريف عن طريق باب السلام، فقرأت زيارة خاتم الرسل صلى الله عليه وآله وسلم والسيدة الصديقة الطاهرة عليها السلام ثم صليت بالقرب من عمود أبو لبابة، ودعوت هناك ثم رجعنا...

صباح السبت، الخامس عشر من الشهر، وكالعادة تشرفت بزيارة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والصديقة الطاهرة عليها السلام، وبعد الزيارة رجعت إلى المنزل، ليلة الأحد وليلة الاثنين وليلة الثلاثاء الثامن عشر كذلك كنت كل يوم وكل ليلة - بحمد الله تعالى - تشرف بزيارة الحرم المبارك، وعندما نقلوا محفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومحفة عائشة، لم يسمحوا كالعادة للحجاج الفرس من الاقتراب من الضريح المبارك وذلك حتى

الساعة الرابعة . والعجب أن هؤلاء الاشخاص الذين لا يتورعون ولا محتاطون من أي شكل من أشكال النجاسة ، لكننا نرى معزهم متروكة وسائبة في الأزقة ، وفي الليل تذهب هذه الحيوانات إلى بيت مالکها دون أن يفكر أحد في سرقتها .

السّير نحو جدّة:

لقد تقرر أن يحرك الشريف الحجاج القادمين عن طريق البحر يوم الثلاثاء . فحُمِلت الأمتعة ثم توقفت العملية . وصباح يوم الاربعاء السابع عشر من محرم الحرام ، وبعد مضي خمس ساعات على القافلة ، تحرك من المدينة المنورة وبعد مشقة وعناء كبيرين استطعنا اجتياز الأزقة والأسواق . وكانوا يوقفوننا في كل تحرك مطالبين بالإتاوة . على أي حال خرجنا من المدينة ، وتوقفنا خارجها لكي يلحق الحجاج بعضهم ببعض .

ليلة الاربعاء الثامن عشر من الشهر وهي الليلة الأولى من ليالي منتصف الشتاء توقفنا خارج المدينة . وفي الواقع الجو هنا يشبه جو الربيع وهو مُنعش كثيراً . إن صحراء و جبال المدينة شبيهتان بالجنت ، نسألته تعالى أن يمن علينا مرة أخرى بأن نأتي ونتشرف بتقبيل عتبة ضريح هؤلاء الأعظم بحق أولئك الاشراف المدفونين في هذه البقعة . إن قبلة واحدة على العتبة الشريفة أنستنا كل مصاعب الطريق والجمالين السود .

صباح الأربعاء ، ركبنا من خارج البوابة ، كان الهواء متغيراً قليلاً . وبعد مضي قليل من الوقت ، بدأت السماء تمطر . وأما السادة الأشراف الذين كان أهل الحاج قد أکروا منهم الجمال . فقد ذكروا أنهم لم يصلهم شيء من السيد حسام السلطنة ، ولم يدفعوا نصف الأجرة ورحلوا عن طريق الشام ، وعلى هذا قالوا: إننا سنمنع هذه الأميرة من الرحيل ، وسنحتجزهم في المطر حتى نأخذ مئة تومان . فجاءوا ومنعونا من السير فقليل لهم : لم تمنعونا من السير؟ فأجابوا قائلين : يُريدون إتاوة . فقال رجالنا: لقد دفعنا كامل الأجرة ، وأعطينا خلعة كذلك . فأجاب المؤجرون :

لقد أعطيتم الأجرة إلى محمد الكائني^(٧) وليس لنا. ورأيت الوضع سيئاً، فقلتُ لرجالنا: إرجعوا إلى المدينة إلى الوالي هناك وأنها المسألة مع الحكومة، واللّعة على هؤلاء، سأذهب مع حُجّاج جَبَل. سأعطي هذا الوصل إلى والي المدينة ليأخذ النقود من الشريف. فلما رأي أولئك أنّ هذه الأرض لا تقبلُ بذرهم، ولا مكان لحيلهم ومكائدهم، جاءوا يتوسّلون، فذهب كلّ الحُجّاج الشيرازيين و«نصير الملك» والآخرين جميعاً، فظلّت جمال الشريف هذه التي أكرهاها لنا. وبعد المسير اشتدّ نزول المطر، وأثناء سيرنا، صادفنا نهراً أمامنا، ولم يكن باستطاعة الجمال عبوره. فغيّرنا الطريق، ومعنا أحد الأشخاص يدعى (كامل أفندي)، وهو يقول: إنني لستُ خادماً لإيران بل إنّ القنصل ترجى مني أن أرافق الحُجّاج. إنّه رجل شاطر ولبيب. ولما غيّرنا مسيرنا قليلاً، صادفنا مجرى نهر آخر قد تكون من أثر الفيضان. لا مناص من عبور النهر، مع أنّ المياه تكاد تجرف معها الجمال. ومع مشقة وعناء كبيرين اجتزنا النهر، وحتى ساعة ونصف بقي من الوقت للغروب، كان الرّعد والبرق لا يزالان يقصفان، وكان الهواء كذلك ضبابياً، ثم طلعت الشمس، أقننا صلاة الظهر والعصر ثم ركبنا. بحمد الله تعالى وصلنا المنزل بسلام مع أنّ عددنا كان قليلاً، أي نحن وخدمنا وسط هذه الصحراء والجبال. ولما وصلنا (قبة الرود)، كانت قد مضت من الليل ثماني ساعات. بعد الوصول ونصب الخيام، جاءت عيال عبدالحسين خان قائد اللّواء للاعتذار قائلة: إنّنا لم نكن نعلم. فأجبته قائلة: بحمد الله سار كلّ شيء بسلام، لكن ما كنتُ أعلم أنّ شخصاً مثل نصير الملك إلى هذا الحد يكون مقصّراً، حيث يترك العسكر ويذهب تاركاً القافلة دون أن يكلف فيها حتى أربعة مسلّحين ليكونوا برفقتها، فيبعث قائلاً: إنّ شاء الله ينتهي هذا الأمر بخير.

مضت خمس ساعات من يوم الخميس العشرين من محرّم الحرام تحرّكنا من منزل (قبة الرود)، ومع أنّ السماء غائمة، إلّا أنّه لا يوجد مطر، وبعض الأماكن

اكتست أرضها ببساط أخضر كالزَّمَرْد.

مضت تسع ساعات من ليلة الجمعة، الحادي والعشرين من الشهر، وصلنا إلى 'منزل (بيراية). كان فيها بعض المنازل، وقد شوهد فيها كذلك بئر ماءٍ وغنمٍ وماعز. ست عشرة ساعة، سرنا خلالها ستة فراسخ، بسبب رداءة جمال آل حرب هذه وبطئها في السير. في يوم الجمعة، الحادي والعشرين، بعد مضي ست ساعات على القافلة، ركبنا. إنَّ طريق اليوم كله أودية وجبال. وتوجد بعض الممرات الضيقة التي اصطدمت المحفّات والهوادج بجبالها. وليس هناك جمال تسير. تصوّروا أنَّ قطاراً من النمل يسير. لقد أصبتُ بنزلة شديدة وبدأ صدري يؤلمني كذلك. وبقيتُ مستلقية في هودجي في حالة رديئة لا توصف.

كانت هناك الكثير من الأحمال تُنقل من (ينبع) إلى (المدينة)، وبعض الحجاج الذين قدموا عن طريق البحر والذين نفدت نقودهم، ظلّوا في مكة المعظمة. واليوم شوهدوا يأتون عن طريق ينبع للتشرّف بالذهاب إلى المدينة. كانوا قد ذهبوا من مكة إلى جدة، وعادوا عن طريق ينبع.

في ليلة السبت، الثاني والعشرين من الشهر، بعد مضي ست ساعات من الليل وصلنا إلى 'منزل (بئر خلع)؛ يوم السبت، لخمس ساعات بقين للغروب، تحرّكنا من منزل (بئر خلع)، وفي الليل حيث لم نصل إلى المنزل بعد، سمعنا أصوات اللصوص من جهاتنا الأربع. بعد ذلك علِمَ أنّه وخلال الطريق، سُرق هميّان ابن الحاج عبدالهادي الاسترآبادي الذي يشتغل بالتجارة في بغداد، سُرق من تحته مع صرّة ثيابه. كانوا يقذفون الحجارة نحو طاس المشعل الامامي لكي يطفئوه، حتى يتمكنوا من الولوج داخل صفوف الحجيج. وتشبه هذه العملية إلى حدّ بعيد تلك التي ينقلونها عن حسين كُرد في الكتب.

هذه الليلة ومحمد الله تعالى وصلنا بسرعة إلى المنزل. اسمُ هذا المنزل هو (بئر الحسان). وتقتصر العمارة هناك على بعض الآبار وبضعة منازل ودكان أو اثنين،

ولما ذهب الحجاج المساكين ليأخذوا قسطاً من الراحة، عُلَتْ أصوات تقول: لصوص، لصوص. لقد سرق اللصوص إِبَّالة من جِمل حسن خان نامي من أهالي شيراز، وأراد أن يُظهر شيرازيته هنا إذ خرج في منتصف الليل يقفوا أثر اللص فُضِرَبَ على أُمِّ رأسه بالنبوة وعادَ ورأسه كان مشدوخاً. وقد تبين أن اللصوص قد سرقوا الكيس الذي كان فيه مقدار من الرز والطحين مع صُرَّة ثيابه. وأما ما بقي له فهو رأسه المكسور.

ولأننا قد وصلنا إلى المنزل بسرعة، وبعد مضي ساعة على طلوع الشمس، تحرّكنا من منزل (بئر الشيخ) وبدأنا في السير.

إن صحراء اليوم عبارة عن أرض مُنبسطة لا ماء فيها ولا كلاً. إن هذين المنزلين، أي بئر الحسان وبئر الشيخ، لا يوجد فيها ماء حَسَن، فطعمه غير مُستساغ، وهو مالح المذاق كأنه يحتوي على الزرنِخ. والمنازل التي في طريق مكة المشرفة كلّها كانت فيها مياه، وكان الماء فيها عذب طيّب. فلا معني لأي عاقل يسلك غير هذا الطريق ويترك العسكر، ويُسلم عقله إلى الجَمال. ما أريدُ قوله: إنَّ الأسف والندم على الماضي لا يؤدّي إلى نتيجة. إنَّ الظنَّ بالله المتعال هو أن تَنقُضي الأيام القليلة الباقية بسلام كذلك.

مضت أربع ساعات من يوم الاثنين، الرابع والعشرين من محرم، وصلنا إلى منزل (مستورة). وانفصلت قافلة هندية قبل ساعتين أو ثلاث عن الحجاج الفُرس حتى وصلنا. وارتفع صوتٌ من جهة الهنود. فعُلمَ أنَّ الصندوق الذي يحتوي على الأوراق والمستندات وسبعمئة ريال فرنسي قد سُرق.

الهواء في هذه الليلة بارد بحيث يميل المرء فيه إلى ارتداء اللباس وإشعال النّار. بعض الأشخاص من أمثال الشريف وأخيه وكامل افندي وبضعة افراد آخرين، ومنذ رحيل السيد حسام السلطنة هم في خيمة الحَدَم. من الليل حتى الصباح هم مشغولون بشرب الشاي والشيشة. وهناك أفراد يتناوبون في الحراسة. وقرّروا في

الصباح أن يتحرّروا لساعتين بقيتا للغروب؛ لكي يصلوا إلى المنزل الآخر وقت صلاة الصبح، على أساس أنه لو حدث نقص في الأحمال أثناء الليل فإن الجمال سيتحمّل المسؤولية، هذا في الوقت الذي كان قد سُرق كيس ابن الحاج عبد الهادي من على دابّته، ولم يُعوّضه أحد عن ذلك.

الماء في (مستورة) مُرٌّ إضافة إلى كونه مالِحاً، وقد كان طعام العشاء مُرّاً، فلم يكن هنالك بُدٌّ من ذلك إذ قلتُ لهم: بأن يتناولوا الغداء ويصلّوا صلاة الظهر والعصر وأن يركبوا بعدها.

أربع ساعات بقيت للغروب، في يوم الاثنين، الرابع والعشرين من محرّم الحرام، ركبنا من منزل (مستورة) وسرنا نحو منزل (رابغ). صحراء هذا اليوم عبارة عن أرض منبسطة كذلك، وكلُّ تحرّكنا من المدينة إلى الآن هو باتجاه القبلة. في النهار مع كون السماء غائمة، إلا أنه مضت بضعة أيام من المجدي. مُقدّم الهُودج مائل إلى الأرض. مع أننا لم نرتدّ إلا واحداً، فالعرق يجري من جسمنا.

عند وقت صلاة المغرب نزل الحجيّج يقيمون الصلاة، ثم ركبوا، وبعد مضيّ ثمان ساعات من ليلة الثلاثاء، الخامس والعشرين من الشهر، وصلنا الأرض النّخالة في (رابغ). بسبب وجود المياه أمامنا تعطلّ الحجاج. فتح الجمالون السود البُلّهاء قيود جمالنا وتركوها ترعى حوالى ساعتين ونصف في الصحراء. لقد ذهبوا في جميع الجهات إلا أنهم لم يجدوا طريقاً سالكة. وبعد مشقة وعناء اجتزنا الحاجز المائي وحتى تمكّنوا من إيجاد الطريق ونصب الخيام، صار وقت صلاة الصّبح. أقننا الصلاة وشربنا الشاي.

في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شهر محرم، بقينا في (رابغ) ليلة الأربعاء السادس والعشرين، ووقت طلوع الشمس، وفي يوم الأربعاء، السادس والعشرين، ركبنا من المنزل المذكور. ولساعتين بقيتا للغروب نزلنا لأداء الفريضة، وبعد أداء الصلاة، نزلنا. وبعد مضيّ ساعتين من الليل، سدّ الجمالون

الطريق قائلين نريد أن نفرغ الحمولة. أرادوا أن يمنعوا ذلك. وبدأوا يخادعون مدّعين أنهم ضلّوا الطريق. على أي حال فأبى شخص له ذرّة من العقل والإحساس لن يُسلم نفسه بيد جمّالين سود مجانين كهؤلاء. الحقّ أنّ الكتب التي ألفها الناس حول ذمّ وإهانة طريق الجبل هذا، التي تخيف كلّ من يقرأها لا تخلو من الصّحة والحقيقة.

وفي أثناء الطريق إنْتزع الهميّان الذي كان تحت صاحبه في الهودج بعد قطعه. كان صاحبه المسكين يحسّ بأنّ الهودج مائل، إلّا أنّه اعتقد أنّ الجمال يحاول شدّه وتسويته. ثمّ علّم أنّ طرفاً من الكيس كان قد سُرق. والعجب من أنّ الدولة تعلم علّم اليقين كلّ ما يجري من مذلّة للحجاج. وإذا ما تمّ تقديم شكوى أو احتجاج نتيجة ذلك، لا وجود للعدل هناك. الواقع أنّ مجموعة من الحجاج ظلّوا أسيري هؤلاء الغلمان السّود وتحت رحمتهم. كلّما واجه الحجاج مشكلة في طريق «جبل»، كان يوجد على الأقلّ شخص ما، يمكن سؤاله والحصول على الجواب منه.

على أي حال، بعد مضيّ عشر ساعات من ليلة الخميس، السابع والعشرين من الشهر، وصلنا منزل (قطيمة)، وتوقفنا نهراً، ولثلاث ساعات بقين للغروب من يوم الخميس، السابع والعشرين، تحرّكنا من المنزل المذكور، وفي الساعة السادسة من اللّيل، أوقف الجمالون الحجاج خلال الطريق قائلين: لقد ضلّنا الطريق. وبعد أن أبدوا قليلاً من الخداع تابعوا السّير، ولمّا ساروا مقداراً من الطريق، تجمعوا كذلك وعلا صوت الصياح والضوضاء. قال أحدهم: هوذا بحر! وصاح الآخر: إنّهُ مُستنقع! وبعد مدّة من التّأخير، علّم أنّه هو قليل من ماء المطر. كان أحد المسؤولين عن المشاعل قد تأخّر في إيصال المشعل. لقد مُزّق الهميّان من تحتنا كما يظهر، وقد سُرق ما كان في الهميّان. كان قد بقي فرسخٌ واحدٌ حتّى منزل (خيّط) عندما أوقف الحجاج قائلين لقد ضلّنا الطريق، يجب أن نتوقّف هنا. كلّ

الحجّاج اجتمعوا، أرادوا أن يُصرفوا هؤلاء الغلمان السود الأربعة عن ذلك، فلم يكن بالإمكان فعل شيء. فكان لابدّ من النزول. لم يكن هناك قدر يكفي من الماء حتى للوضوء للتهيؤ لصلاة الصبح. وبعد مشقة وعناء كبيرين أقننا الصلاة على أي حال، ثم ذهبوا على بعد فرسخ وجاءوا بماءٍ وحل وسخ كثيراً تسبّح فيه كلّ أنواع الجراثيم. يالها من مصيبة تلك التي يصبونها على رؤوس الحجّاج! الواقع أن ذلك لا يمكن تدوينه هنا.

في يوم الجمعة، الثامن والعشرين من الشهر، قضينا الوقت في صحراء لا اسم لها، ولأربع ساعات بقين للغروب من اليوم المذكور تحرّكنا وبدأنا المسير، لنرى ما سيحصل هذه الليلة، هل سيوصلون الحجّاج المشدوهين إلى جدّة أم أنّهم سيختلقون لعبة أخرى في هذه الصحراء. بعد مضي ساعة واحدة من الغروب، نزلنا لأداء صلاة المغرب. وبعد أداء الفريضة ركبنا، وفي الساعة السادسة، سُمِعَ صوت صياح يقول: إنّ البعير قد سُرق مع جمّله. فخرجوا لاقتفاء الأثر، فلم يجدوا فرصة لسرقة الحمل إذ تركوه في البرية وهربوا، وكان الصندوق ملكاً للحاج ميرزا محمّد صهر الحاج محمّد صادق الأصفهاني التاجر المعروف. تحرّكت هذه الجمال وسارت كسير النملة من الليل حتى الصباح. لأجل صلاة الصبح نزلنا أرضاً جميلة، فيها كلّ أنواع الورود والزرّوع، وكان يكثر فيها الخطمي الوردي والزهور الصفراء. كانت الصحراء كالزمرّد الأخضر بعد طلوع الشمس. ومع أنّ الأرض هنا رملية، فإنّه بقدرة الله نبتت كلّ هذه النباتات من خلال قطرتين. ويبدو أنّ المطر لم يهطل في هذه البلاد منذ أربع سنوات، والحمد لله فإنّه بسبب قدوم الحجّاج الميمون هذه السّنة هطلت أمطار كثيرة مفيدة.

بقيت أربع فراسخ حتى مدينة جدّة، جاء القُنصل للاستقبال. وقد أصرّ كثيراً علينا للذهاب إلى القُنصلية. ولأنّه لم يكن لديه عيال (زوجة) فلهذا السّبب لم أذهب. لقد أبدى منتهى الأدب.

في جدة:

مضت ستّ ساعات من يوم السبت، التاسع والعشرين من محرّم الحرام سنة (١٢٩٨)، وصلنا مدينة جدّة. لقد نزلنا في طابق علوي من بيت حيث يُشاهدُ البحر كلّهُ. هذه الليلة الوابور (السفينة البخارية) واقفٌ على البحر دون حراك. ليلة الأحد، غرّة شهر صفر المظفر (١٢٩٨) رأينا الهلال من السطح، وحمدنا الله لكوننا سالمين لحدّ الآن! نتمنّى من حضرة الباري سبحانه أن يحفظ أرواحنا وتنجو من هذا البحر العظيم. يعلم الله أين سنكون غرّة ربيع الأول. «اللهم اجعل عواقب أمورنا خيراً بحقّ محمّد وآله».

صباح يوم الأحد، غرّة شهر صفر، جاء الحاج عبد الله ديرباج بالباخرة وقال: هذه السفن البخارية ليست جيّدة، فعلى الحجاج أن يتوقفوا هنا عدّة أيام حتى تصل سفينة جيّدة أخرى. في كلّ عصر كنتُ أنظر إلى البحر بالمنظار. هذا هو تقدير الله، فأين أنا من جدّة والتفرّج على البحر؟! في الحقيقة أنّ الانسان يجهل عاقبة أموره أين تؤول. لحدّ اليوم وهو يوم الثلاثاء، لم يكن أثرٌ للسفينة. في حين لا تزال السفن البخارية السبع مرابطة في مكانها السابق في البحر.

إنّ بيوت جدّة كبيوت مكة المعظّمة. هذا المنزل الذي نساكن فيه حالياً، فيه ثمانون درجة سلّم من الأسفل حتى السطح، وإلى هذه الغرفة التي نقيم فيها هناك أربع وستّون درجة. ليومين متتالين تهبّ الريح هنا. وما دامت هناك ريح فإنّ الأهواء بارد بحيث يميل الفرد إلى ارتداء السترة. وبمجرّد توقّف الريح، يصبح الجوّ حارّاً. منذ اليوم الأول لدخولنا الجزيرة العربية، والذي كان في أوائل برج الميزان، وحتى الآن وهو الوقت الذي يقترب فيه من انتصاف الشّتاء، تُرى هذه الحالة في كلّ وقت وفي كلّ مكان. إلى الوقت الذي يكون فيه هناك نسيم، فالجوّ جيّد، وليس حارّاً، ومتى ما انقطع النسيم، فالجوّ يشبه جهنّم إلى حدّ كبير. والآن ومع هبوب النسيم ليومين متتالين، إلّا أنّ الماء ما زال بارداً داخل المجرار. عجّل الله في مجيء الوابور

إن شاء الله ووصله . ما أجمل أن يعرف الانسان عاقبة الأمور! فبدل التأخير الذي تحمّلناه في جدة، ألم يكن من الأجدر أن نقضيه في المدينة المنورة، التي هي في الحقيقة جنة عامرة تجدد الحياة والروح في الإنسان؟! روعي فداك يا رسول الله ﷺ: أناشد الله بحق ذلك العظيم أن يرزقنا التشرف ثانية بزيارة ذلك الضريح المبارك الشريف .

عندما تحرّكنا من مكة المعظمة باتجاه المدينة الطيبة، سلكنا طريق (فرع). وأما أسماء المنازل المذكورة هي: وادي فاطمة، عسفان، قطيمة، رابغ، بئر رضوان، أبو عاع، ريان، قصير، بئر ماشي، المدينة الطيبة. وأما الرجوع فكان عن طريق (السلطاني)، وذلك بحسب هوى الجمالين والشريف عديمي الإنسانية. إن الميزة التي كانت في طريق (السلطاني) هي المرتفعات والمنخفضات التي فيه، إلا أنه من حيث الماء والجمال لا مقايضة بينه وبين طريق (فرع) على الإطلاق. والمنازل التي مرّت بنا عند الرجوع من المدينة إلى جدة عن طريق (السلطاني) هي: قبة الرود، عار، بئر حسان، بئر الشيخ، مستورة، رابغ، قطيمة، خيط، جدة.

إن مدينة جدة مدينة كبيرة؛ وهي أكبر من المدينة الطيبة. وقد وُضعت سبعة مدافع متجهة نحو البحر وقريباً منه. كان هناك كل أنواع المأكولات في المدينة الطيبة، في حين لا توجد هنا إلا بعض الأشياء مثل النباتات الخضريّة والنارنج. وأما البرتقال والليمون فيوجدان بكمية ضئيلة في السوق. وبالنسبة إلى الخيار الأخضر فهو على عدد الأصابع. وإن كان لا ينفع الندم ولا الحسرة، إلا أن التأخير هنا لو كان في المدينة لكانت تلك نعمة جزيلة. ما أسوأ أن نتوقّف قرب منزل واحد عن مكة المعظمة ولا يكون بالإمكان التشرف بها...!

إنّ ما يحزّ في نفسي هو أن أكون في منزل قرب مكة المعظمة ولا نُسعد بالتشرف بزيارة الحبيب مرة أخرى. لم يبدِ المرافقون أيّ همّة أو جدارة وإلا كنا

تشرّفنا بالزيارة. على أيّة حال، الآن أنا تحت رحمة طابق علوي في جدّة... نحن بانتظار الوابور كلّ يوم. لقد توقّف العمل في وابور الحاج موسى بسبب عدم رغبة الحجيج إليه، فكانت الأجرة في بداية الأمر ثلاثين ريالاً وأربعين ريالاً للشخص الواحد، والآن وصلت الأجرة إلى خمسة عشر ريالاً واثنى عشر ريالاً كذلك. ولأنّ الحجّاج تأخروا في جدّة طويلاً، لم ينتهبوا إلى الثالث عشر من صفر، حيث تحرّك في يوم الخميس الثاني عشر من صفر (٨٣٠) شخصاً من الحجيج على وابور الحاج موسى. حفظ الله الجميع.

نحن الآن ما نزال مقيمين في جدّة، حتى نرى ما يكون من التقدير المقدّر، والحصول على إذن من أمّ البشر للرحيل. ومن فرط النسيان لحدّ اليوم وهو الثاني عشر من شهر صفر، لم اتشرّف بزيارة جدّتنا (حواء)، والآن وبعد التحقق في الأمر، ذكر أنّها قريبة من المنزل، فلم نجد بُدّاً من الذهاب مشياً. وبينما كنّا نمرّ خلال الزقاق، لمنا ساحة دارٍ ودهلز فخمين كانا قد وُضِعَ فيها كراسيّ ومقاعد كثيرة، وقد وقف شيخٌ على باب الدار. فتقدّمنا وتفرّجنا ثم أردنا العبور. فأفهمنا الشيخ بالعربية أنّ هناك أشخاصاً في الداخل. ومتى أردتم التفرّج على الطابق العلوي، فذلك ممكن. وكانت معنا زوجة عبدالحسين خان قائد اللّواء، وأخت سهام الدولة، ودخلنا إلى الطابق العلوي. كان الطابق العلوي قد دخل بعضه في بعض. وقد وضعوا المقاعد هناك. كانت سيدة البيت وهي صاحبة البيت قد ذهبت في زيارة خارج الدار. كانت هناك ابنتان صغيرتان وبعض الإماء الحبشيات الحسنات. قال الشيخ باللغة العربية: تفرّجوا على كلّ مكان جيداً. كانت بناية فاخرة. كان فيها حَمّام جميل من المرمّر. وقد بنوا قبةً كذلك كما هو متعارف لدينا. كانوا قد نصبوا زجاجاً. وهناك حنفيّة ماء بارد وأخرى للماء الحار آيتان من الخارج. كان الحَمّام فاخراً جدّاً. سألتُ الشيخ: أين مولاك؟ أجاب: في السوق. خرجتُ من هناك والمسافة طويلة حتى بيت الجدّة. والهواء حارّ كذلك. على

أيّ حال وصلنا. قبر أمّ البشر، السيدة حواء عليها السلام على هيئة أو شكل ميزاب سحب من طرفيه إلى الأعلى. وعند القدم توجد فتحة شبّاك حديدية، فقبّلنا وقرأنا الفاتحة، ثم طلبنا إذن الخروج. وتفصيل ذلك كما هو مكتوب من قبل السيّد العالي معتمد الدولة - روجي فده - في كتاب «يوميات السّفر إلى مكة المعظمة»^(٨). وهذه البقعة هي محل الشّرة المباركة. هناك بقعتان أخريان كذلك بين تلك شيهتان بقبر السيدة حواء حيث بُني حائط وعُمّر المكان. ويبدو من الذي ذكره السيّد العالي في كتابه اليوميات أن أحدهم هو قبر عثمان باشا والآخر هو أحد أقرباء عثمان باشا. يالهُ من عمل قبيح هذا الذي فعلوه حيث دفنوا آخرين مقابل جسد السيّدة! بعد الزيارة حصلنا على الإذن للخروج، ثم رجعنا.

بمجرّد الدخول إلى المنزل أخبرونا أنّ الوابور قد وصل، وإن شاء الله سنذهب إلى بوشهر. اليوم غادرَ وابوران وعادَ وابوران. وبما أنّ اليوم هو يوم الجمعة والثالث عشر من صفر، فإنّه قد توقّفنا أربعة عشر يوماً في جدة. ليس لدينا عملٌ إلّا الهمّ والغمّ. الهواء حارٌّ جداً منذ عدة أيام وليال، ومع ارتداء لباس واحد وفي مكان عالٍ يتمّ الوصول إليه بصعود ستين أو سبعين درجة، إلّا أن العرق يجري باستمرار. الحمد لله على كلّ حال حيث هطل مطرٌ نافعٌ قبل وصولنا إلى جدّة، وإلّا لا أحد يعلم ما كان سيحصل من قلة المياه خصوصاً وأنّهم يقولون: إنّ المطر لم يهطل هنا منذ أربع سنوات، وكيف كنّا سنتملّ كل ذلك التأخير؟!

اليوم، الحجّاج الذين تأخروا عنّا عندما كنّا نغادر المدينة، وهم كانوا ما يزالون يدخلونها، جاء بعضهم عن طريق (ينبع) والبعض الآخر عن طريق (رابغ) فراراً. لقد أعطوا ألف ريال إلى مسؤول القافلة كإتاوة. وقد أخذ مسؤول القافلة الأموال وهرب. وفي (رابغ) سدّوا الطريق أمام الحاج مطالبين إياهم بالإتاوة، وبما أنّ هؤلاء الحجّاج المساكين كانوا قد أعطوا أموالهم إلى مسؤول القافلة فقد أوقفوهم هناك، وهرب البعض الآخر. ويبدو أنّ الحجّاج الذين جاءوا عن طريق

(ينبع) قد قابلوا الشريف في (ينبع).

إِنَّ الْخُدْعَ التي أرادوا أَنْ يَمَرُّوها علينا أيام كُنَّا نخرج من المدينة، فقد مَرَّوها على الحجاج المساكين. أنزل الله البلاء على رأس شريف هؤلاء، وبقينا أَنْ رسول الله ﷺ بريء من هذه الذريرة. العجب كل العجب من هذه الطائفة التي تقول: لا إله إلا الله ولا يتورعون أو يحتاطون من أي شكل من أشكال النجاسة، ففي نفس المكان الذي يتبولون فيه، يتوضأون على الفور ويسرون حُفَاةً فيه. هنالك أشياء غريبة تُشاهد من هؤلاء. وقد بنوا دورة المياه بشكل لا يمكن تحاشي ترشيش الماء على الانسان. ومع عدم اكتراثهم وعدم تحوُّطهم، فهم يدخلون حرم رسول الله ﷺ في حين كانوا يمنعون الفُرس المساكين عن الحرم!!!...

الهوامش :

(١) بما أن هذه الرحلة طويلة، فقد اقتبسنا منها ما يخص الحج فقط.

(٢) المقصود هو «آل حرب».

(٣) وكذا في الأصل.

(٤) كذا في الأصل.

(٥) هكذا في الأصل.

(٦) أبو حسام السلطنة.

(٧) ربّما كان المقصود «الكاتب»

(٨) تقصد «كتاب هداية السبيل» لفرهاد ميرزا.

زعماء مكة

قاسم محمد

نحاول أن نتحدث عن إمامة تاريخية سريعة عن تاريخ الزعماء، الذين أنيطت بهم إدارة مكة المكرمة من أول الأنبياء آدم عليه السلام حتى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم. وعن المشاريع والتشريعات والأحداث التي حدثت لكل واحد من هؤلاء الزعماء والقادة. وقد تشرفت مكة في هذه الفترة أن يكون من بين زعمائها مجموعة من الأنبياء عليهم السلام والصالحين من القادة؛ ولذا حظيت مكة بأفضل الأنساب وأفضل القيادات، وصدرت منها أفضل التشريعات، حتى في الجاهلية التي احتفظت ببعض الأعراف والتقاليد الجيدة وعندما جاء الإسلام أقرّ الكثير منها، ثم إن الكثير من الأحداث التي حدثت فيها تعدّ أحداثاً عالمية تأثرت بها معظم الأمم والشعوب، وتحدثت عنها الكتب السماوية المقدسة بما فيها القرآن الكريم، وأمّهات الكتب التاريخية المهمة، وما حظيت مدينة في العالم من الاهتمام كالذي حظيت به مكة.

أهمية مكة

تعود أهمية زعماء مكة، إلى أهميتها من الناحية التاريخية، والمعنوية والاقتصادية.

الناحية التاريخية والخلاف في قدم مكة

فن الناحية التاريخية. فقد اختلف في تأريخ مكة، هل كانت قائمة قبل إبراهيم عليه السلام ثم عرض عليها الخراب بعد ذلك فجدها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، أم أن تأريخ بنائها وإنشائها يعود إلى إبراهيم عليه السلام؟ ذهب بعض أهل التفسير وكتاب التأريخ من المسلمين إلى أنها أسبق من إبراهيم عليه السلام ويعود تأريخها إلى آدم عليه السلام، مستدلين على ذلك بمجموعة من الروايات والأقوال والأقاصيص. في حين ذهب الرأي الآخر إلى أن هذه الروايات أخبار آحاد. والأقوال والأقاصيص خرافات وإسرائيليات، وبعضها يعتمد على ما حرّف من التوراة والإنجيل، فلا مجال للاعتماد عليها. وإنما المتيقن أن إبراهيم هو أول من بناها. كتاباً وسنةً صحيحةً. وبعضهم توقف عن الحكم. وقالوا: الله أعلم؛ لأنّ العقل لا مجال له للحكم في هذا الباب سلباً أو إيجاباً^(١).

دافع السيد الطباطبائي^(٢) عن الرأي القائل بقدم مكة: فقال في معرض تعليقه على هذه الأخبار «ونظائر هذه المعاني كثيرة واردة في أخبار العامة والخاصة وهي وإن كانت آحاداً غير بالغة حدّ التواتر لفظاً أو معنى، لكنها ليست معادمة النظر في أبواب المعارف الدينية ولا موجب لطرحها من رأس» وفي موضع آخر أثنى رده على الرأي الآخر: قال: «ما ذكره لا يخلو من وجه في الجملة إلا أنّهُ أفرط في المناقشة، فإنّ التناقض أو التعارض إنما يضرّ لواحد بكلّ واحد منها.

أما الأخذ بمجموعها من حيث هي - بمعنى لا يطرح الجميع لعدم اشتغالها على ما يستحيل عقلاً أو يمنع عقلاً - فلا يضره التعارض الموجود فيها، هذا بالنسبة لأخبار المعصومين (الأنبياء والأئمة عليهم السلام)، أما غيرهم من المفسرين فحال

غيرهم من الناس ، وحال ما ورد من كلامهم الخالي عن التناقض حال كلامهم المشتمل على التناقض ، وبالحملة لا موجب لطرح رواية أو روايات إلا إذا خالفت الكتاب والسنة القطعية ، أو لاحت منها لوائح الكذب والمجمل^(٣).

ويمكن إضافة بعض المرجحات التي تدعم هذا الرأي :

المرجح الأول : ما جاء في الكتاب العزيز عند قوله تعالى 'على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾^(٤) فقول إبراهيم عليه السلام عند بيتك المحرم يدل على أن البيت كان قبل ذلك ، إلا أنه دخل عليه الخراب . نعم هناك توجيهات أخر للآية كأن يقال : إن كلام إبراهيم عليه السلام هذا كان آخر عمره بعد بنائه للبيت الحرام . وبعدما سكنته جرهم . وهذا يمنع أن يكون دليلاً ، ولا يمنع أن يكون مرجحاً . وكذلك الكلام في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾^(٥) فيمكن حمل الأول على أقدم بيت وضع للعبادة في عصر آدم عليه السلام لا كونه أقدم من القدس كما في بعض التفاسير .

المرجح الثاني : ما ورد في خطبة القاصعة في نهج البلاغة^(٦) . قال أمير المؤمنين : (ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم (صلوات الله عليه) إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع ، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً؟) وفيه صراحة أن البيت وضع من لدن آدم عليه السلام .

المرجح الثالث : مرجح عقلي ، وهو أن الله سبحانه وتعالى بعد إخراج آدم من الجنة . لا يعقل أن يتركه من غير أن يعلمه مراسم عبادة تناسب موقعه الجديد حتى يأنس بها ويروي غريزة العبودية لله تعالى . وعلى قول الشهيد الصدر رضوان الله عليه : (إن العبادة حاجة إنسانية ثابتة في نفس الإنسان في جانبها الحسي المعنوي . والقبلة والحج من أبرز المظاهر العبادية الحسية والمعنوية . فما المانع أن يكون البيت الحرام ولد مع آدم عليه السلام ليُلبى تلك الحاجة . ونحن نعلم ما للحج من فضيلة وأثر في هذا

المجال؟! فقد ورد عن الباقر عليه السلام ^(٨): «لا زال الدين قائماً ما قامت الكعبة» وعن أبي عبدالله عليه السلام: «الحج أفضل من الصلاة والصيام». وإن القرآن الكريم قرن ترك الحج بالكفر إذ قال تعالى: «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» ^(٩) وغير هذا كثير.

وإذا ثبت هذا عند ذلك نقول: إن زعامة مكة بدأت بآدم عليه السلام وبأوصيائه من بعده، إلى أن دب الفساد في بني آدم، عند ذلك هجروا الكعبة. وبقيت مهجورة من زمن نوح عليه السلام بعد الطوفان، من غير زعامة ولا سكن إلى أن جاء إبراهيم عليه السلام فأعاد بناءها وجدّد مناسكها. وظهر ماء زمزم فيها، ثم بقيت قائمة شامخة تهوي إليها أفئدة من الناس إلى يومنا هذا.

الأهمية المعنوية

ولعلها الأهم في هذا الباب؛ لأنّها الدافع الأول للتنافس على زعامتها، ولأنّ غالباً ما تمتد الزعامة المعنوية إلى أبعد من مكة والجزيرة، لتشمل العالم كله. ولأهمية زعامتها هذه نجد كثيراً من الأحيان أن يتقاسم هذه الزعامة مجموعة من الوجوه أو القبائل، كلّ له جانب من جوانب تلك الزعامة، وسميت بأسماء بقيت موضع فخر لمن حاز طرفاً من تلك الزعامة، وأحياناً يزداد عدد الزعماء والمهام، فيتألف بذلك نظام حكومي أشبه ما يكون بالجمهوريات المعاصرة.

وتعود أهمية مكة المعنوية إلى كونها المنطلق الأول للبناء التكويني للحضارة الإنسانية، وكذلك البناء التشريعي حيث عرف الإنسان أول الشرائع على يد آدم عليه السلام في مكة المكرمة. وأضيفت إليها تشريعات جديدة كلما تجددت الحياة. وعندما تحرك الإنسان من هذه الأرض حمل معه ميراثه من هذه الشرائع. إلا أنّه للأسف الشديد عمد إلى تغييرها وتحريفها، تدفعه إلى ذلك المصالح الشخصية والأهواء النفسية. ومع ذلك بقيت مكة محط أنظار العالم تنطلق منها بين الفينة

والأخرى أنوار هدى يستضيء بها العالم .

وبقيت معظمة من قبل جميع الأديان والقوميات ، يقدمون لها الهدايا والقرايين والندور ويزورونها للدعاء حتى قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها . فكان الهنود يعظمونها ويقولون : إنَّ روح «سينا» وهو الأقوم الثالث عندهم حلَّت في الحجر الأسود . حيث زار سينا مع زوجته بلاد الحجاز^(١٠) .

وكانت الصابئة من الفرس والكلدانيين يعدونها أحد البيوت السبعة المعظمة . وربما قيل : إنَّه بيت زحل لقدم عهده وطول بقاءه^(١١) ، وكان الفرس يجترمون الكعبة أيضاً زاعمين أنَّ روح هرمنز حلَّت فيها^(١٢) . وكان أسلافهم يقصدون البيت الحرام ويطوفون به تعظيماً له ولجدهم إبراهيم . وكان آخر من حجَّ منهم ساسان بن بابك . وقد أهدى غزالين من ذهبٍ وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً ، فدفن في زمزم . وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام وقال :

وما زلنا نحجَّ البيتَ جمعاً ونلقى بالأباطح آميناً
وساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق يطوف دينا^(١٣)

وكان اليهود يعظمونها ويعبدون الله فيها على دين إبراهيم عليه السلام وبها صور وتماثيل منها تمثال إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام وصور العذراء والمسيح عليه السلام ويشهد ذلك على تعظيم النصارى لأمرها^(١٤) . وموضع البيت الحرام يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض . ويدعو عنده المكروب ، فكلٌّ من دعا هناك استجيب له . وكان الناس يحجّون إلى موضع البيت حتى بوأ الله مكانه لإبراهيم عليه السلام لما أراد عمارة بيته وإظهار دينه وشريعته^(١٥) .

ولم أهبط منذ أنزل الله آدم عليه السلام إلى الأرض محرماً بيته تتناسخه الأمم والملل أمة بعد أمة وملة بعد ملة^(١٦) .

وكان النبي من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق بمكة ، يتعبد فيها ذلك النبي ومن

معه حتى يموت فيها، فمات فيها نوح وهود وصالح وشعيب، وقبورهم بين زمزم والحجر^(١٧). وبين زمزم والركن قبور سبعين نبي^(١٨). ومن هذا نعلم مدى أهمية زعامة مكة عالمياً، وليس فقط بالنسبة للجزيرة والعرب.

الأهمية الاقتصادية

يمكن إيجاز الأهمية الاقتصادية لمكة بكونها الممر التجاري للقوافل، التي تنقل البضائع من مختلف بقاع العالم، وتكون حلقة وصل بين الحضارات المختلفة؛ لذلك أنشئت في مكة مجموعة من القنصليات لمختلف الدول والممالك المحيطة بالجزيرة العربية كالأحباش، والروم، والفرس، وعين فيها ممثلون لبعض الممالك العربية التي أسست على أطراف الجزيرة العربية. وأنشئت مجموعة من الأسواق للتبادل التجاري بين هذه الأمم. كسوق عكاظ وذات المجاز وغيرها، وأنشئت أحلاف وعلاقات للحفاظ على هذه التجارة وحركة القوافل بين القبائل والممالك المختلفة.

والشيء الآخر الذي أعطى مكة أهمية اقتصادية هو الهدايا والندور والقرايين التي تقدم للكعبة والحرم، وقد خصص مكان لجمع هذه الهدايا والندور. زعامة آدم عليه السلام

عندما أنزل الله سبحانه وتعالى آدم إلى الأرض حمّله الأمانة على هذه الأرض «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً»^(١٩).

ثم أخذ منه ومن ذريته ميثاق الربوبية «وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين»^(٢٠).

وعندما أحس آدم وحواء عليه السلام بالوحدة والوحشة طلبا من الله سبحانه

وتعالى أن يأتيها صالحاً يأنس به، فأوحى الله إلى آدم: ﴿سأخرج من صلبك من يسبحني ويحمدني، وسأجعل فيها بيتاً ترفع لذكري، وأجعل فيها بيتاً أخصه بكرامتي وأسميه بيتي، وأجعله حرماً آمناً... تعمره أنت يا آدم ما كنت حياً، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك...﴾ (٢١).

ولما حقق الله له ذلك، وأصبحت له ذرية ورعية، واجه آدم في زعامته المشكلة الأولى، وهي الصراع بين قابيل وهايل.

وعلى ما في بعض الروايات احتكموا إليه في أمر زواج كل واحد من توأم أخيه الآخر، وكانت توأم قابيل أكثر جمالاً، فحكم عليهم أن يقربا قرباناً تأكل النار من تقبل منهما ويستحق الاخت الجميلة ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر﴾ (٢٢).

فاستشاط قابيل غيظاً عندما جاء الحكم ليس بصالحه ورفض الحكم، وقتل أخيه هايل بعد أن قال له هايل ﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك﴾ (٢٣) لكن قابيل ﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله﴾ (٢٤).

ومن هذا الحدث الخطير انقسمت الانسانية ومنذ عصر آدم ﷺ إلى قسمين: أهل الخير وأهل الشر. احتفظ أبناء آدم الخيرين من ذرية آدم بموقعهم قرب الكعبة في جبال مكة وضواحيها. بينما ذهب قابيل وبنوه إلى سهول الجزيرة واليمن، واندفعوا في أرض الله الواسعة بعيداً عن نور النبوة ومشعل الهدى فراحوا في ظلام الجهل يتخبطهم الشيطان، يفعلون المنكر ويأتون الشهوات ويعيشون في الأرض فساداً، وتعلموا الطرب والغناء وما شابه ذلك من الموبقات.

زعامة شييت

عندما مرض آدم ﷺ مرضه الأخير. جعل الوصية لابنه شييت، وأمره أن يكتم علمه عن قابيل حتى لا يفعل به ما فعله مع هايل، ومنع بنيه من الاختلاط

بأبناء قابيل ، حتى يحصّنهم من الأمراض التي انتشرت بين أبناء قابيل من اللهو واللعب والفساد والافساد .

ومن نشاطات شيث^(٢٥) : أنّه بنى الكعبة من الحجارة والطين بعدما كانت من الخيام .

واستطاع شيث أن يضبط من كان تحت ولايته على المنهج الإلهي الصحيح فترة حياته ، وينجح في عزلهم عن أبناء قابيل ؛ ليحافظوا على الفطرة التي فطرهم الله تعالى عليها ، والأمانة التي أودعها سبحانه وتعالى ، ويلتزموا بالميثاق الذي أخذه الله على الإنسان .

وعندما حضرته الوفاة أوصى لابنه أنوش ما أوصاه آدم ﷺ إليه . وما زال أبناء آدم الذين سكنوا الحرم محافظين على التزامهم ما لم يختلطوا بأبناء قابيل وذريته ، ويتوارد زعامتهم صالح بعد صالح إلى أن جاء «برد» فنزل بعض ذرية شيث من الجبل ، واختلطوا بذرية قابيل التي عمّها الفساد ومن بعد «برد» «اخنوخ» وقيل : إنّه إدريس النبي ﷺ^(٢٦) فزاد الاختلاط وكثر الفساد حتى بين أبناء شيث ، ولم يبق من الصالحين إلّا نفر قلائل ، فنقضوا الميثاق وعبدوا الأوثان ، وبدأت مرحلة العمل الاصلاحى التي تزعمها نوح ﷺ .

زعامة نوح :

وفي زمانه استشرى الفساد وعبدوا الأوثان كما ذكر القرآن الكريم «وقالوا لا تذرن آلهمكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً»^(٢٧) . ولما طالت دعوته دون أن يستجيب له أحد ، بل وجد الأبناء أشد من الآباء اعتذر نوح إلى ربه «قال ربّ إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً * فلم يزدتهم دعائي إلّا فراراً»^(٢٨) .

فأجابه ربه : «أنّه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن...»^(٢٩) عند ذلك دعا نوح ربه : «ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً»^(٣٠) .

فاقتضت الحكمة الإلهية أن تطهر الأرض من الكافرين لتبدأ دورة حياة جديدة للإنسان. فأمر الله تعالى نوحاً أن يصنع الفلك «واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون»^(٣١) وفعلاً تحقق أمر الله فيهم وعلموا ما كانوا يجهلون «حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور»^(٣٢) وحتى لا تنقرض الحياة على هذا الكوكب «قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن»^(٣٣) واستثنى الله تعالى ابن نوح «... إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح»^(٣٤) ثم جاء أمر الله إلى السماء والأرض «فتفتحنا أبواب السماء بماء منهمر»^(٣٥) ولم ينفع ابن نوح الذي اعتصم بأحد الجبال الشاهقة حيث «لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم»^(٣٦) وعندما طهرت الأرض من الظالمين «وقيل بعداً للظالمين»^(٣٧) عند ذلك جاء الأمر الإلهي الآخر «وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء»^(٣٨).

وبهذا بدأت دورة حياة جديدة للإنسانية. وزّع عناصرها نوح عليه السلام - مما بقي معه في السفينة - على الكرة الأرضية^(٣٩). فكان سام الابن الأكبر لنوح ووصيه كذلك، جعله في القسم الذي فيه مكة.

وفي الفترة بين نوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام لم يحدثنا التاريخ أن مكة بنيت في هذه الفترة أو مضرت. إلا أنها بقيت مقدسة، وكان يأتيها المظلوم والمتعوز من أقطار الأرض ويدعو عندها المكروب، فكل من دعا هنالك استجيب له. وكان الناس يحجّون إلى موضع البيت حتى بوأ الله مكانه لإبراهيم عليه السلام^(٤٠).

زعامة إبراهيم

في خضم الصراع البشري بين الحق والباطل وبين الإيمان والكفر. ينتصر إبراهيم عليه السلام لرسالة الحق بعد أن ادّخره الله وحفظه بالاعجاز من طاغوت عصره النمرود؛ ليكلفه تبليغ رسالة السماء. وتكلفه هذه الرسالة الشيء الكثير، وتضطره للهجرة هنا وهناك، والتنقل من بلاد إلى أخرى، ويبتليه الله تعالى كما ابتلى سائر

الأنبياء والرسل، ويمتحنه عدة امتحانات، ومما امتحن به إبراهيم عليه السلام خلوه من الولد - بعد أن بلغ من العمر عتياً - ليكون وصيه يحمل هم الرسالة من بعده. فقد يد الضراعة إلى الله والسؤال «ربِّ هب لي من الصالحين»^(٤١) ويأتي الجواب من ربِّ العالمين «فبشرناه بغلام حليم»^(٤٢) لكن لا من زوجته ساره. وإنما من هاجر، التي وهبتها سارة لإبراهيم عليه السلام. بعد أن دفعته مشاعر الحنو إلى صوت الطفولة؛ ليبدد سكون البيت الممل. ولكن لما ولدت هاجر اسماعيل انقلبت المشاعر إلى مشاعر الغيرة الكامنة في النفس، فتطلب سارة من إبراهيم أن لا يسكننا مع هاجر في مكان واحد. فبدأت الأمر الإلهي لإبراهيم عليه السلام أن يهاجر بهاجر وابنها إلى حرم الله. ولما انتهت الرحلة بأرض مكة القاحلة، توجه إبراهيم إلى ربِّه «ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم»^(٤٣) فاستجاب له ربُّه أن هيئاً أسباب الحياة في ذلك الوادي، فنبع الماء من تحت قدم إسماعيل، ثم جاء الخير الذي ترجوه هاجر بعدما دلت الطيور النازلة في ذلك الوادي على الماء، فاجتذبت تلك الطيور إحدى القوافل إلى ذلك الوادي فوجدوا هاجر وأبناً تحت عريشها، فاستأذنها بالهبوط معها في ذلك الوادي، فأذنت لهم مستبشرة بذلك، ولما علموا أنها حرم إبراهيم وهذا ابنه إسماعيل زادوها احتراماً، واهدوا لولدها مجموعة من الماعز، ولما بلغ إسماعيل عليه السلام مبلغ الرجال تزوج منهم زوجته الأولى.

وكان لإبراهيم عليه السلام ثلاث زيارات لإسماعيل قبل بناء البيت، وعند زيارة إبراهيم الأولى، لم يجد إبراهيم الحفاوة والتكريم المعهود في عصره من زوجة إسماعيل بعد أن كان إسماعيل غائباً عنها في الصيد. فترك رسالة شفوية رمزية. تقول له: «غير عتبة دارك»^(٤٤). ومفادها أن يطلق زوجته فامثل إبراهيم عليه السلام أمر أبيه وطلق زوجته وتزوج بثانية. وعندما زاره للمرة الثانية وجد الحفاوة التامة والكرم حتى إنها (زوجة إسماعيل الثانية) غسلت رأسه من غبار التعب. فترك إبراهيم عليه السلام رسالة شفوية أخرى تقول له «حافظ على عتبة دارك»^(٤٥).

وأما الزيارة الثالثة . فقد جاء بأمر عظيم . ألا وهو الأمر الإلهي ببناء الكعبة؛ لتكون مثابة للناس وأمناً ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٤٦).

ولما فرغ إبراهيم وإسماعيل من البناء أتاه جبرئيل ﷺ وأقاما مراسم الحج معاً؛ لتكون سنّه للأجيال القادمة، وعندها دعا إبراهيم الناس للحج ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^(٤٧).

إسماعيل ﷺ

الذبح : عندما تقترن الزعامة بالنبوة . تصبح لها نكهة خاصة ، تجذب إليها النفوس الكريمة ، وتهوي إليها الافئدة الطاهرة ، ويقترّب منها الصالحون . وعندما يختار الله سبحانه وتعالى عبداً لحمل رسالته ، يدخله في دورة من الابتلاءات والامتحانات حتى تكتمل شخصيته ، ويكون مؤهلاً لحمل الرسالة . وإسماعيل ﷺ كان واحداً من أولئك العباد الصالحين ، الذين اختارهم الله لرسالته ، وادخله دورة تأهيلية لحمل النبوة . ومن مفردات تلك الدورة قصة الذبح . حيث يرى إبراهيم ﷺ في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل ﴿يَا بَنِي إِنِّي ارْى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾^(٤٨) ورؤيا الأنبياء صادقة كاليقظة . فيلبي إبراهيم أمر ربّه ، وفي رحلة الحج أو غيرها يقف إبراهيم على إسماعيل وهو يصلح النبل للصيد ، ليبليغ إسماعيل ﷺ بالأمر الصعب . فهل يستجيب له كما استجاب في المرات السابقة من الطلاق وبناء البيت والحج وغيرها؟ ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾^(٤٩) ويحاول إبراهيم أن ينفذ الأمر في ابنه ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهِ لِلْجَبِينِ﴾^(٥٠) تنفيذاً لأمر الله وعندما وضع السكين على رقبتّه أدركته الرحمة الإلهية فجاءه النداء الإلهي ﴿... أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَإِنَّ هَذَا لَهُو الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾^(٥١).

وانطلق إسماعيل يبدأ خطى الحياة من جديد . بعد أن أصبح مؤهلاً للزعامة

الدينية والدنيوية. ويحسن إدارة مكة مستعيناً بأبنائه الاثني عشر وعلى رأسهم نائب وقيدار، الذين يرتبط نسب العرب المستعربة بهم، والذين نزل القرآن بلغتهم. ولذلك كان الرسول ﷺ يقول: أنا ابن الذبيحين يعني إسماعيل وعبدالله. وورد عنه ﷺ كذلك. «إذا افتتحت مصر فاستوصوا بأهلها خيراً فإنّ لهم ذمة ورحماً» وكان يقصد هاجر أم إسماعيل المصرية ومارية أم ابراهيم زوجة النبي ﷺ القبطية المصرية.

ولما حسنت إدارة مكة على عهد إسماعيل وبنيه، كثرت الهجرة إلى مكة وتمصرت، خاصة بعد خراب سد مأرب حيث انتشرت الأقوام المحيطة في السد، وقسم منها هاجر إلى مكة. ويُستدل من بعض الأخبار أنّ مكة قد عمرت بالسكان في عهد إسماعيل حتى كان لها نظام حكم وسلطة وإدارة، خصوصاً أن مكة كبرت واتسعت وتشابكت مصالح سكانها، وأصبحت لها مواسم تختلف مهماتها من طقوس دينية وعروض تجارية وغير ذلك^(٥٢). وبقيت هكذا تزدهر إلى أن توفي إسماعيل، وجاء من بعده ابنه نائب، وكان الرئيس بعده والقائم بالأمور والحاكم المطلق في مكة والناظر في أمر البيت وزمزم. ثم جاء بعد نائب قيدار بن إسماعيل وسار بالطريقة التي سار بها أخوه نائب وأبوه إسماعيل عليه السلام.

زعامة جرهم:

اختلف المؤرخون في إدارة مكة بعد نائب وقيدار، فمن قائل: إنّ إدارتها كانت لجرهم بعدهما، وآخر ينسب ذلك إلى العماليق، وثالث يقول: إنّها كانت مشتركة بين جرهم والعماليق، ثم حدث صراع بينهم أدى إلى نفي العماليق عن مكة، وإلى سيطرة جرهم عليها. وآخر يعيد ذلك الحدث من الصراع إلى «طسم» أو أبناء قنطورا. إلّا أن أشهر الأخبار تشير إلى أن الذين تولوا إدارة مكة بعد أبناء إسماعيل هم جرهم، وهم الذين تزوج إسماعيل منهم زوجته، إلّا أنه كذلك اختلف في كيفية استيلائهم على الإدارة، هل كانت بالحرب والقوة أم بالسلم؟ واختلف كذلك هل

كانت جرهم تسكن مكة أو قريباً منها قبل إبراهيم وزوجته هاجر وابنها، أم أنها كانت غير مسكونة، وإنما اتفق مجيء قافلة من جرهم، وفي أثناء مرورهم علموا من نزول الطير وجود ماء في وادي مكة، وعثروا على هاجر وابنها في تلك الحال (٥٣)؟

ثم إنه هناك من يقول: إن جرهم اثنان. الأولي ابيدوا على يد القحطانيين. والثانية هي التي تولت إدارة مكة بعد أبناء إسماعيل (٥٤). وعلى كل حال أن جرهم تصاهرت مع إسماعيل وكانوا يتكلمون العربية، وأن إسماعيل أخذ منهم اللغة العربية بعد أن عاش بين ظهرانهم منذ نعومة أظفاره حتى وفاته.

ثم إنه في أيام إدارة جرهم، لم يكن أحد يقوم بأمر الكعبة غير ولد إسماعيل تعظيماً لهم. فقام بأمر الكعبة بعد ثابت أمين، ومن بعده يشجب بن أمين، ثم الهميح، وبعده أدر الذي عظم شأنه في قومه وجل قدره، وأنكر على جرهم أفعالهم، وهلك جرهم في عصره (٥٥). على إحدى الروايات وفي رواية المسعودي في المروج (٥٦): أن أول ملوك جرهم بمكة مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هبتي بن نبت بن جرهم بن قطحان، ثم بعده عمرو بن مضاض، ثم الحارث بن عمر، ثم عمر بن الحارث، ثم مضاض بن عمر الأصغر. وفي رواية أخرى لليعقوبي (٥٧): أن أول ملوك جرهم مضاض بن عمر، ثم الحارث بن مضاض، ثم عمر بن الحارث، ثم المفسم بن ظليم، ثم الحواس بن جحش بن مضاض، ثم عداد بن ضداد بن جندل، ثم محص بن عداد، ثم الحارث بن مضاض بن عمر، وكان آخر من ملك من جرهم.

دفاع جرهم عن مكة: وقد دخلت جرهم في حروب متعددة دفاعاً عن موقعها، فمن ذلك أن الحارث بن مضاض أول من ولي البيت، وكان كل من دخل مكة بتجارة عشرينها عليه في أعلى مكة. وملك العمالق السמידع بن هوبز بن

لاوي بن قيطور بن كركر. وكان يعشر من دخل مكة من ناحيته، وكانت بينهما حروب فتارة تكون على الجرهميين وأخرى لهم، واستقام الأمر لجرهم آخر المطاف^(٥٨) وينقل حسين أمين في موسوعة العتبات المقدسة^(٥٩): أن في أيام الحارث ابن مضاض الجرهمي نشطت حركة بني إسرائيل، وزحفوا يريدون مكة من الشمال، فقاتلهم الحارث بن مضاض، فهزمهم واستولى على تابوت من الكتب يحملونه، وفيه ما انتحلوه من الزبور.

سقوط جرهم

وردت أخبار متباينة في كيفية سقوط جرهم. فمن ذلك ما ذكره ابن هشام^(٦٠): أن جرهماً بغوا بمكة واستحلوا حلالاً من الحرم، فظلموا من دخلها من غير أهلها، وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى لها، ففرق أمرهم، فلما رأت بنو بكر ابن عبد مناة من كنانة، وغبشان من خزاعة ذلك أجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة، وكانت مكة في الجاهلية لا تقر فيها ظلماً ولا بغياً، ولا يبغى فيها أحد إلا أخرجته، ولا يريد لها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه. فيقال: إنها ما سميت بكة إلا لأنها كانت تبك أعناق الجبابة إذا أحدثوا فيها شيئاً. فلما أحس عمرو بن الحارث الجرهمي خرج بغزالي الكعبة وبحجر الركن ففذفها في زمزم، وانطلق هو ومن معه إلى اليمن، فحزنوا على ما فارقوا عن أمر مكة وملكها حزناً شديداً، فقال عمرو بن الحارث بن عمرو بن مضاض في ذلك شعراً:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها والقلب مني كأنما يلجلجه بين الجناحين طائر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا صروف الليالي والجدود الغوائر
وكنا ولاية البيت من بعد نابت نطوف بذاك البيت والخير ظاهر

ولهذا الشعر قصة لطيفة: إن عمرو بن الحارث كان قد نزل بقنونا من أرض

الحجاز، فضلت له إبل فبغاها حتى أتى الحرم، فأراد دخوله ليأخذ إبله، فنادى عمرو بن لحي: من وجد جرهمياً فلم يقتله قطعت يده. فسمع بذلك عمرو بن الحارث، وأشرف على جبل من جبال مكة، فرأى إبله تنحر ويتوزع لحمها، فانصرف بائساً خائفاً ذليلاً وأبعد في الأرض، وبغربته يضرب المثل، ثم قال هذا الشعر.

وفي رواية اليعقوبي^(٦١). أن جرهم لما طغت وظلمت وفسقت في الحرم، وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى إليها، سلط عليهم الذر فاهلكوا عن آخرهم. ورواية المسعودي^(٦٢) تقول: لما بغت جرهم في الحرم وطغت حتى فسق رجل منهم في الحرم بامرأة، بعث الله على جرهم الرعاف والنمل وغير ذلك من الآفات، فهلك كثير منهم. وكثر ولد إسماعيل وصارو ذوي قوة ومنعة، فغلبوا على أخوالهم جرهم، وأخرجوهم من مكة فلاحقوا بجهينة، فأتاهم في بعض الليالي السيل فذهب بهم.

مشاريع جرهم:

١ - حلف الفضول: من مشاريع جرهم حلف الفضول الأول. وذلك أن نفراً من جرهم وقطوراء يقال لهم الفضيل بن الحارث الجرهمي والفضيل بن وداعة القطوري المفضل بن فضالة الجرهمي اجتمعوا فتحالفوا أن لا يقرؤا ببطن مكة ظالماً. لا ينبغي إلا ذلك لما عظم الله من حقها. ثم درس ذلك فلم يبق إلا ذكره في قريش، إلى أن أعيد في حياة النبي ﷺ في دار عبدالله بن جدعان، وقبل البعثة النبوية الشريفة^(٦٣).

٢ - بناء الكعبة: والحدث الآخر بناء الكعبة بعد أن أخذها السيل وزادوا في بناء البيت، ورفعته على ما كان عليه من بناء إبراهيم عليه السلام^(٦٤).

٣ - الإطعام: والشيء الآخر إطعام الطعام للوافدين إلى مكة، وطبخوا الكثير

وسمي المكان بطابخ^(٦٥).

بعد سقوط جرهم عادت مكة لأبناء إسماعيل . وكان أول من تولى الزعامة من ذرية إسماعيل عليه السلام أياد بن نزار بن معد ، لكن لم يستتب الأمر إلى أياد حتى نشب نزاع بين أياد ومضر ، فكانت بينهم حروب كثيرة حتى ظهرت مضر على أياد ، فأنجلوا من مكة إلى العراق قرب الكوفة ، واجلاهم كسرى أنوشيروان إلى تكريت والجزيرة والموصل ، ثم نزحوا منها إلى بلاد الرومان والشام^(٦٦).

وذكر اليعقوبي^(٦٧) أن أياداً لما أرادوا الرحيل من مكة حملوا الركن على جمل فلم ينهض به ، فدفنوه وخرجوا ، وبصرت بهم امرأة من خزاعة حين دفنوه فلما بعدت أياد اشتد على مضر وأعظمته قريش وسائر مضر ، فقالت الخزاعية لقومها : اشرطوا على قريش وسائر مضر أن يصير إليكم حجابة البيت حتى أدلكم على الركن ففعلوا ذلك ، فلما أظهروا الركن صيروا إليهم الحجابة .

تضاربت الأخبار في كيفية وصول خزاعة إلى زعامة مكة ، وكذلك اختلفوا فيهم هل هم من قحطان أو من عدنان ؟ هناك رأي يذهب إلى أن قبيلة خزاعة كانت تنزل حول الحرم في أيام جرهم ، وأن أصلها من اليمن كالجرحميين ، وقد هاجرت بسبب ما كان ينتظر من الدمار ، الذي خلفه السيل وأقامت في مكة ، فقامت خزاعة في وجه جرهم ووقع القتال بينهما ، واعتزل بنو إسماعيل القتال ، فتغلبت خزاعة على جرهم ، وانتزعت منهم الإمارة وأجلتهم عن مكة^(٦٨).

في حين كتب الدكتور حسين أمين في الموسوعة نفسها^(٦٩) : أن خزاعة خزع من قبيلة الأزدي العربية الكبيرة ، ويضيف أن معظم النسابة ينسبون هذه القبيلة إلى عمر بن لحي بن حارثة . ويذكر المسعودي^(٧٠) أن سبب تسميتهم خزاعة لما خرج عمر بن عامر وولده من مأرب انخزع بنو ربيعة فنزلوا بتهامة ، فسموا خزاعة لانخزاعهم . أما صاحب الميزان^(٧١) يسميهم الإسماعيليين ، ثم نسبهم إلى عمر بن لحي ، وهو أول زعيم لخزاعة على مكة . ويعتقد الأخباريون أن أول من نصب

الأوثان على الكعبة هو عمرو بن ربيعة، وهي لحي بن حارثة بن عمر بن عامر الأزدي، أبو خزاعة، ويعتبر أول من غيّر دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وسيب السائبة، وبحر البحيرة وحمى الحمى^(٧٢). ويذهب ابن الأثير^(٧٣) إلى أنّ أول من ولي البيت بعد جرهم عمرو بن ربيعة وقيل وليه عمر بن الحارث العسائي ثم خزاعة بعده. وقال: إنّ خزاعة أبقت لمضر ثلاث خصال: الإجازة بالحج من عرفة وذلك إلى الغوث بن حر بن اد، وهو صوفة. والثانية الإضافة من جُمع إلى منى، وكانت إلى بني زيد بن عدوان. والثالثة: النسيء للشهور الحرام فكان ذلك إلى القلمس.

الأصنام:

يذكر أنّ أول من أدخل الأصنام إلى مكة هو عمر بن لحي^(٧٤). وقصة ذلك: عندما مرض عمر بن لحي وصفوا له أحد العيون في البلقاء من ربوع الشام، أن من يغتسل بها يشفى، ولما استحتم بها وبرئ من مرضه، رأى أهل ذلك البلد يعبدون الأصنام، ولما سألهم عنها أجابوه: هذه أرباب نتخذها لنا نستنصر بها ونستشفى بها. عند ذلك طلب صنماً منها فأعطوه «هبل» فوضعه بعد عودته فوق الكعبة، ومن ذلك اليوم بدأت تنتشر الأصنام بين العرب، وأصبح لكل قبيلة صنم، ومع ذلك بقيت ثلة مؤمنة على دين الحنفية دين إبراهيم عليه السلام.

كانت نهاية خزاعة على يد قصي بن كلاب، والذي اسمه الحقيقي زيد بن كلاب. مات أبوه وتركه صغيراً، فتزوجت أمّه من ربيعة بن حزام كبير بني عذرة، فنقلها إلى بلد عذرة من مشارف الشام، وحملت معها زيدا لصغره، فشب في حجر ربيعة، وسمي قصياً لبعده عن دار قومه. ولما عيره أخوه لأمه الفضاعي بالغربة، رجع إلى أمّه وسألها عما قال. فقالت له: يا بني أنت أكرم منه نسباً ونفساً أنت ابن كلاب بن مرّة، وقومك في مكة عند البيت الحرام. وعندها شد الرحال إلى مكة وأقام مع أخيه زهرة، ثم خطب إلى حليل بن حبشة ابنته فزوجه، وحليل يومئذ يلي الكعبة وهو شيخ كبير. فولدت لقصي أولاده عبد مناف وعبد العزى وعبد

قصي . وكثر ماله وعظم شرفه ، ولما هلك حليل أوصى بولاية البيت لابنته حبي . فقالت : إني لا أقدر على فتح الباب وإغلاقه ، فجعل فتح الباب إلى ابنه المحترش ، فاشترى قصي منه ولاية البيت بزق خمر وبعود فضربت العرب المثل فقالت : أخسر صفقة من أبي غبشان . وقيل : أحليل من حبشة أوصى قصياً بذلك ، وقال : أنت أحق بولاية البيت من خزاعة . عندها جمع قومه وأرسل إلى أخيه من فضاة يستنصره ، فحضر فضاة في الموسم . وكانت صوفة تدفع بالناس من عرفات وتجهزهم إذا تفرقوا من منى . فأتاهم قصي ومن معه من قومه ومن فضاة فمنعهم وقال : نحن أولى بهذا منكم ، فقاتلوه وقتلهم قتالاً شديداً فانهزمت صوفة ، وغلبهم قصي . فأنحازت خزاعة بعد أن عرفت أنه سيمنعهم كما منع صوفة ، وكثر القتال بين خزاعة وبني بكر من طرف وقصي وفضاة من طرف آخر . ثم تداعوا إلى الصلح ، على أن يحكموا بينهم عمرو بن عوف بن كعب بن ليث من كنانة ، فقصى بينهم بأن قصياً أولى بالبيت من خزاعة ، وإن كل دم أصابه من خزاعة وبني بكر موضوع يشدخه تحت قدميه ، وإن كل دم أصابت خزاعة وبني بكر من قريش وبني كنانة ففي ذلك الدية مؤداة^(٧٥) .

زعامة قريش

الزعيم الأول قصي:

تولى قصي الزعامة بعد أن حكم له عمرو بن عوف بالأحقية في ولاية البيت ، وهو أول رئيس . ووردت الأخبار أنه لم شعث قومه وجمعهم من الأودية والشعاب والجبال إلى مكة ، وابتنى مقر رئاسته وسمي دار الندوة ، يجتمع فيه أعيان قريش ويقرن ما شاءوا من الأحكام في أمور السلم والحرب ، فكان يشبه المجلس النيابي أو مجلس الشورى . وسنّ تشريعات جديدة تقضي بعدم أحقية من لم يبلغ الأربعين من السنين أن يدخل هذه الدار . وكلما توسعت مكة وكثر سكانها وروادها

والمهاجرون إليها، كلما تعددت الأغراض وتوسعت المهام واحتاج الوضع إلى نظام إداري أفضل، وخاصة بعد أن أصبحت مكة وأسواقها المركز التجاري الأول في العالم؛ للاختلال الذي وقع في النقل البحري بسبب الصراع القائم بين الدول العظمى والروم والفرس والأحباش، فأصبح الممر التجاري البري أكثر أماناً، فاندفعت آلاف الإبل تنقل البضائع وتحط الرجال في مكة المحطة العالمية الآمنة، خاصة بعد انهدام الممالك العربية في أطراف الجزيرة ودخول الأحباش لها.

عند ذلك عمد قصي إلى أن يؤسس نظاماً إدارياً أشبه ما يكون بالنظام الجمهوري، فكان هذا النظام قائماً على أساس تقسيم المهام وتوزيعها على مجموعة أفراد. والمهام هي:

١ - السدانة: وهي الحجابة، وباستطاعة المتولي فتح الباب وغلقها لأن المفتاح بيده.

٢ - دار الندوة: ويمكن أن نعبر عنها مجلس الشورى والقضاء.

٣ - اللواء: وهو الراية فكان لقريش راية اسمها العقاب، وكانوا إذا أرادوا الحرب أخرجوها. فإذا اجتمع رأيهم على واحد سلموه إياها، وإلا فإنهم يسلمونها إلى صاحبها.

٤ - السقاية: وهي عبارة عن حياض من آدم (جلود كانت على عهد قصي توضع في فناء الكعبة، ويسقى فيها الماء العذب من الآبار على الإبل ويسقاه الحجاج).

٥ - الرفادة: خرج من المال كانت قريش تخرجه من أموالها في كل موسم فتدفعه إلى قصي يصنع به طعاماً للحجاج يأكله من لم يكن معه سعة ولا زاد.

٦ - القيادة: هي إمارة الركب وتقودهم إلى القتال في الحرب ويتزعمهم في قيادته وفي الخروج للتجارة.

وتفرعت من هذه المناصب مناصب أخرى أهمها (الاشناق) وهي تنظر في

الديات والغرم. (القية) وهي تجهيزات الجيش في الحرب. (الاعنة) وهي تدبير شؤون الخيل عند قريش في الحرب (المشورة) وهو منصب مهمته إسداء النصيحة والمشورة. (السفارة) وهي القيام بالاتصال بين قريش وغيرهم من القبائل إذا وقعت حرب، أو تطلب الأمر مذاكرة وصلاحاً. (والايسار) وهي الأزمات التي كانوا يستقسمون بها للاستخارة مما يشبه سحب القرعة. (الحكومة) وهي التي تحكم بين الناس إذا اختلفوا أشبه بالقضاء. (الأموال المحجرة) وهي الأموال التي كانت تخص آلهتهم من النقد والحلي والسلاح، وهي تشبه بيت المال في الإسلام. وكانت ولايتها في بني سهم.

(العمارة) ويراد بها أن لا يتكلم أحد في المسجد الحرام يهجر ولا يرمث ولا يرفع صوته. ويمكن أن يوصف صاحبها المسؤول والمحافظ على حرمة البيت^(٧٦) وهذا النظام جعل مكة عامرة ذات أمجاد وشهرة انفردت بها بين جميع المدن العربية قبل الإسلام. وتعطى هذه المناصب وتوزع على وجهاء بطون قريش لاسترضائهم للمشاركة في فعاليات مكة وضمان وحدتها.

الصراع على الزعامة

لما كبر قصي وعلم قرب وفاته أجمع على أن يقسم أمور مكة بين بنيهِ. فأعطى عبدالدار السدانة ودار الندوة واللواء، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة^(٧٧). في حين يرى اليعقوبي^(٧٨) أن قصياً جعل السقاية والرئاسة لعبد مناف، والدار لعبدالدار، والرفادة لعبد العزى، وحافتي الوادي لعبد قصي.

ولما مات قصي حدث صراع بين عبد مناف وعبدالدار في الاستئثار بالمناصب، وانقسمت لذلك قريش فطائفة مع بني عبدالدار، وأخرى مع بني عبد مناف، فكان صاحب أمر بني عبد مناف عبد شمس ومعه من قريش بنو أسد بن عبد العزى، وبنو زهرة بن كلاب وبنو تميم بن مرة وبنو الحارث بن فهر. وكان صاحب أمر بني عبدالدار عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار، وكان بنو

مخزوم بن مرة، وبنو السهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، وبنو جمح بن عمر بن هصيص، وبنو عدي بن كعب مع بني عبدالدار. وخرجت عامر بن لؤي ومحارب ابن فهر فلم يكونوا مع واحد من الفريقين.

وعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً، وضعوها لاحتلافهم في المسجد عند الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتحالفوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم، فسموا المطيبين. وتعاقد بنو عبدالدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً فسموا الاحلاف. ويقال إنهم وضعوا أيديهم في دم جزور ذبحوها، ولحق أحدهم من ذلك الدم فسموا الأحلاف ولعقة الدم.

ثم تداعوا بعد ذلك للصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبدالدار كما كانت، وتحجز الناس عن الحرب^(٧٩).

زعامة عبد مناف

قام عبد مناف بن قصي على أمر أبيه بعده، وأمر قريش، واحتفظ بمكة رباعاً بعد الذي كان قصي قد قطعه لقومه.

ولما جلّ قدره وعظم شأنه وشرفه وكبر أمره، جاءته خزاعة وبنو الحارث ابن مناة بن كنانة يسألونه الحلف؛ ليعزوا به فعقد بينهم الحلف الذي يقال له حلف الأحابيش^(٨٠).

زعامة هاشم:

وهو أكبر أبناء عبد مناف واسمه عمرو العلاء. وإنما سمي هاشماً؛ لأنه أول من هشم الثريد لقومه وأطعمهم. ويمتاز بشخصية قوية ونفوذ واسع لما قدم من خدمات لقومه، وما ابتدع من مشاريع. وكان منها حفر الآبار. مثل بئر (سجله) وبئر بدر.

وهاشم أول من سنّ الرحلتين لقريش رحلة الشتاء للحبشة. ورحلة الصيف

إلى غزة وبلاد الشام... ذكرها القرآن الكريم ﴿لَا يَلَا ف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾.

وهو الذي أخذ الحلف من قيصر لقريش على أن تأتي قريش للشام وتعود آمنة^(٨١).

ومن أخلاقه وكرمه أنه خرج بتجارة عظيمة يريد الشام، فجعل يمر بأشراف العرب، فيحمل لهم التجارات مجاناً، ولا يلزمهم مؤنة حتى صار إلى غزة فتوفي فيها^(٨٢).

كما كان هاشم يخرج ما لا كثيراً، ويأمر بجياض من آدم فتجعل في موضع زمزم، ثم يسقي فيها من الآبار التي بمكة، فيشرب منها الحاج، وكان يطعمهم بمكة ومنى وعرفة وجُح، وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق، ويحمل لهم المياه حتى يتفرق الناس إلى بلادهم فسمي هاشماً^(٨٣).

وكان يخاطب الناس ويحثهم على إكرام ضيوف الله فيقول: «يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته فهم أضياف الله، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه، ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره. فأكرموا ضيفه وزواره فإنهم يأتون شعثاً غبراً من كل بلد على ضوامر كالقداح وقد أعياوا ونفلوا وقللوا وارملوا فأقروهم وأغنوهم»، فكانت قريش توافد على ذلك^(٨٤).

صراع أمية وهاشم

ويبدو أن ما أصاب هاشماً من علو المكانة وسمو المجد أثار حسد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وكان ذا مال فيتكلف أن يصنع صنيع هاشم فعجز منه، فشمت به ناس من قريش فغضب، ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة، فكره هاشم ذلك لسنه وقدره فلم ترعه قريش وأحفظوه، قال هاشم: إني أنا فرك على خمسين ناقة سود الحديق تنحرفها ببطن مكة، والجلاء عن مكة عشر سنين، فرضي أمية بن عبد شمس بذلك، وجعلها بينهما الكاهن الخزاعي وهو جد عمرو بن

الحق ومنزله بعسفان، وقد قضى هاشم بالغلبة، فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعمها من حضره، وخرج أمية إلى الشام عشر سنين، فكانت هذه أول عداوة بين هاشم وأمية^(٨٥).

وقد أجاد في شعره مطرود بن كعب الخزاعي عندما مرَّ برحل مجاور في بني هاشم وفيه بنات له وله امرأة في سنةٍ شديدة:

يا أيها الرجل المحول رحله	هلا نزلت بآل عبد مناف
هبلتك أمك لو حلت بدارهم	ضمنوك من جوع ومن إقرا
عمرو العلى هشم الثريد لقومه	ورجال مكة مستتون عجاف
نسبوا إليه الرحلتين كليهما	عند الشتاء ورحلة الاصيف
الآخذون العهد في آفاقها	والراحلون لرحلة الإيلاف ^(٨٦)

تولى الزعامة بعد هاشم بن عبد مناف أخوه المطلب بن عبد مناف، وكان أصغر من عبد شمس وهاشم وذا شرف في قومه وفضل وكان سيداً مطاعاً في قومه، وكانت قريش تسميه الفيض لسماحته، فولي بعد هاشم السقاية والرفادة، وهو الذي عقد الحلف لقريش مع النجاشي في متجرها، وخرج مرةً لتجارة إلى أرض اليمن، وتوفي بردمان من بلاد اليمن^(٨٧).

زعامة عبد المطلب

لما أراد هاشم الخروج إلى الشام حمل امرأته سلمى بنت عمرو إلى المدينة؛ لتكون عند أبيها وأهلها، وكان معه ابنه (شيبه). فلما توفي هاشم في سفره، أقامت بالمدينة مع ابنها. واتفق أن مرَّ رجل من تهامة بالمدينة فرأى غلاماً يتناضلون فإذا غلام منهم إذا أصاب يقول: أنا ابن سيد البطحاء، فقال له الرجل: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا شيبه بن هاشم بن عبد مناف، وانصرف الرجل حتى قدم مكة، فوجد المطلب جالساً في الحجر، فقصَّ الرجل على ما رأى من ابن أخيه، فقال

المطلب: أغفلته أما والله لا أرجع إلى أهلي حتى آتية. ثم خرج على راحلته حتى أتى بني عدي بن النجار، فلما نظر إلى ابن أخيه قال: هذا ابن هاشم فأردفه خلفه وعاد به إلى مكة، وقال البعض من غير علم أمه، وزعم الآخرون كان بإجازة من أمه.

فلما استقبل أهل مكة المطلب وهم يرحبون به ويحيونه ويقولون: من هذا الذي معك؟ فيجيب هذا عبدي ابتعته بيثرب. وبقيت قريش إذا رأتة تقول: هذا عبدالمطلب، فلجّ اسمه عبدالمطلب وترك شبيهة^(٨٨). هذه هي قصة اليتيم الثاني بعد قصي، وكلّ كانت له زعامة استثنائية، وننتظر اليتيم الثالث في مكة، الذي تزعم الإنسانية كلّها وإلى الأبد، ذلك رسول الله محمد ﷺ.

ولما حضر رحيل المطلب إلى اليمن قال لعبدالمطلب: أنت يا بن أخي أولى بموضع أبيك فقم بأمر مكة. فتوفي المطلب في سفره، فقام عبدالمطلب بأمر مكة. إعادة حفر زمزم

لما تكامل لعبدالمطلب مجده، وأقرت له قريش بالفضل، رأى وهو نائم في الحجر، آتياً أتاه فقال له: قم يا أبا البطحاء واحفر زمزم، وتكررت الرؤيا وفيها علامات تدل على مكان زمزم، فانطلق فأتى بمعول وابنه الحارث وحيداً، فاجتمعت إليه قريش فقالوا: ماذا تفعل؟ فقال: أمرني ربي بما يروي الحجيج الأعظم، فاعترضوا ولم يكثرث باعتراضهم. فلم يحفر إلا قليلاً حتى بدا الطي فكبّر، واجتمعت قريش وعلمت لما رأت الطي أنّه صادق. وحفر حتى وجد سيوفاً وسلاحاً وغزالين من ذهب، فضرب من الأسياف باباً للكعبة، وجعل أحد الغزالين صفائح ذهب في الباب، وجعل الأخرى في الكعبة^(٨٩).

يدعي الأخباريون أنّ عبدالمطلب لم يكن له من الولد أولاً إلا الحارث، فنذر لله إن رزقه الله عشرة أولاد أن يذبح ولداً قرباناً لله، ولما تكاملوا عشرة بولادة عبدالله وهو أجملهم وأكثرهم خصالاً كريمة، جمعهم وأقرع بينهم فكانت القرعة

على عبدالله خصمهم على أن يفي بنذره ويضحي بولده المذكور، ولما عرفت قريش منه الجحد في ذلك اجتمعت عليه؛ لتصرفه عن هذا الأمر، لثلاثين سنة بين العرب، واقتروا عليه أن يأخذ مائة من الإبل ويقرع بينها وبين عبدالله، ففعل ذلك ثلاث مرات فجاءت القرعة في كل مرة على الإبل فنحرها وتركها للناس، فتواثبوا عليها من كل جانب. ويذكر أن دية القتل لهذا أصبحت مئة من الإبل^(٩٠).

حادثة الفيل

ومن الأمور التي حدثت أثناء زعماء عبدالمطلب وأعطته دفعة معنوية، وجعلت الناس تكن له الاحترام وتهابه؛ قصة الفيل التي ذكرها القرآن الكريم في سورة الفيل ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصفٍ مأكول﴾.

وخلاصة القصة التي ذكرتها جميع التفاسير وكتب التاريخ المطولة والمختصرة هي: أن إبرهة الأشرم أحد قواد النجاشي الحبشي العظيم، لما فتح اليمن بنى كنيسة كبيرة أراد بها أن يصرف العرب عن حج مكة إليها. فتغوط بعض العرب فيها، وقيل هدموا بعض جدرانها بقصد الإهانة، فعزم إبرهة أن يسير إلى مكة فيهدمها. وإن مقدمات إبرهة أصابت نعماً لقريش، فأصابت فيها مائتي بعير لعبدالمطلب، فاستأذن عبدالمطلب الملك، فلما رآه أكرمه ونزل من سريره وجلس بجانبه، ثم قال له: ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن ترد إلي إبلي فاستصغره الملك، فأجابه عبدالمطلب: أنا أكلمك أيها الملك في مالي، ولهذا البيت رب يحميه فراع ذلك الملك. وإن عبدالمطلب أمر قريشاً أن يخرجوا إلى رؤوس الجبال، بعد أن قالوا: لا طاقة اليوم لنا بإبرهة وجيشه، بينما التجأ عبدالمطلب إلى الكعبة وهو يدعو:

لا هم أن المرء يمنع رحله فامنع جلالك .
لا يغلبوا بضيلهم ومحالمهم عدواً محالك .

فأظهر من الجلد والشجاعة والثقة بالله ما لم يظهره أحد غيره، فكان لهذا أثره البالغ عند عامة العرب، وتضاعفت ثقتهم به فأتسعت زعامته في خارج مكة، بعد أن رأوا مكر الله بأبرهة وجيشه وفيله، وهي لا تلوي على شيء، فارة مذعورة، والطير وراءها يسقط عليهم تلك الأحجار فأين ما وقعت قتلت صاحبها، وآخر من قتل أبرهة على مشارف اليمن فانشقت بطنه فإلى لعنة الله (٩١).

ومن مفاخر عبدالمطلب أنه من القلائل، الذين أقروا بالتوحيد وتركوا عبادة الأوثان، وبقي على دين إبراهيم عليه السلام (٩٢).

وكذلك حضنته لرسول الإنسانية حتى كان يقدمه على أولاده. وبالرغم من وجود أمه وانصرافها إليه، فلقد أصبح الشغل الوحيد لعبدالمطلب وأعز شيء لديه، وأوكل أمر إرضاعه إلى جارية لولده أبي لهب تدعى ثويبه، وضم إليه اليتيم وأمّه، ثم رأى أن يرسل حفيده إلى بادية سعد؛ ليرضع هناك وينشأ، ويتعلم في البادية النطق بالكلمات كما كانت عادة الأشراف في مكة. وكان عبدالمطلب قد تعود أن يستظل نهاراً بالكعبة على فراش مرتفع يحيط به ولده وأشراف مكة، فيأتي محمد ﷺ وهو غلام صغير فيشب على فراش جده، فيأخذه أعمامه ليصرفوه عنه فيقول لهم: دعوه إن لابني هذا شأنًا عظيمًا (٩٣).

وعند وفاته أوصى عبدالمطلب إلى ابنه الزبير بالحكومة وأمر الكعبة، وإلى أبي طالب برسول الله وسقاية زمزم وقال له: قد خلفت في أيديكم الشرف العظيم الذي تطأون به رقاب العرب.

وروي عن رسول الله أنه قال: إن الله يبعث جدي عبدالمطلب أمّة واحدة في هيئة الأنبياء وزي الملوك.

فكفل رسول الله بعد وفاة عبدالمطلب أبو طالب عمّه فكان خير كافل، وكان أبو طالب سيداً شريفاً مطاعاً مهيباً رغم إملاقه.

قال علي بن أبي طالب عليه السلام أبي ساد فقيراً وما ساد فقير قبله (٩٤).

الهوامش :

- (١) الكاشف ، مغنية : ٢٠٣ الهوامش .
- (٢) الميزان في تفسير القرآن ، محمد حسين الطباطبائي ١ : ٢٨٥ .
- (٣) الميزان ١ : ٢٨٨ .
- (٤) ابراهيم : ٣٧ .
- (٥) آل عمران : ٩٦ .
- (٦) نهج البلاغة ٢ : ١٤٦ ، الكافي ٤ : ١٩٩ .
- (٧) الفتاوى الواضحة : ٥٩٧ .
- (٨) علل الشرائع للشيخ الصدوق : ٣٩٦ .
- (٩) آل عمران : ٩٧ .
- (١٠) الميزان ٤ : ٤١٤ .
- (١١) مروج الذهب ، للمسعودي ٢ : ٢٢٨ .
- (١٢) الميزان ٤ : ٤١٤ .
- (١٣) مروج الذهب ١ : ٢٤٢ .
- (١٤) الميزان ٤ : ٤١٤ .
- (١٥) أخبار مكة للأزرقي : ٥١ .
- (١٦) أخبار مكة للأزرقي : ٥٥ ، معجم البلدان - الكعبة .
- (١٧) أخبار مكة : ٦٨ .
- (١٨) أخبار مكة : ٧٣ .
- (١٩) الاحزاب : ٧٢ .
- (٢٠) الاعراف : ١٧٢ .
- (٢١) الكامل في التاريخ ١ : ٣٩ - ٤٠ .
- (٢٢) المائة : ٢٧ .
- (٢٣) المائة : ٢٨ .
- (٢٤) المائة : ٣٠ .
- (٢٥) أخبار مكة ١ : الكامل في التاريخ ١ : ٦٢ .

- (٢٦) مروج الذهب ١: ٣٩، الكامل في التاريخ ١: ٦٧، اليعقوبي ١: ٣٤.
 (٢٧) نوح: ٢٣، ٢٤.
 (٢٨) نوح: ٦ - ٣٠.
 (٢٩) هود: ٣٦.
 (٣٠) نوح: ٢٦.
 (٣١) هود: ٣٧.
 (٣٢) هود: ٤٠.
 (٣٣) هود: ٤٠.
 (٣٤) هود: ٤٦.
 (٣٥) القمر: ١٢.
 (٣٦) هود: ٤٣.
 (٣٧) هود: ٤٤.
 (٣٨) هود: ٤٤.
 (٣٩) الكامل في التاريخ ١: ٧٥، المروج ١: ٤١، اليعقوبي ١: ٥١.
 (٤٠) أخبار مكة للأزرقي: ٥٢.
 (٤١) الصافات: ١٠٠.
 (٤٢) الصافات: ١٠١.
 (٤٣) إبراهيم: ٣٧.
 (٤٤) الكامل في التاريخ ١: ٩٠، مروج الذهب ٢: ٤٧، ٤٨.
 (٤٥) الكامل في التاريخ ١: ٩٠، مروج الذهب ٢: ٤٧، ٤٨.
 (٤٦) البقرة: ١٢٧.
 (٤٧) الحج: ٢٧.
 (٤٨) الصافات: ١٠٢.
 (٤٩) الصافات: ١٠٢.
 (٥٠) الصافات: ١٠٣.
 (٥١) الصافات: ١٠٤ - ١٠٧.
 (٥٢) موسوعة العتبات المقدسة، قسم مكة، جعفر الخليلي: ٣٤.
 (٥٣) اليعقوبي ١: ٢٧٠.
 (٥٤) دائرة المعارف الإسلامية ٦: ٣٥٠، تاريخ ابن خلدون ٢: ٣.
 (٥٥) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٧١.

- (٥٦) مروج الذهب ١: ٥١.
- (٥٧) تاريخ العقوبي ١: ٢٧١.
- (٥٨) مروج الذهب ٢: ٤٩، سيرة ابن هشام ١: ١١٧، بدل العماليق مطورا.
- (٥٩) سيرة ابن هشام ١: ١١٩.
- (٦٠) سيرة ابن هشام ١: ١١٩.
- (٦١) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٧١.
- (٦٢) مروج الذهب ٢: ٥٠.
- (٦٣) الكامل في التاريخ ١: ٤٧٣.
- (٦٤) مروج الذهب ٢: ٥٠.
- (٦٥) سيرة ابن هشام ١: ١١٨، مروج الذهب ١: ٥١.
- (٦٦) موسوعة القرن العشرين، فريد وجدي ٦: ٢٤٧، مروج الذهب ٢: ٢٧٤.
- (٦٧) انظر موسوعة العتبات المقدسة قسم مكة: ٢٨.
- (٦٨) المصدر السابق: ٦٨.
- (٦٩) المصدر السابق: ٦٨.
- (٧٠) مروج الذهب.
- (٧١) الميزان.
- (٧٢) بلوغ الأرب ٢: ٢٠٠، الأغاني ١٣: ١٠٩.
- (٧٣) الكامل في التاريخ ١: ٤٧٥.
- (٧٤) مروج الذهب ١: ٢٧٤، ابن هشام ١: ٧٨.
- (٧٥) الكامل في التاريخ ١: ٤٥٨ - ٤٦٠، موسوعة العتبات المقدسة: ٦٨، طبقات ابن سعد ١: ٤٦ - ٤٧، ابن هشام ١: ١٣٠.
- (٧٦) موسوعة العتبات المقدسة مكة: ٤٠ - ٤٤.
- (٧٧) أخبار مكة: ٦٦.
- (٧٨) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٩٢.
- (٧٩) سيرة ابن هشام ١: ١٣٨، ابن الأثير ٢: ١٤.
- (٨٠) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٩٢.
- (٨١) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٩٤، سيرة ابن هشام ١: ١٤٣.
- (٨٢) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٩٥.
- (٨٣) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٩٣، سيرة ابن هشام ١: ١٤٣.
- (٨٤) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٩٣.

- (٨٥) طبقات ابن سعد ١: ٥٦، ابن الأثير ٢: ١٠.
- (٨٦) تاريخ يعقوبي ١: ٢٩٥.
- (٨٧) سيرة ابن هشام ١: ١٤٤، طبقات ابن سعد ١: ٦٢، يعقوبي ١: ٢٩٦.
- (٨٨) تاريخ يعقوبي ١: ٢٢٧، ٢٧٦، سيرة ابن هشام ١: ١٤٤-١٤٥.
- (٨٩) تاريخ يعقوبي ١: ٢٢٨-٣٠٠، مروج الذهب ٢: ١٢٧، ابن هشام ١: ١٢٠-١٥٥.
- (٩٠) سيرة المصطفى هاشم معروف الحسني: ٤٠، يعقوبي ١: ٣٠٣، ابن هشام ١: ١٦٠، المروج ٢: ١٢٧.
- (٩١) الميزان ٢٠: ٤١٩، يعقوبي ٢: ٣٠٤، وجميع التفاسير وكتب التاريخ.
- (٩٢) مروج الذهب ٢: ٢٢٧، يعقوبي ٢: ٣٣١.
- (٩٣) سيرة المصطفى: ٤٦، ابن هشام ١: ١٧٧.
- (٩٤) يعقوبي ٢: ٣٣٥.

مهمات مشبوهة في الديار المقدسة (٤)

بيركهارت: المستشرق الرحالة... في خدمة الدوائر البريطانية!

حسن السعيد

في الثامن عشر من تموز (يوليو) ١٨١٤م. نزل في جدة أحد أخطر الرحالة الغربيين في القرن التاسع عشر. وسار منها إلى الطائف لمقابلة الخديوي محمد علي باشا، ثم قصد مكة المكرمة؛ لإداء فريضة الحج على ما يدعي متخفياً تحت اسم مستعار هو «الشيخ إبراهيم».

إنه الرحالة السويسري الأصل البريطاني الجنسية «يوهان لودنج بيركهارت» أهم الرحالة الأوروبيين، وأغزرهم علماً وثقافة وأبعدهم صيتاً وشهرة.

فمن هو بيركهارت هذا؟ وما هي طبيعة مهمته؟ وماذا أنجز منها؟

بطاقته الشخصية

يسميه الإنجليز «جون لويس»، مستشرق سويسري رحالة. ولد في لوزان عام ١٧٨٤م، وتخرج من ليبزيغ وغوتنجن في الكيمياء، وزار إنجلترا وتعلم في كمبردج الطب وعلم الفلك واللغة العربية (١٨٠٦م - ١٨٠٩م)، وتجنس بالجنسية

البريطانية، ثم قصد حلب حيث أُنقن اللغة العربية، وقرأ القرآن وتفقه في الدين الإسلامي، وتظاهر باعتناقه عام ١٨٠٩م، وتسمى بإبراهيم بن عبد الله.

زار تدمر ودمشق ومصر وبلاد النوبة وشالي السودان، ثم مضى إلى الحجاز، فأدّى مناسك الحج، ليعود إلى القاهرة عام ١٨١٥م، وقد أخذ منه الاعياء كل مأخذ. وفي السنة التي بعدها زار سيناء وعاد إلى القاهرة في حزيران (يونيو) ١٨١٦؛ ليبدأ منها رحلة جديدة للاستكشاف، ولكنه مرض وتوفي في القاهرة عام ١٨١٧م. تلك هي - باختصار شديد - أبرز محطات حياة بيركهارت، وبالإمكان القول: إنّ بيركهارت يُعدّ نقلةً نوعيّة، في تأريخ الرحّالة الأوروبيين؛ وذلك لتضافر ثلاث حلقات تمازجت فتكاملت.. فكان بيركهارت.

فن طبيعة المناخ الدولي الذي شهدته أوروبا عقب حملة نابليون

على مصر، وماأفرزته من تداعيات، على صعيد التنافس بين الدول الكبرى، لا سيما بين فرنسا وبريطانيا. إلى طبيعة الإعداد الخاص الذي تلقّاه بيركهارت في أروقة لندن وجامعة كمبردج بالذات، تمهيداً لتكليفه بمهمة خاصة، ليست بمنأى عن الاستخدام الاستعماري للحقول الاستشراقية.

ثم إنّ طبيعة الاستعدادات الخاصة لدى بيركهارت؛ من نزوع إلى المغامرة، وشغف بالعلم، وقدرة على تحمّل الصعاب، ومهارة مدهشة على التخفيّ بعباءة الإسلام، ومملكة عالية لقراءة الحاضر والمستقبل.. كل ذلك أضفى على طبيعة مهمته أهمية خاصة؛ نظراً لأنها دشّنت مرحلة جديدة في تأريخ الاستشراق.

ولابدّ من إلقاء بعض الأضواء الكاشفة، ولو بشكل سريع:

حملة نابليون: تداعيات التنافس

كان احتلال نابليون مصر عند مطلع القرن التاسع عشر



(١٧٩٨ - ١٨٠١) منطلقاً لمرحلة جديدة من العلاقات الفرنسية مع الامبراطورية العثمانية، التي تميّزت بمزيد من التركيز والحزم. ومنذ ذلك الحين أدركت فرنسا أنّ دورها لم يعد يقتصر على حماية الكاثوليك، بل عليها أن تناضل في سبيل الحفاظ على هيبتها ونفوذها، في وجه المنافسة العنيفة الجديدة، في الامبراطورية العثمانية، من قبل دول عظمى كروسيا وبريطانيا وألمانيا.

وقد كتب المؤرخ تويني يقول: «... كانت الضربة الحاسمة غزوة نابليون لمصر (١٧٩٨ - ١٨٠١)، تلك الغزوة التي تركت طابعاً لا يُمحى على الخيال الشرقي، ولم يكن لهزيمة فرنسا، في المرحلة الأخيرة من مراحل حروب نابليون أي أثر سيئ في محو هذا الطابع. وكانت بريطانيا العظمى التي كانت قد أتمت ثورتها الصناعية، في أثناء حرب ١٧٩٢ - ١٨١٤، قد انتزعت من فرنسا حصّة الأسد في التجارة مع بلدان المشرق. غير أنّه

لجميع الشعوب الشرقية غربي برزخ السويس، وغربي نهر الفرات ظلت اللغة الفرنسية والآداب الفرنسية، والنظريات السياسية الفرنسية، منبع الحضارة الغربية^(١).

يقول البروفيسور ادوارد سعيد: «إذا اتخذنا حملة نابليون.. تجربة أولى مقوية للاستشراق الحديث، فإننا نستطيع أن نعتبر إبطاها المدشّنين - في الدراسات الإسلامية، ساسي ورينان ولين^(٢) - بناءً للحقل، خالقين لتراث، وأسلافاً للأخوة الاستشراقية. وما فعله ساسي ورينان ولين هو أنّهم منحوا الاستشراق أسساً علمية وعقلانية. وقد نتج عن ذلك لا كتاباتهم النموذجية وحسب بل خلق مفردات وأفكار يمكن أن تستعمل بصورة لا شخصية، من قبل أي إنسان يرغب في أن يصبح مستشرقاً، وكان تدشينهم للاستشراق انجازاً كبيراً؛ إذ إنه جعل وجود مصطلحات علمية أمراً ممكناً، ونفى التعقيد الابهامي وأنشأ شكلاً

بوصفه نمطاً من الإسقاط الغربي على الشرق واردة السيطرة عليه؛ فلن يواجهنا إلا عدد قليل من المفاجآت، وذلك أنه إذا كان صحيحاً أن مؤرخين مثل ميشليه، ورانكه، وتوكفيل، وبيركهارت، يحكون سردهم «كقصة من نمط خاص» فإن الشيء نفسه يصدق على المستشرقين الذين حبكوا التأريخ الشرقي، والشخصية الشرقية، والمصير الشرقي لمئات من السنين.

لقد أصبح المستشرقون، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، جماعة أكثر جدية؛ لأن آماذ الجغرافيا التخيلية والواقعية كانت، بهذا الوقت، قد تقلصت، إذ إن العلاقة الشرقية - الأوروبية كانت قد تحدت بتوسع أوروبي لا يُصدُّ بحثاً عن الأسواق، والمصادر الطبيعية، والمستعمرات. وأخيراً؛ لأن الاستشراق كان قد انجز تقمصه وتحوله من إنشاء بحثي إلى مؤسسة امبريالية^(٤).

وهكذا غدا التراث الاستشراقي

خاصاً من الاضاءة للشرق، وأسس شخصية المستشرق بوصفه السلطة المرجعية المركزية للشرق؛ ومنح الشرعية لنمط خاص من العمل الاستشراقي الذي يمتلك انسجاماً وتماسكاً محددتين؛ وأدخل إلى مجال الاستعمال الثقافي نوعاً من العملة النقدية الاستطردادية أصبح الشرق، بسبب حضورها، من يتحدث، منذ الآن، باسمه؛ وفوق كل شيء، فإن عمل المدشنيين قد اقتضى حقلاً دراسياً وعائلة من الأفكار، كان بمقدورها هي بدورها أن تشكل مجتمعاً من الباحثين كانت الوشائج بينهم، وكان تراثهم، وطموحاتهم، في آن واحد، داخلية تنبع من الحقل الدراسي، وخارجية بما يكفي لضمان التمتع بمزايا خاصة. وبمقدار ما ازداد فرض أوروبا لنفسها على الشرق وعبورها لحدوده، خلال القرن التاسع عشر، بمقدار ما ازداد اكتساب الاستشراق للثقة العامة به^(٣).

وحين نبدأ بمعاينة الاستشراق

بمثابة دليل للاستعمار في شعاب الشرق وأوديته، من أجل فرض السيطرة على الشرق وإخضاع شعوبه واذلالها «فالمعرفة بالأجناس المحكومة أو الشرقيين التي تجعل حكمهم سهلاً ومجدياً. فالمعرفة تمنح القوة. ومزيد من القوة يتطلب مزيداً من المعرفة.. فهناك باستمرار حركة جدلية بين المعلومات والسيطرة المتنامية^(٥)».

ابحثوا عن التبشير.. و عن كمبردج
وفيما يخص بحثنا، وتحديداً الموقف البريطاني، الجهة الممولة والمكلفة لبركهارت في مهمته، فمرة أخرى؛ كانت القوتان الاستعماريّتان الرئيسيتان بريطانيا وفرنسا، رغم أنّ روسيا وألمانيا لعبتا بعض الدور كذلك.

وكان الاستعمار في البدء يعني تمييز بل، بالفعل، خلق المصالح وتحديدّها؛ المصالح التي قد تكون تجارية، أو دينية، أو ثقافية، أو متعلقة بالاتصالات، فقد شعرت

بريطانيا، مثلاً، فيما يتعلق بالإسلام والبلدان الإسلامية أنها، بوصفها قوة مسيحية، ذات مصالح مشروعة ينبغي المحافظة عليها. وقد نما جهاز معقد لرعاية هذه المصالح. فبعد المنظمات المبكرة مثل «جمعية نشر المعرفة المسيحية» (١٦٩٨)، و «جمعية نشر الإنجيل في المناطق الأجنبية» (١٧٠١)، تشكّلت جمعيات دعمتها مثل «جمعية التبشير الإنجيلية» (١٧٩٢)، «جمعية التبشير الكنيسية» (١٧٩٩)، «جمعية الكتاب المقدس البريطانية والأجنبية» (١٨٠٤) و «الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود» (١٨٠٨). وقد شاركت هذه الارساليات بصورة صريحة في التوسّع الأوروبي.

فإذا أضفت إليها الجمعيات التجارية، والجمعيات المتفقة، ومؤسسات الاستكشاف الجغرافية، ومؤسسات الترجمة، وغرس المدارس، والبعثات، والمكاتب القنصلية، والمصانع، والجاليات

الميلادي، وجامعة كمبردج التي تأسست سنة ١٢٥٧م.

وفيما يتعلق الأمر بالجامعة الأخيرة، لأن بيركهارت، أحد أبرز خريجيها، فلقد كانت أول ما أسست كرسياً للدراسات العربية في بريطانيا، وكان ذلك سنة ١٦٣٢، بفعل «السير توماس آدامز» الذي كان من كبار تجّار الجوخ في بريطانيا.

وطبيعي أن لا يكون الهدف «العلمي الصافي» هدفاً أساسياً وراء هذا التأسيس، بل يتجاوزه إلى الناحية التجارية ثم السياسية والعسكرية أيضاً. وهذا ماعبر عنه بكل وضوح، دون أي لبس أو غموض، أول استاذ قام بترأس كرسي للدراسات العربية في جامعة كمبردج، وهو «ابراهيم ويلوك» في رسالة موجهة إلى مؤسسها «آدامز» بقوله: «إنّها لا تهدف فقط تنشيط الآداب ونشر المعرفة، ولكن أيضاً لخدمة الملك والدولة في مجال التجارة مع البلدان الشرقية، وتوسيع آفاق

السكانية الأوروبية الواسعة، أحياناً، في الشرق، فإنّ مفهوم «المصلحة» يكتسب قدراً كبيراً من المعنى. ولقد أصبحت هذه المصالح تُحمى، فيما بعد، بحماسة شديدة ونفقات عالية^(٦).

ومن هنا، لسنا بحاجة إلى التأكيد على أنّ الطابع السياسي العسكري قد غلب على مجمل العلاقات البريطانية مع الشرق، والذي تُوجّ بالغزو العسكري الاستعماري، بعد أن مثّل مستشرقو بريطانيا طليعة هذا الغزو وجهاز الرصد والاستطلاع لنجاحه. وكان معظم هؤلاء المستشرقين - إن لم نقل جميعهم - قد تخرجوا من المعاهد البريطانية ومؤسساتها، للقيام بهذه المهمة الدبلوماسية تحت ستار العلم والاكتشاف^(٧).

ويأتي في مقدمة المعاهد البريطانية، التي خدمت المصالح البريطانية في الشرق صرحان أكاديميان هما: جامعة أكسفورد التي يعود تأسيسها إلى القرن الثاني عشر



الكنيسة ونشر الديانة المسيحية بين القابعين في الظلام».

وبدأت بريطانيا تتطور في هذا المضمار، كما بدأت تطوّر من أساليبها أيضاً، خصوصاً بعد أن برز عدد من المستشرقين فيها على جانب كبير من الأهمية... ولعلّ أهم حادثة جرت في القرن الثامن عشر، بالنسبة إلى الاستشراق، هي تأسيس «الجمعية الآسيوية في البنغال» سنة ١٧٨٤، على يد السير وليم جونز.

في هذا الإطار، أنّ عدداً من مستشركي هذا العصر كانوا ممّن عملوا في السلك الدبلوماسي، أو ممّن انخرطوا في سلك الجندية، وعملوا في خدمة التاج البريطاني كضباط، أو كانوا أبناء ضباط، أو موظفين في وزارة المستعمرات البريطانية.

وفي أوائل القرن التاسع عشر شرعت جامعة كمبردج، تحت قيادة «ادوارد غرنول براون»، في تنظيم دروس للموظفين الملحقين في السلك القنصلي في المشرق، والذين سيتولون

أعمال الترجمة، وهكذا كان ينظر إلى تعلّم لغات الشعوب الإسلامية في كمبردج من ناحية تطبيقية، وليس فقط من الناحية الأكاديمية، كما كانت الحال في سائر الجامعات البريطانية^(٨).

والسؤال المطروح هو: أين موقع بيركهارت من كل هذا؟

في خدمة الامبراطورية العظمى
ثمّة تجربة مريرة عاشتها عائلة بيركهارت، تركت آثارها العميقة على توجهاته، تلك هي أنّ عائلته أُجبرت على الفرار من موطنها سويسرا، بعد الاحتلال الفرنسي، واستقرت في ألمانيا، حيث أكمل بيركهارت دراساته، قبل انتقاله إلى بريطانيا.

ولكن... لماذا انتقل بيركهارت إلى بريطانيا؟

وهل هناك علاقة بين هذا الانتقال وحالة العداء الذي يضره لفرنسا التي احتلت دياره، وسببت مأساة التشريد لعائلته؟! وهل لعب والده، الذي كان

الارستقراطيين نصف الامپرياليين تتوق لحل سر غموض افريقيا الغربية ومجرى نهر النيجر، وذلك لنشر النفوذ البريطاني على ضفاف ذلك النهر.

كان أحد الطرق إلى ذلك النهر لا يقع إلى الشرق من سواحل غامبيا، وهو الطريق الذي سلكه هوثورن وبارك من قبل، بل يقع في جنوب غربي مصر، عبر واحة فزان ومنها إلى النهر. وهناك كانوا يأملون أن يجدوا الطريق في مكان ما فيما وراء الصحراء، حيث توقع أولئك الذين يسلكون هذا الطريق أن يجدوا تمبكتو على أحد جانبيها، ومصب النهر المجهول على الجانب الآخر^(١٠).

وعندما قدّم بيركهارت فكرته ببلوغ تمبكتو بمرافقة قوافل الحجاج العائدة من مكة المكرمة تبنتها الجمعية، ووظفته بقيمة جنية استرليني في اليوم^(١١). وما ان قبلت الجمعية الجغرافية بيركهارت كممثل لها، في هذه المغامرة الخطرة، حتى قرر أن يعدّ نفسه اعداداً كافياً لتلك الحياة

ضابطاً في الجيش، دوراً في دفع ابنه إلى التوجه لخدمة التاج البريطاني، بغضاً بعدوّه التقليدي فرنسا؟

ليس بين أيدينا أدلة وثائقية، بيد أننا نميل كثيراً إلى أن الدافع الأكبر لانتقال بيركهارت، ومن ثمّ تجنّسه بالجنسية البريطانية، لم يكن علمياً بحتاً، خاصة وأن لندن كانت مزدهرة، في تلك الفترة، بنشاط محمود لتدجين المشرق وتحويله إلى «حقل للعلم الأوروبي» كما يقول ادوارد سعيد^(٩)، وذلك في ظل التنافس المتزايد بين بريطانيا وفرنسا.

في لندن تعرّف بيركهارت إلى سير جوزيف بانكس عضو الجمعية الأفريقية، التي كانت مؤلّت رحلات استكشافية سابقة إلى منطقة النيجر، انتهت جميعها بوفاة المستكشفين. أمّا الباحث البريطاني «بيتر برينث» فيؤكد أن بيركهارت قد ذهب إلى لندن؛ لوضع نفسه تحت تصرّف الجمعية الأفريقية.. وكانت هناك مجموعة من العلماء والتجار



المليئة بالمصاعب والاختبارات والمحن التي تنتظره^(١٢). فالتحق بجامعة كمبردج عام ١٨٠٨؛ لدراسة اللغة العربية والطب وعلم الفلك وعلوم أخرى. وراح يعود نفسه على الحياة الصعبة^(١٣)، حتى وهو في انكلتره، نجد أنه قيّد حياته بقيود جعلته يهجر حياة الترف الغربية، فينام على الأرض مثلاً، ويمشي ساعات طويلة، ويأكل الخضر فقط^(١٤)، ليخطو بعد ذلك أولى خطواته تجاه شواطئ آسيا، وهو يحمل في جوارحه المعتقدات العنصرية للغرب، من قبيل نظرية التفوق القائمة على قانون المركز والأطراف ونهب الثاني لحساب الأول، ومن قبيل أن الغرب هو موطن الحضارة؛ لذا فبريطانيا (رائدة الغرب) مدعوة لحمل رسالة (الرجل الأبيض) ولقيادة (البرابرة) و (المتوحشين) نحو الحضارة!!

وليس من شك أن كلاً من هذه الاستعدادات والتصورات تنطوي على مهمة سرية ليست عادية، إذ

ما علاقة اللغة العربية بعلم الفلك؟ وماذا يربطهما بالطب؛ ليتعلمها بيركهارت في وقت واحد، وفي كمبردج صاحبة التأريخ العريق في المبادرات الاستعمارية، ومحاولات تشويه الإسلام؟!

إنّ بعضاً من خفايا المشهد الخلفي لمهمة بيركهارت يتضح حينما نعلم أن بريطانيا كانت وقتئذٍ، مدفوعةً بحماية طرقها إلى الهند من جهة، ولمواجهة المضايقة والنفوذ المتزايد من فرنسا، أو محاولة إيقافه من جهة أخرى إذ إنّ فرنسا، بعد هزيمتها في الهند، عملت على مضايقة الجزء الشرقي من الامبراطورية البريطانية باعتراض طرقها عن طريق مصر المسلمة، لكلّ هذا أخذت بريطانيا تظهر مزيداً من الاهتمام بالشرق، ولا سيما مصر^(١٥).

وفي الوقت الذي كانت فيه شبه الجزيرة العربية تشهد احتدام المواجهة بين محمد علي باشا والوهابيين، الذين مدّوا سيطرتهم من نجد إلى الحجاز..

بالمجدية ذاتها. واتخذ لنفسه اسم إبراهيم بن عبد الله.

خلال إقامته في سوريا كان يتجول مع البدو، خصوصاً قبيلة «عنيزة». ووصل إلى تدمر والفرات، ونشرت نتائج زيارته وأبحاثه تباعاً، وهي تشكل اليوم أول دراسة اثنوغرافية لقبيلة في الصحراء. وعن ذلك الوقت كتب بيركهارت: «أمضيت بين البدو أسعد الأيام في حياتي. وفي الوقت ذاته أمضيت ساعات صعبة ومملة. وكنت أنتظر - في بعض الأيام - بفارغ الصبر غياب الشمس؛ لأنني كنت أعلم أن حفلات الغناء والرقص في المساء ستخرجني من لعبة الداما مع رفاقي»^(١٨).

وخلال إقامته في سوريا - وجزيرة العرب لاحقاً - دوّن ملاحظات طريفة عن أعراف وعادات البدو الذين أحبهم وأعجب بهم. وكانت ملاحظاته هي أول مسعى «موضوعي» لدراسة

وصل الشام أحد الرحالة الذي امتاز بالذكاء والنشاط وتعدّد المواهب، فأصبح مثلاً ونموذجاً لأولئك الذين حاولوا اختراق شبه الجزيرة العربية، وإثبات مصداقية الاسطورة العربية^(١٦).

ولم يكن هذا الرحالة سوى بيركهارت، الذي بدأ مهمته في مدينة حلب السورية... وليشرع في مغامرته الكبرى.

الشام: خطوة في مسيرة الألف ميل
أمضى بيركهارت سنتين في هذه المدينة، وهناك أتم ثقافته ليس في اللغة العربية فحسب، بل في آداب اللغة العربية ولا سيما القرآن الكريم وتفاسيره، لدرجة أنه استطاع ان يستحوذ على احترام أولئك الذين كانوا يحرصون على النقاش في المعاني الداخلية لأي نص من النصوص، فقد ظهرت مهارته واتقانه في هذا المضمار^(١٧)، كما أظهر براعته عندما أكمل ترجمته لكتاب «روبنسون كروز» ودرس الدين الإسلامي



المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبدو^(١٩).

في شباط (فبراير) ١٨١٢، شعر بيركهاتر بأنه مستعد لمتابعة رحلته نحو النيجر، وتحرك ببطء من سوريا إلى القاهرة، مكتشفاً في طريقه آثار البتراء في الأردن^(٢٠)، وبتوغله إلى الجبال المتاخمة للبحر الميت اعتبر أول أوروبي شق طريقه، خلال تلك الصخور الناتئة، المحيطة بعاصمة الأنباط القديمة التي قهرت «سيتزن»، فلم يستطع الوصول إليها. وقد استطاع أن يرسل وصفاً لمدينة البتراء الأسطورية، مما أدهش العالم حينذاك^(٢١).

وبينما كان يستعد للرحيل إلى القاهرة، كانت «الليدي هستر ستانهوب» قافلة من هناك، في طريقها إلى مقر إقامتها في لبنان، حيث كانت هي الأخرى تقوم بمهمة سرية، من مفرداتها رصد عيون نابليون من الفرنسيين في الشام، والعمل على استمالتهم، وتجنيدهم كجواسيس

لبريطانيا... وأثناء عودة ستانهوب، وفي مدينة الناصرة تحديداً، فوجئت يوماً بدخول شاب عربي السمات، عربي الملبس، قدم نفسه لها على أنه «الشيخ إبراهيم» وأخذ يحادثها بالانجليزية سليمة، ولم يكن هذا الشاب سوى الرحالة الكبير بيركهاتر... مكتشف البتراء، وآثار أبي سمبل^(٢٢).

وعلى ما يبدو أن بيركهاتر كاشفها بجهته أو بعض خباياها، وخاصة فيما يتعلق بجهوده المضنية مع بدو الصحراء، ومحققه من إنجاز معهم، بحاجة إلى تواصل وتوظيف. وقد قررت ستانهوب، بعد فترة قصيرة من وصولها لبنان، السفر إلى دمشق، ومنها بدأت اتصالاتها بالبدو، وعقدت معهم صداقات، كما قامت برحلة إلى تدمر.. واتصلت بشيوخ القبائل في بادية الشام، ولم يخل عليهم بالمال، فكانت بعملها هذا أول امرأة أوروبية وطئت قدماها أرض مدينة زنوبيا التاريخية^(٢٣). وليس من المستبعد أبداً أن

وحال وصوله القاهرة قابل محمد علي باشا، وهو يأمل أن يجد طريقاً أو قافلة تنقله إلى المناطق الغربية، في المرحلة الأولى لرحلته إلى نهر النيجر، ولكن الصحراء الكبرى تمتد أمامه وتقلل من فرص نجاحه^(٢٥).

ولم يمض وقت قصير، حتى علم بيركهارت أن القافلة المتجهة إلى أفريقيا الغربية لن تتحرك قبل حزيران (يونيو) ١٨١٣. وهذا يعني أنه سيمكث حوالى تسعة أشهر في القاهرة. لم يرق له الأمر، وقرّر أن ينزل إلى النيل، على أمل إيجاد طريق تتجه غرباً من بلاد النوبة، وفكر أنّه حتى لو لم ينجح في ذلك، فيكون استكشف مناطق جديدة، إذ لم يكن أي أوروبي دخل الأراضي الواقعة جنوب أسوان بعد.

وتمكن بيركهارت من اجتياز ٢٠٠ ميل إلى الجنوب، مكتشفاً في طريقه «معبد أبي سمبل». وهناك واجه صعوبات مع الحكام المحليين. وعندما اتضح له أن لا مجال لمتابعة

يكون بيركهارت قد لعب دور العرّاب، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، في مهمّة ستانهورب الصحراوية هذه. كما أن ستانهورب بدورها قد زوّدت بيركهارت - على الأرجح - برسالة خاصة إلى محمد علي باشا، الذي تحتفظ بعلاقات وطيدة معه، حتى إنه لم يرد لها طلباً، على حدّ تعبيرها^(٢٤)، لا سيما وأنها أقامت في ضيافته شهراً كاملاً من تلك السنة، آيار (مايو)، وهاهي قادمة توّأ من القاهرة.

وبذا تكون ستانهورب قد اختزلت كثيراً من الجهد على بيركهارت، تماماً كما ذلّل لها، هو الآخر، كثيراً من المتاعب، في تحركها على بادية الشام.

تطواف في وادي النيل

شقّ بيركهارت طريقه صوب القاهرة، بعد أسابيع قليلة من لقائه بستانهورب. وصل إلى هناك في أيلول (سبتمبر) ١٨١٢، وحلم الوصول إلى تمبكتو يحدوه، ويشغل كلّ اهتمامه،

سيره جنوباً أو غرباً، قطع النيل صعوداً وعاد إلى نقطة انطلاقه. وفي اسيوط، بعدما اقتنع بأنّ ذهابه إلى افريقيا الغربية لن يحصل قبل سنة، اتخذ قرار التوجّه إلى الحجاز، ولعلّ ماشجعه على تغيير وجهته وجود محمد علي باشا هناك، إذ كان يتابع حملته على الوهابيين، ولعلّها الأوامر قد صدرت إليه من مرؤوسيه بالتوجّه إلى مكة.

وتبعاً لطريقته المنظمة، خلف بيركهارت وصفاً دقيقاً لأمتعته: كان يرتدي قميصاً وسروالاً وعباءة عربية، وعلى رأسه قبعة لفّ حولها قماش، وحمل معه دفترين وقلماً وسكينة وبوصلة و ٥٠ دولاراً أسبانياً وقلادتين من الذهب. وذكر أيضاً أنّ البضائع والمأكولات التي حملها مع رفاقه لعبور الصحراء النوبية، وهي رحلة استغرقت أربعة أشهر، احتوت على ٤٠ رطلاً من الطحين، و ٢٠ من البسكويت، و ١٥ من التمر، و ١٠ من العدس، و ١٠ من

الزبدة، و ٥ من الملح و ٣ من الأرز، و ٢ من البن، و ٤ من التبغ... كما حمل معه رسائل من محمد علي، باشا مصر لحمايته.

في ٧ تموز (يوليو) ١٨١٤، قطع بيركهارت برفقة العبد الذي كان اشتراه بـ ١٦ دولاراً البحر الأحمر، ووصل إلى جدة بعد ١١ يوماً. وهناك مرض بيركهارت، ثمّ تعرّض لضائقة مالية، إذ أنّ التاجر الذي قدّم له الرحالة رسالة الاعتماد رفضها، ولم يسلفه الأموال. فأجبر على أن يبيع عبده بـ ٤٨ دولاراً؛ أي ثلاثة أضعاف سعر الكلفة. وفي الوقت ذاته كتب إلى محمد علي باشا مستنجداً به، فاستجاب فوراً لطلبه، وأمر أن يُعطى الأموال والثياب^(٢٦).

في جدة.. والطائف

مكث بيركهارت في جدة شهراً، وكتب عنها نحو «١٠٠» صفحة واصفاً الحياة فيها والتجارة والعادات^(٢٧)، وفي هذا الإطار، وصف تلك المدينة وسكانها، كما وصفها

نبوءاته، حول قرب تراجع أهمية المركز التجاري لجدة، كما تنبأ بأنه عندما تنتهي السيادة العثمانية على الحجاز، والتي دعمها محمد علي بنشاطه، فإن العرب عندها سوف ينتقمون لأنفسهم ولخضوعهم للأتراك، مع أن ذلك الخضوع كان اسمياً فقط، ولسوف ينتهي الحكم التركي، ولكن سوف يصاحب انتهاءه إراقة الدماء (٢٨).

وراح بيركهارت يصف مدينة جدة بالتفصيل، بشكل لم يحاول أن يفعله أي رحالة من قبل، ماعدا نيبور، إذ ربما لم يكن أي واحد من هؤلاء الرحالة يشعر براحة تجعله يلتفت إلى مثل هذه التفاصيل. أو ربما لم يكونوا متمكنين من ناحية اللغة بشكل كافٍ. ومن بيركهارت علمنا أن جدة تحتوي على عدد الحوانيت التي أحصاها بشكل دقيق، وذكر أصناف المبيعات، وكذلك البضائع المبيعة، ومناطق استيرادها (٢٩). ومن جدة سافر بيركهارت إلى

الآخرون من الرحالة: البنايات الحجرية العالية، الأسوار ووسائل الدفاع التي بدأت بالتهديم، إلى الأراضي القفراء التي كانت تضم وتأوي السكان متعددي الأجناس، الذين أتوا من جميع أجزاء شبه الجزيرة العربية، ومن سوريا وتركيا ومن الهند، ومن جزر الهند الشرقية. وإضافة إلى ذلك، فقد استطاع بيركهارت أن ينفذ إلى تفهم اقتصاد تلك المدينة، وأسباب انحطاطها، والتهديدات التي تستهدف مستقبلها، وإلى حد ما توصل إلى معرفة أسباب فن الدراسة الديموغرافية لتلك البلاد (أي دراسة المواليد والوفيات والصحة والزواج).

وهو يخبرنا عن الأهمية العظيمة، التي وصلت إليها تلك المدينة الصغيرة على الصعيد التجاري، في أوائل القرن التاسع عشر، بسبب موقعها على مفترق الطرق، التي يسلكها الحجاج والتجار من جميع أنحاء العالم.. لم ينس أن يطلق



الطائف، وهو يصف مارآه للآخرين أيضاً، وهو ذلك السهل الوعر الكثير الحجارة والغبار والتلال، التي تغطيها صخور الغرانيت والكوارتز اللامع الذي يبهج الأنظار، خصوصاً عند رؤية أشجار النخيل المنتشرة هنا وهناك. ثم يصف الوديان الخضراء، فيما وراء جبل «القرى» على سفوح تلك السلسلة الجبلية... ورغم اعتدال الطقس، لكن بيركهارت كان يسافر، في معظم الأحيان، ليلاً خوفاً على نفسه من حرارة الشمس^(٣٠).

حال وصوله الطائف التقى محمد علي باشا، الذي كان يدير الحملة التي جردتها الدولة العثمانية بقيادته، لاسترداد البلاد المقدسة من الوهابيين. وكان محمد علي باشا قد وصل الحجاز في ربيع ١٨١٣، وأقام في الطائف للاشراف على مهمته، والقضاء على الوهابيين في عقر دارهم كذلك^(٣١).

سكن بيركهارت عند طبيب محمد علي الأرمني، وأمضى الليلة

الأولى مع الباشا، يتحدثان عن «أمور الدنيا»، وأوضح له محمد علي أنه يخشى احتلال البريطانيين لمصر، بعد انتصارهم على نابليون، منتهزين قوتهم ومحولين الموقف الدولي لمصلحتهم. وكتب بيركهارت عن محمد علي قائلاً: «حاكم عظيم لا يعرف سوى سيفه وكيس نقوده، يسحب الأول لتعبئة الثاني»^(٣٢).

وفي الطائف اجتمع بأعيان البلد، وكان محمد علي باشا قد جعل الطائف مركز القيادة لجيوشه في حملته على بلاد العرب. وقد نال بيركهارت إعجاب قاضي مكة بعلمه وثقافته^(٣٣) حتى انه أعلن لاحقاً أن بيركهارت ليس مسلماً فقط بل هو عالم أيضاً^(٣٤) كما أنه نال إعجاب محمد علي باشا، بعد أن روى له تلك القصص عن رحلاته. ولكن يظهر أن محمد علي باشا قد راودته الشكوك بالنسبة لهذا (المسلم) الأجنبي، ومع ذلك فقد كان يصغي بشوق لأي معلومات يُدلي بها بيركهارت. وكان محمد علي يلقى عليه

بعض الأسئلة مثلاً: «كم يلزم من الجنود لإخضاع بلاد العرب حتى سهل شنغار؟».. وعندما وصلته نسخة من معاهدة باريس طفق الباشا في درسها مع بيركهارت، وكان الحاكم المصري يأمل أن يتجدد القتال في أوروبا، حتى تشغل الدول العظمى بنفسها ولا تتدخل بشؤونه، ولكي يزيد في سعر الذرة التي يصدّرها إلى الخارج^(٣٥).

ويُستبان ممّا دوّنه بيركهارت أنّ محمد علي باشا كان يشك في إسلامه، ومع هذا فقد سمح له بالتوجه إلى الحج في مكّة^(٣٦) وهكذا سنحت له فرصة ثمينة، لإنجاز مهمته الاختراقية.

الحجّ إلى مكّة

بعد مسيرة يومين حافلين بأحوال جويّة غير مناسبة من رياح وأمطار ورعد وبرق، وصل بيركهارت إلى مكّة^(٣٧)، وكان المستر بيركهارت قد أسلم - على ما يزعم - عند قدومه إلى مصر، في عهد الخديوي محمد علي باشا، وسمّى نفسه

الشيخ إبراهيم. ويقول ناشر كتبه الإنكليزية، ويليام أوسلي، في كانون الثاني (يناير) ١٨٢٩؛ إنّ معرفة بيركهارت العربية، وإطلاعه التام على أحوال المسلمين وعاداتهم قد ساعده على تقمّص دور الرجل المسلم بنجاح، حتى استطاع أن يعيش في مكّة، خلال موسم الحج كلّّه، ويشترك في مناسكه وشعائره، من دون أن يثير أدنى شك بشخصيته المنتحلة... وكان بيركهارت نفسه يقول: إنّّه من بقايا المماليك الذين قضى عليهم محمد علي باشا في مصر، حينما كان يُسأل عن هويته^(٣٨).

دخل مكّة في ٨ أيلول (سبتمبر) ١٨١٤، حيث مكث لغاية كانون الثاني (يناير) اللاحق، والملاحظ ممّا كتبه بيركهارت نفسه أن إقامته في مكّة كانت مريحة جداً، فهو يقول: إنّّه لم يتمتع خلال سفراته في البلاد الشرقية كلّها بمثل ما تمتّع به في مكّة من الراحة»، وإنّه سيظلّ يتذكر إقامته فيها إلى الأبد، برغم انحراف المزاج



الذي ألم به، فلم يسمح له بالتمتع بجميع ما سمحت له الأحوال التمتع به^(٣٩)، وقد كتب: «خلال جميع رحلاتي في الشرق، لم أتمتع براحة كالتي عشتها في مكة. وسأحتفظ بذكريات جميلة عن إقامتي هنا».

ولا شك أن بيركهارت لم يميز وقته سدى، إذ وضع ٣٥٠ صفحة من الملاحظات والوصف الدقيق للمدينة وأهلها... وترك وصفاً مفصلاً لبيت الله الحرام الذي تمتع بجماله، خلال ليالي شهر رمضان عندما «تلتهم آلاف الفوانيس في أعمدته» وعندما «تنعشنا النسمة الباردة فيه، بعد يوم طويل وحار من الصيام»^(٤٠).

ما تجدر الإشارة إليه، أن بيركهارت يشرع بوصف الحج وشعائره قبل وصوله مكة، ويبدأ بذكر ما يختص بالإحرام بطبيعة الحال. ويستشهد بما رواه المؤرخون عن هارون الرشيد وزوجته زبيدة اللذين قصدا الحج، في سنة من السنين، مشياً على الأقدام من بغداد إلى مكة، ولم

يكن يستر جسمها غير لباس الإحرام، على طول الطريق. ويأتي بعد ذلك على ذكر التوجه إلى المسجد الحرام، والطواف والسعي بين الصفا والمروة، وزيارة العمرة، ثم العودة إلى مكة، على أن بيركهارت يذكر كذلك أن الكعبة كانت مكاناً مقدساً في أيام الجاهلية أيضاً، وأن الناس كانوا يطوفون حولها بنفس النمط الذي يطوفون فيه حولها اليوم تقريباً، لكن المبنى المقدس كانت تزينه يومذاك ثلاثمائة وستون صنماً، وأن على الرجال والنساء أن يظهرأ أمامها عراة كما خلقهم ربهم؛ ليستطيعوا التجرد عن الخطايا والذنوب، والتخلص منها مع الملابس التي يتجردون منها^(٤١).

وصف مسهب لمكة

وبعد أن يشير إلى التقديس والتبجيل اللذين يكتنهما العرب جميعاً لمكة، وإلى الأسماء التي تطلق عليها مثل: «أم القرى» و«المشرفة» و«البلد الأمين»، يأخذ بوصفها من

الأخرى بوجه عام. وبيوتها عالية مبنية بالحجر، فيها عدد من الشبائيك التي تطلُّ على الشوارع فتسبغ عليها منظرًا تملأه الحيوية، بخلاف الدور في مصر وسوريا، التي لا تطلُّ على الطرق في الغالب،.. وهي مثل جدّة، تحتوي على عدد من الدور ذات ثلاثة طوابق، ويقول كذلك: إنّ مكّة مفتوحة من جميع الجهات، لكن الجبال المحيطة بها تكون مانعاً حصيناً ضد العدو، إذا مادّوفا عنها بطريقة أصولية. وقد كان لها في الزمن القديم ثلاثة أسوار تحمي جوانبها المتطرفة^(٤٢)..

ويمضي بيركهارت في التطرق إلى العديد من التفصيلات، كالماء الذي يعتمد عليه سكان مكّة، وبئر زمزم، وقناة زبيدة التي يسهب في سرد تأريخها وماشهدته من ترميم وإصلاح، على مرّ التاريخ.

ومن أمتع ما يكتبه بيركهارت عن مكّة وصفه المسهب لمحاتها المختلفة، بعد أن شاهدها بنفسه ودقّق

جميع النواحي، فيقول: إنّ البلدة تشغل فضاءً يبلغ طوله حوالى ألف وخمسمائة خطوة، أي من محلة الشبكة إلى نهاية المعلا. لكن جميع ما يطلق عليه اسم مكّة، بالمعنى الأوسع، يمتدّ من ضاحية جرول (المدخل من طريق جدّة) إلى ضاحية المعبرة على طريق الطائف. ويبلغ هذا حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة خطوة. أمّا الجبال التي تحيط بهذا الوادي، الذي كان يسميه العرب وادي مكّة أو بكّة، فيبلغ ارتفاعها مابين مئتين وخمسمائة قدم، وهي جرداء خالية من الزرع والشجر. وينحدر الوادي برفق نحو الجنوب، حيث تقع محلة المسفلة؛ ولذلك يتبدّد المطر الذي يسقط أحياناً على مكّة في جنوب مسفلة، في الوادي المكشوف الذي يسمّى وادي الطرفين، وتقع معظم البلدة في ضمن الوادي نفسه.

ويقول بيركهارت: إنّ مكّة يمكن أن تعتبر بلدة جميلة؛ لأنّ شوارعها أعرض من شوارع المدن الشرقية

أحوالها. فهو يقول: إنَّ القادم من جدّة إلى مكّة المكرمة يجد في مدخلها برجين عاليين للحرس، كان قد أنشأهما الشريف غالب للدفاع عن عاصمته المقدسة.

وبعد أن يدخل القادم من بينها بمسافة غير بعيدة يصادفه موظفو الشرف الذين يجلبون الرسوم على البضائع. ثمَّ يدخل إلى «حارة جروول» التي يعيش فيها البدو المشتغلون في تجارة النقل ما بين مكّة وجدّة، وتأتي بعد «حارة الباب» التي تتألف من شارع عريض متسع، يقوم في جانبيه عدد غير يسير من الدور الكبيرة الحسنة «حارة الشبيكة» التي تمتد إلى اليمن في الغالب، ويقول بيركهارت: إنَّ هذه المحلة كان أصحاب النبي عليه السلام قد ضويقوا فيها جدّ المضايقة، في حروبهم مع قريش^(٤٣).

وعلى هذا المنوال، يمضي بيركهارت في وصف أدق التفاصيل الأخرى عن مكّة وحاراتها أو مطوّفها، وأسواقها، وسفوحها،

وأجهزتها الإدارية، ونفوسها وأماكنها التاريخية... الخ.

حارات مكّة.. ومواقعها التاريخية

كان بيركهارت يحرص على رصد كلّ شاردة وواردة في مكّة، ويتطرق إلى كلّ شيء تقع عليه عيناه، أو يتناهى إلى سمعه. ومن ذلك اهتمامه بالواقع المعاش كاهتمامه بالتأريخ الغابر، كلّ ذلك بمنهجية موضوعية ونظرة جامعة مانعة. إن صحّ التعبير.

وغالباً نراه يشير إلى المواقع التاريخية المبثوثة في حارات مكّة، دون أن يغفل واحداً منها. فمثلاً يقول بالمناسبة: إنَّ القمة الغربيّة من وادي الطرفين التي تقابل المسفلة، كانت تقوم فوقها بناية صغيرة وقبة شيّدت لتخليد ذكرى الخليفة عمر بن الخطّاب، فصارب تسمى «مقام سيدنا عمر»، لكن الوهابيين حينما استولوا على مكّة، قبل أن يستردّها منهم محمد علي باشا، هدموا هذه البناية والقبة وخربوها^(٤٤).

وفي المحل الذي ينتهي فيه

سالف عهده. ويقول بيركهارت: إنّ الناس في مكّة يقدسون أبا طالب ويجلّونه غاية الإجلال، ويخشون القسم كذباً به.

ويختم بيركهارت بحثه عن حارات مكّة بالإشارة إلى عدد نفوسها، بعد أن يبحث في صعوبة تقدير النفوس في المدن والبلاد الشرقية عامة. وهو يقدّر نفوس مكّة في غير مواسم الحج، في تلك الأيام، بخمسة وعشرين إلى ثلاثين ألف نسمة، يُضاف إليها حوالي ثلاثة إلى أربعة آلاف عبد حبشي وغير حبشي، ثمّ يقول: إنّ مكّة كان بوسعها، في تلك الأيام، أن تسكن ثلاثة أضعاف هذا العدد من الحجاج أيضاً. ويشير كذلك إلى أنّ إحصاءً للنفوس كان قد جرى في عهد السلطان سليم الأوّل (٩٢٣ هـ) فوجد أنّ النساء والرجال والأطفال قد بلغ عددهم حوالي اثني عشر ألف نسمة. وهو يروي ذلك عن المؤرخ قطب الدين، الذي يذكر أيضاً أنّ نفوس

السعي، من جهة المروة، لاحظ بيركهارت وجود الدار، التي كان يسكن فيها العباس عمّ النبي ﷺ... وتوجد على مقربة من هذا المكان بركة وسيل للشرب بناه السلطان سليمان القانوني، واستمدّ له الماء من قناة مكة المشهورة... (٤٥).

ويذكر بيركهارت كذلك «زقاق الحجر» الذي يقول: إنّ الزهراء البتول ﷺ وأبا بكر الصديق قد ولدا فيه. وقد سُمّي الزقاق باسم الحجر الذي كان يحیی الرسول الأعظم كلّما كان يمر به، عند رجوعه من الكعبة على ما يُقال... (٤٦).

وعند انتهاء المعلا، وعلى مسافة غير بعيدة من قصر الشريف الكائن في شمال منطقة البرك، يوجد قبر أبي طالب والد الإمام علي ﷺ، وعمّ النبي الكريم صلوات الله عليه. وقد عمد الوهابيون إلى تقويض البناء الذي كان قائماً فوق القبر، فأحالوه إلى كومة من الأنقاض، ولم يجد محمد علي باشا بعدهم من المناسب أن يعيد البناء إلى



مكة كانت أكثر من هذا بكثير في القرون الخالية؛ لأنّ القرامطة، حينما هاجموا مكة في ٣١٤هـ، بلغ عدد من قُتِلَ بأيديهم من سكان مكة حوالى ثلاثين ألف نسمة^(٤٧).

الأماكن المقدسة

ويخصص بيركهارت في رحلته فصلاً خاصاً لذكر بعض الأماكن والبقع المقدسة التي يقول عنها: إنّ الناس، خلال احتلال الوهابيين لمكة، لم يكونوا يجرون على زيارتها أو التقدم منها، وأنّ جميع الأبنية أو القبب المشادة عليها قد تمّ تدميرها.

وأول ما يذكر من هذه الأماكن «مولد النبي»، أو الموقع الذي ولد فيه سيد الكائنات النبي الأعظم صلوات الله عليه. وهو يقول: إنّّه وجد العمال يعيدون بناء المبنى الذي كان مشيداً فوقه. وقد وجد حفرة صغيرة في الوسط، قيل له إنّها البقعة التي كانت أمّ النبي جالسة فيها، حينما جاءها المخاض فولدته. والمقول أنّ المكان كلّه كان بيت عبد الله بن عبد المطلب والد

النبي.

ثمّ يذكر «مولد ستنا فاطمة» أو المكان الذي وُلدت فيه الزهراء البتول سيّدة نساء العالمين، ويوجد هذا «المولد»، على ما يقول بيركهارت، في بناية حسنة مبنية بالحجر، يُقال أنّها كانت بيت أمها خديجة الكبرى، في شارع صغير يسمّى «زقاق الحجر». ويؤدي سلم صغير إليه عند الدخول، لأنّه تحت مستوى الشارع، وتوجد فيه بقعتان محدتان؛ أحدهما ولدت فيها فاطمة الزهراء عليها السلام، والثانية كانت تجلس فيها لتدير رحاها وتطحن الحب. ويقول: وفي جناح بالقرب من ذلك توجد حجرة صغيرة، كان يجلس فيها النبي عليه السلام، حينما كان جبريل ينزل عليه بالوحي، ولذلك كانت تسمى «قبة الوحي».

ويذكر بعد ذلك «مولد الإمام علي» في الحارة المسماة «شعب علي»، ويقول بيركهارت: إنّ هذه عبارة عن مسجد صغير توجد حفرة في فنائه

لتدلّ على البقعة التي ولد فيها الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) (٥١) (٤٨)، وهذا اشتباه واضح، إمّا من بيركهارت الذي ربّما اختلط الأمر عليه، أو لعلّه من اشتباهات العوام، اذ من المعروف أنّ الإمام علياً (عليه السلام) هو وليد الكعبة.

ويشير بيركهارت بعد ذلك إلى «مولد سيدنا أبا بكر»، الذي يقول انه ضمن مسجد صغير يقع في مقابل الحجر الذي كان يحى النبي (صلى الله عليه وآله) عند مروره به، ويقول كذلك أنّ هذا المكان ليست فيه بقعة خاصة بالذات، لكن ساحته مغطاة بسجادة إيرانية، ويعلّق بعد ذلك فيقول أنّ جميع هذه «الموالد» كانت قد أعيد بناؤها وترميمها، بعد اخراج الوهابيين من مكّة، في تلك الأيام، عدا «مولد النبي» الذي كان يجري بناؤه مجدداً، وتشارك في سدانة هذه الأماكن المقدسة عدّة أسر شريفة.

وقد ألّف بيركهارت أنّ «مولد أبي طالب»، في محلة المعلا، قد تمّ تهديمه عن آخره، وهو يتوقع ان لا

يُعاد بناؤه من بعد ذلك أيضاً. كما وجد الوهابيين قد هدموا القبة التي كانت مشيدة على قبر «سيدتنا خديجة» ولم يعد بناؤه أيضاً، مع أنّ الحجاج وسائر الناس كان من المعتاد أن يزوروه بانتظام، لا سيما في أيام الجمع صباحاً، ويقع هذا القبر في المقبرة الكبيرة الموجودة في محلة «المعلا»، وهو محاط بجدار مربع ليس فيه ما يلفت النظر، سوى حجر حفرت عليه آية الكرسي بخط كوفي.

وعلى مسافة غير بعيدة من هذا القبر كان هناك قبر آمنة والدة النبي (صلى الله عليه وآله).

وكان مغطى بحجر حفرت فيه بعض الآيات القرآنية بخط كوفي قديم. ومّا يذكره عن هذه المقبرة انه وجد في نهاية كل قبر من قبورها تقريباً نباتاً من نباتات (الصبر) قد زرع، ليدل على الصبر الذي يجب ان يتحلّى به الموتى، قبل أن يبعثوا في يوم المحشر (٤٩).

وهناك أماكن كثيرة أخرى،



خارج مكة، يأتي بيركهارت على ذكرها، ويشير إلى قداستها، كجبل أبي قبيس، وقمته؛ «مكان الحجر» و «مكان شق القمر»، و «جبل النور»، و «جبل ثور»... الخ.

بيت الله الحرام

ويصف بيركهارت في الجزء الأول من رحلته بيت الله الحرام بالتفصيل، فيأتي على كل شيء فيه، بحيث يستغرق وصفه ما يزيد على خمسين صفحة.. ومن طريف ما يورده بيركهارت، في هذا الفصل، قائمة بأسماء الأبواب الموجودة في المسجد الحرام تحتوي على تسعة وثلاثين اسماً حديثاً، تقابلها الأسماء القديمة لبعض الأبواب. لكنه يقول ان أهم الأبواب كانت: باب السلام الذي يجب ان يدخل منه كل حاج، وباب العباس، وباب النبي، وباب علي، هذه كلها من الجهة الشمالية. أمّا الشرقية فأهم أبوابها؛ باب الزيت، وباب العشرة، وباب الصفا، وباب الشريف، ثم باب إبراهيم، وباب العمرة في الجنوب،

وباب الزيارة في الجهة الغربية. ومعظم هذه الأبواب لها عقود عالية مدببة^(٥٠). ويستطرد في هذا الفصل في وصف محيط المسجد الحرام من الخارج، الذي كانت تزينه سبع منارات، كما ويتحدث عن سدة البيت الحرام، والطواشين الذين يقومون بواجبات الشرطة، في داخل الحرم الشريف، علاوة على قيامهم بغسل أرضية الكعبة وكنسها يومياً.. ويعتبر أغا الطواشين من شخصيات مكة على ما يلاحظ، بحيث يكون مخولاً بالجلوس مع الشريف والباشا والحاكم... ومعظم هؤلاء من العبيد السود. وبعضهم من الهنود^(٥١).

وعلى عادته في التقصي، يأتي بيركهارت كذلك على ذكر الكعبة المشرفة، فيقول؛ انها تفتح ثلاث مرات في السنة فقط، في اليوم العشرين من رمضان، واليوم الخامس عشر من ذي القعدة، والعاشر من محرم الحرام^(٥٢). ويتم ذلك عادة بعد طلوع

مربعة (٥٣).

ملاحظات حول سكان مكة

وفي رحلته التفصيلية، يخصص بيركهارت مايزيد على سبعين صفحة منها، للتحدث عن سكان مكة وطبقاتهم وطبائعهم، مع أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك. فهو يقول أولاً أن سكان مكة يمكن أن يُقال عنهم كلهم انهم غرباء وأجانب عنها. لأن قبائل قريش الأصلية التي كانت تسكنها قد تفتتت وهاجرت إلى الخارج، بحيث لم يبق لها ذكر يعتد به في مكة. على أن محيط مكة وما جاوره مازال يوجد فيه البعض من تلك القبائل البدوية على الأخص. وقد كانت توجد في مكة على أيام بيركهارت ثلاث أسر قرشية معروفة فقط، وكان يرأس أحداها نائب الحرم. أما أكثر طبقات السكان فقد كانوا من أهالي اليمن وحضر موت، وكان يليهم في العدد أبناء الهنود المستوطنين والمصريين والسوريين والمغاربة والأتراك. وكان

الشمس بساعة واحدة، بنصب سلم فيما يقرب من الباب الكبير، وحالما يتم ذلك تتدفق عليه جموع المسلمين المحتشدين في أسفله، وسرعان ما تمتليء بهم داخلية الكعبة نفسها... ويقول بيركهارت انه لم يستطع البقاء هناك أكثر من خمس دقائق، لأن حرارة المكان كانت مرتفعة بحيث لم يحتملها، وأوشك أن يخز مغشياً عليه منها.

وبعد أن يصف بيركهارت داخلية الكعبة وأستارها، وقد زارها هو مرتين، في يومي ١٥ ذي القعدة و ١٠ محرم الحرام، فشاهد في المرة الأخيرة أن الستائر الجديدة التي بعث بها محمد علي باشا من القاهرة قد علقت، فكان قماشها ثميناً، ونسجها أدق من نسج الكسوة السوداء التي تغطي الكعبة من الخارج. أما الستائر القديمة التي كان قد مر عليها أكثر من عشرين سنة، فقد بيعت علناً للمتمكنين بسعر ريال واحد، لكل قطعة مساحتها ست بوصات



هناك أيضاً مكيون من أصل إيراني وتاتاري وبخاري وكردى. ومن كل بلد مسلم آخر تقريباً.

على أن أقدم السلالات المكيّة، التي بقيت في مكّة كذلك، هي سلالة الشرفاء الأصليين، الذين ينتمون إلى الدوحتين الحسينية والحسينية، من أبناء الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم يأتي بيركهارت على وصف أنواع الشرفاء في داخل الحجاز وخارجه، ويقول أن تقاسيم الشرفاء في مكّة هي تقاسيم جميلة مقبولة تقارب تقاسيم البدو في شكلها، ولا سيما في الوجه والعيون والأنف والأقنى^(٥٤).

وبعد أن يصف لباس المكيين بالتفصيل، يتطرق إلى اقتناء الجوّاري الحبشيّات، ثم يصف حالة مكّة الإقتصادية بأسهاب.. ويعرّج إلى ذكر ما يقترفه المكيّون، وهو آسف، من أنواع الفساد والفجور... وهو يسهب في ذكر ذلك، على أننا لا نعرف مقدار الصحة في كلامه. على أنه مع جميع ما يذكره من

السيئات يشير إلى الصفات الحسنة عند المكيين كذلك مثل السخاء والكرم، ومحبة الغريب ومساعدته، والإمتناع عن السرقة والغش.

ويتطرق بيركهارت إلى الناحية العلمية في مكّة، فيقول أن العلم وتعلمه لا يمكن أن يؤمل ازدهارهما في مكان يفكر فيه الجميع بالحصول على الربح والمغنم أو الجنة. وهو يعتقد أن مكّة في يومه ذاك لم تكن في مستوى البلاد الإسلامية الأخرى، من هذه الناحية، وحتى من ناحية العلوم الدينية. ويروي عن الفاسي المؤرخ أن مكّة كان فيها إحدى عشرة مدرسة في أيامه، بجانب عدد من الرباطات وغيرها. بينما لم تكن توجد ولا مدرسة واحدة تُلقى فيها المحاضرات على ما يقول، وليس فيها مكتبة عامة ملحقة بالحرم الشريف أيضاً. ومع عدم اهتمام المكيين بالكتب والتعلّم فإن لغة مكّة، على ما يقول بيركهارت ما تزال أكثر نقاء ورقة في اللفظ والتركيب، من لغة

أي مكان آخر يتكلم أهله العربية في العالم^(٥٥).

في أعقاب ذلك، يسلط بيركهارت الأضواء على حكومة مكة والشرفاء، إذ كانت مكة والطائف وقنفذة وينبع، على ما يقول، تابعة لشريف مكة، قبل أن يحتلها الوهابيون، والمصريون من بعدهم، في أوائل القرن التاسع عشر.. وقد مدد الشريف نفوذه إلى جدة، لكنها بقيت منفصلة عن ممتلكاته اسمياً؛ لأنها كان يحكم فيها «باشا» ينتدب لحكمها من استانبول فيقسم وارداتها مع الشريف. وكان الشريف يترفع على دست الحكم في مكة بالقوة عادة، أو بنفوذه الشخصي، وموافقة أسر الشرفاء القوية.

وبعد أن يأتي بيركهارت على تأريخ الكثير من الشرفاء وأعمالهم، ولا سيما الشريف سرور والشريف غالب، يبدأ بوصف لباسهم ومواقعهم عند الخروج للصلاة وغيرها، ويذكر بالمناسبة أن الوهابيين حينما احتلوا

مكة أجبروا الشريف على الخروج ماشياً إلى المسجد الحرام في أوقات الصلاة، لأن الركوب والفخفة لا يناسبان الخشوع والورع، الذي يجب أن يبديه الحاج أو المصلي بجوار الكعبة^(٥٦).

وبعد خوض مفصل في عادات الشرفاء واهتماماتهم.. وما يتسمون به من خصال كالاهتمام الزائد الذي يولونه للسخاء والضيافة والإيمان بالعقيدة الحقة.. فإن بيركهارت يعلق أن المكّيين يشكون كثيراً في نزاهة الشرفاء واستقامتهم، ثم يذكر أن القسم الأعظم من شرفاء مكة نفسها، وخاصة الشرفاء الحاكمين من ذوي زيد، يحتمل جداً أن يكونوا من الزيدية الذين يكثر أتباعهم في اليمن، ولا سيما في جبال صعدة، لكن الشرفاء يكذبون ذلك، ويتمسكون بالمذهب الشافعي الذي يتمذهب به سكان مكة معظمهم، أمّا الشرفاء المقيمون في الخارج فلا ينكرون ذلك^(٥٧).



الحج مناسك.. وقوافل

وفي الجزء الثاني من رحلته، يخصص بيركهارت فصلاً كبيراً للحج ومناسكه وجميع ما يختص به من شؤون. وأوّل ما يبدأ به الإشارة إلى أنّ المسلمين قد قلّت حماسهم لتأدية الواجبات الدينية المفروضة عليهم، في تلك الأيام، ومن جعلتها الحج الذي أصبحت تكاليفه الباهظة على الكثيرين من المسلمين، تحول دون تجشّمهم المصاعب من أجله. وصار قسمٌ كبير منهم ينيب غيره للحج عنه بالأجرة، إذا لم يترك الأمر بالكلية أو يماطل به.

ويشير بعد ذلك إلى أنّ عدداً غير يسير من المسلمين كانوا قد وصلوا إلى مكّة، قبل موعد الحج بثلاثة أو أربعة أشهر، لأنّ تقضية رمضان المبارك في البلد المقدّس فيه كثير من الأجر والثواب. ثمّ يأخذ بوصف مواكب الحجّاج وقوافلهم التي تأتي من البلاد الإسلامية المشهورة، ولا سيما سورية ومصر.

فيقول: إنّ موكب الحجّ القادم من سورية كان على الدوام من أقوى المواكب، منذ كان الخلفاء يصحبون الحجّاج بأنفسهم من بغداد. ويبدأ الموكب الشامي في العادة بالتحرك من الاستانة، فيجمع في طريقه حجّاج المدن والبلاد الأناضولية والسورية حتى يصل إلى دمشق الشام، حيث يمكث عدّة أسابيع. وفي خلال الطريق الممتد من الاستانة إلى الشام كلّه تؤخذ التدابير اللازمة للمحافظة على سلامة القوافل ومافيهما من حجّاج، وتصحّب الموكب من بلدة إلى أخرى قوات مسلحة يجهزها الحكام المسؤولون. وفي كل محطة أو خان كان يجد الحجّاج البرك والأحواض العامة من الماء، التي كان السلاطين القدماء قد أنشأوها لراحتهم والعناية بهم. ويقابلون بمظاهر البهجة والفرح في كلّ مكان.. وكان الموكب الشامي على انتظام تام في سيره وسائر شؤونه، فإنّ باشا الشام أو من يُنيبه من ضباط كان يرأسه على الدوام، فيعطي الإشارة في

لكنها نادراً ما تساويها في العدد، لأنها تتألف من الحجاج المصريين فقط، إلى جنب الحرس العسكري، ويكون طريقها على جانب أكبر من الخطر والمشقة، لأن الطريق الممتد على سواحل البحر الأحمر يمر من ديرات قبائل شرسة قويّة الشكيمة، كثيراً ماتحاول قطع الطريق على القوافل بالقوّة. وكان الموكب المصري في ١٨١٤ يتألف من الجند المرافق للمحمل^(٥٩) وحاشيته مع بعض الموظفين الرسميين. لأن جميع الحجاج المصريين فضلوا الحج عن طريق السويس.

وفي ١٨١٦ رافق موكب الحج عدد من وجوه مصر وسراتها، وقد جاء أحدهم بمئة وعشرة جمال، لتحمل عفشه وحاشيته، مع ثنائي خيم كبيرة. ولا بدّ من أن تكون نفقات سفره قد بلغت حوالي عشرة آلاف دينار، وكان مع الموكب أيضاً حوالي خمسمائة فلاح مع نسائهم من مصر السفلى.. والغريب أنّ بيركهارت

الحل والترحال بإطلاق الرصاص. وتتقدّم الموكب في الطريق ثلّة من الخيالة، كما تسير خلفه ثلّة أخرى لرعاية المتخلفين. ويجتمع في ضمن الموكب الحجاج القادمون من المدن المختلفة في جماعات تسير سوّيّة على طول الطريق.

ويتعاقد الحجاج عادة مع أحد المقومين، وهو يتعهّد بتجهيز الدابة إلى الحاج، مع سائر ما يحتاج إليه، خلال السفر، ولذلك يلاحظ كل عشرين أو ثلاثين حاجاً مع مقومهم الخاص، الذي يهيئ لهم الخيم، ويجهّز الخدم، فيوفر على الحجاج أتعاب السفر، ولا سيما بتحضيره شؤون الطعام والقهوة والماء وما أشبه لهم. ولقد كانت أجرة الحاج عند المقوم في ١٨١٤ مع اعاشته تبلغ مئة وخمسين ريالاً من دمشق إلى المدينة، وخمسين ريالاً من المدينة إلى مكة^(٥٨).

أمّا قوافل الحجاج المصريين وموكبهم فتسير على نفس النظام الذي تسير عليه القوافل السورية،



يقول انه شاهد معهم جماعة من البغايا والراقصات، وإنّ خيم أولائي النسوة كانت أجمل خيم الموكب وأكثرها زينة وتزويقاً^(٦٠).

ويقول بيركهارت كذلك أنّ موكب الحج الإيراني الذي كان يخرج من بغداد، في سالف الأيام، فيأتي إلى مكة عن طريق نجد، قد انقطع مجيئه حينما أوقف الوهابيون مجيء الموكب الشامي من سورية. وبعد أن عقد عبد الله بن سعود صلحاً مع طوسون باشا (بن محمد علي) في ١٨١٤، كان العدد القليل من الحجاج الإيرانيين القادمين عن طريق البر، قد عبروا من بغداد إلى الشام، وساروا مع الموكب الشامي بصحبة عكامين من بغداد.

ومن الجدير بالذكر، على ما يقول بيركهارت، إنّ الإيرانيين لم يكن يسمح لهم على الدوام أن يأتوا إلى مكة. فبعد أن أعيد بناء الحرم الشريف في ١٦٣٤م أمر السلطان مراد الرابع بأن لا يُسمح لأي إيراني من «شيعة علي» بتأدية الحج أو

الدخول إلى بيت الله الحرام. فبقي التحريم سارياً عدّة سنوات، غير أنّ المال الذي بذله الإيرانيون سرعان مافتح الطريق أمامهم إلى الكعبة وعرفات.

وقد توقف مجيء الموكب المغربي للحجاج مدة سنين عديدة، وقد أصبح قدومهم على دون هدى أو انتظام. وكان من المعتاد أن يرأس الموكب قريب من أقرباء ملك مراکش، فيسير مسيرات بطيئة نحو تونس وطرابلس، ويجمع الحجاج في طريقه من كل منطقة. ويسلك هذا الموكب من طرابلس الطريق الممتد على ساحل البحر إلى درنة، ومن هناك يسير مع الساحل المصري إلى القاهرة، عن طريق الاسكندرية. ولا يرافق هذا الموكب إلا عدد قليل من الجند، لأنّ الحجاج يكونون مسلحين تسليحاً حسناً في العادة.. ويقول بيركهارت؛ يوجد مع موكب الحجاج المغاربة عادة أناس من أهالي جزيرة جربا، الذين يعتقد أنهم من شيعة

ويأتي مسلمو الحبشة وسائر بلاد
العبيد بالطريق نفسها كذلك ..

ويأخذ بيركهارت بوصف
مناسك الحج بالتفصيل .. ويقدر عدد
الحجاج الذين وقفوا في عرفات (سنة
١٨١٤) بسبعين ألف حاج . وقد كان
مخيم الحجاج هناك يبلغ طوله بين
ثلاثة وأربعة أميال ، وعرضه حوالي
الميلين . وهو يقول في هذا الشأن أنه
ليس هناك ، على وجه الأرض ، بقعة
في مثل هذا الحجم الصغير يقف عليها
مثل هذا العدد من الناس ، الذين
يتكلمون بهذا العدد الكبير من اللغات
واللهجات . ويقول كذلك انه شخصياً
لاحظ وجود أربعين لغة بين الحجاج ،
وأنه كان هناك عدد آخر من اللغات
الأخرى بطبيعة الحال .. (٦١) .

ونجد لزماً التنويه إلى أننا عزفنا
عن ذكر الكثير من الملاحظات
والمعلومات المهمة ، التي ذكرها
بيركهارت ، خشية الاطالة ، مكتفين
بالاحالة إلى مضانها للمستزيد .

الإمام علي ، كما يقول بيركهارت .
وكان يأتي من اليمن موكباً
للحج عن طريق البر ، من قبل ، وكان
أحدهما يتحرك من صعدة فيسير في
المناطق الجبلية إلى الطائف ومنها إلى
مكة . أما الموكب الثاني فقد كان يتألف
من حجاج يمانيين ، مع حجاج إيرانيين
وهنود يصلون في العادة إلى موانئ
اليمن . وقد أبطل هذا الحج في ١٨٠٣ ،
بعد أن كان من المواكب الغنية بالسلع
المختلفة والبُن ، وبعد أن كان يرأسه أئمة
اليمن . وقد كان لهذا الموكب ، كما كان
لغيره ، مكان خاص في مكة المكرمة
ينزل فيه ..

أما الحجاج الباقيون فيأتون إلى
مكة عن طريق البحر من اليمن وجزر
الهند الشرقية ، وهؤلاء هم مسلمو
الهند ، وكشمير ، وكجران ،
والإيرانيون القادمون عن طريق
الخليج والعرب من البصرة ومسقط
وعُمان وحضر موت .. فضلاً عن
القادمين من سواحل مليندا ومومباسا
الذين يطلق عليهم «السواحليون» ،

الهوامش :

- (١) جعفر الخياط: مكة في المراجع الغربية، مقال مفصل منشور ضمن موسوعة العتبات المقدسة، ج ٢، قسم مكة، بإشراف جعفر الخليلي، ط ٢، بيروت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م): ٢٦٤.
- (٢) المرجع السابق، فصل «المدينة المنورة في المراجع الغربية»، ج ٣، قسم المدينة: ٢٤٢.
- (٣) خير الدين الزركلي: «قاموس الأعلام» - ٨: ٣٣٤ (ط ٧، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٦ م)، نجيب العقيقي: «المستشرقون» - ٢: ٥٢ (ط ٤، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠).
- (٤) زين نور الدين زين: «الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان» بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧١: ٣٤.
- (٥) فيما عُرِف الأولان بعدائهم السافر للإسلام، أقام الثاني في مصر بين سنتي (١٨٣٣ - ١٨٣٥) متستراً بالإسلام وراء اسم «منصور أفندي»!
- (٦) ادوارد سعيد: «الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء» تعريب كمال أبو ديب، ط ٢، بيروت، ١٩٨٢: ١٤٥.
- (٧) المرجع نفسه: ١٢٠.
- (٨) د. صالح زهر الدين: «الإسلام والاستشراق»، بيروت، ١٤١٢ هـ ١٩٩١: ١٠٧.
- (٩) أدوارد سعيد: م. س: ١٢٤.
- (١٠) د. صالح زهر الدين: م. س: ١٠٨.
- (١١) المرجع نفسه: ١١٠، ١١١.
- (١٢) للمزيد يراجع كتاب الاستشراق لأدوارد سعيد، فصل «الجغرافية التخيلية» صفحة: ٨٠ وما بعدها.
- (١٣) بيتر برينث: «بلاد العرب القاصية: رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب»، ترجمة خالد أسعد عيسى، وأحمد غسان سبانو، بيروت، ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م: ١٠٨.
- (١٤) رلى الزين: «أوروبيون في الشرق»، الحلقة الخامسة، صحيفة الحياة (لندن) الإثنين ٢٧ نيسان (أبريل) ١٩٩٢ - ٢٥ شوال ١٤١٢ هـ. العدد (١٠٦٧١): ١٥.
- (١٥) بيتر برينث: م. س.
- (١٦) رلى الزين: م. س.
- (١٧) بيتر برينث: م. س، ورلى الزين: م. س أيضاً.
- (١٨) د. حلمي خضر ساري: «صورة العرب في الصحافة البريطانية»، ترجمة عطا عبد الوهاب، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨: ٣٢.
- (١٩) بيتر برينث: م. س: ١٠٨.
- (٢٠) المرجع نفسه.

- (٢١) صحيفة الحياة: م. س.
- (٢٢) للمزيد يراجع كتاب: «صورة العرب في الصحافة البريطانية» م. س: ٤٤ هامش (٩٥).
- (٢٣) صحيفة الحياة: م. س.
- (٢٤) بلاد العرب القاصية: م. س: ١٠٩.
- (٢٥) د. محمود السمرة: «ليدي هسترستانهوب» تعريف بكتاب الشهر، مجلة العربي الكويتية، العدد (٩٩) - شوال ١٣٨٦ هـ - شباط ١٩٦٧: ١٣١ وما بعدها.
- (٢٦) المرجع نفسه.
- (٢٧) من القاهرة كتبت ستانهوب إلى أحد أصدقائها تقول: «لقد كان محمد علي حفيئاً بي، ولم يكن يستقبلني إلا واقفاً، وقد سمح لي أن أزوره متى أردت، ولم يرفض لي طلباً طيلة إقامتي في ضيافته، حتى انه سمح لي أن أزور أرامل المماليك الذين قتلهم عندما طلبتُ منه ذلك» تراجع مجلة العربي: المرجع السابق: ١٣٢.
- (٢٨) بلاد العرب القاصية: م. س: ١٠٩.
- (٢٩) صحيفة الحياة: م. س.
- (٣٠) المرجع نفسه.
- (٣١) بلاد العرب القاصية: م. س: ١١٠.
- (٣٢) للمزيد يُراجع المرجع نفسه: ١١١.
- (٣٣) المرجع نفسه.
- (٣٤) مكة في المراجع الغربية: م. س ٢: ٢٦٤.
- (٣٥) صحيفة الحياة: م. س.
- (٣٦) بلاد العرب القاصية: م. س: ١١١.
- (٣٧) صحيفة الحياة: م. س.
- (٣٨) بلاد العرب القاصية: م. س: ١١٨.
- (٣٩) مكة في المراجع الغربية: م. س.
- (٤٠) بلاد العرب القاصية: م. س.
- (٤١) مكة في المراجع الغربية: م. س، ٢: ٢٦٣ - ٦٢٤.
- (٤٢) المرجع نفسه، ٢: ٢٦٥.
- (٤٣) صحيفة الحياة: م. س.
- (٤٤) مكة في المراجع الغربية: م. س.
- (٤٥) المرجع نفسه، ٢: ٢٦٥.
- (٤٦) المرجع نفسه، ٢: ٢٦٨.
- (٤٧) المرجع نفسه، ٢: ٢٦٩.

(٤٨) المرجع نفسه ، ٢ : ٢٧١ .

(٤٩) المرجع نفسه ، ٢ : ٢٧٣ .

(٥٠) المرجع نفسه ، ٢ : ٢٧٤ .

(٥١) المرجع نفسه ، ٢ : ٢٧٧ .

(٥٢) المرجع نفسه ، ٢ : ٢٧٦ - ٢٧٨ .

(٥٣) المرجع نفسه ، ٢ : ٢٧٥ .

(٥٤) للمزيد من الإطلاع على التفصيلات أنظر المرجع السابق ، ٢ : ٢٧٥ ، وما بعدها .

(٥٥) يشير الرحالة الهولندي هورغرونييه ، الذي زار مكة عام ١٨٨٤ ، إلى أن الكعبة تفتح في أيام ١٠ محرم الحرام ، و

٢٧ رجب ، و ١٥ شعبان ، وبعض أيام رمضان وفي أشهر الحج ، لكنها قد تفتح في أيام غير هذه للأثرياء الغبراء

الذين يدفعون مبالغ غير قليلة عن ذلك . يراجع المرجع السابق ٢ : ٣٠٩ .

(٥٦) المرجع نفسه ، ٢ : ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٥٧) المرجع نفسه ، ٢ : ٢٨٠ .

(٥٨) المرجع نفسه ، ٢ : ٢٨٣ .

(٥٩) المرجع نفسه ، ٢ : ٢٨٥ .

(٦٠) المرجع نفسه ، ٢ : ٢٨٦ .

(٦١) المرجع نفسه ، ٢ : ٢٨٩ .

معجم ما كتب في الحجّ والزّيارة والمعالم المشرفة في الحجاز (٨)

عبدالجبار الرفاعي

- | | |
|--|--|
| ١٣١٨ - ساختار شهري مدينة
ومحلات قبائل در دوره نبوي
عبدالعزیز عبدالله بن إدريس
رسول جعفریان | محمد رضا گلپایگانی
(بالفارسية)
قم: دار القرآن الكريم، ط ١،
١٣٦٨ ش، ٩٩ ص. |
| ١٣٧٥ هـ) ص ١٠٢ - ١٢١.
١٣١٩ - السالك المحتاج الى معرفة
مناسك الحاج | ١٣٢١ - سُبُل الحجّ في مناسك الحجّ
عبدالله بن محمد رضا شبر الحسيني
ت ١٢٤٢ هـ. |
| رضي الدين علي بن موسى بن
طاووس الحسيني الحلبي ت ٦٧٤ هـ.
١٣٢٠ - سؤال وجواب پيرامون
مسائل حج مطابق با فتاوى سيد | ١٣٢٢ - سُبُل الفجاج في مواقف
الحاج
باقر واعظ كجوري ت ١٣١٣ هـ. |
| | ١٣٢٣ - ٥٦ موشحة على طريقة
السادة الوقائية في تعظيم البيت |

- والتشويق للكعبة، ومدح الرسول، وغير ذلك
ظ: الذريعة ١٢/١٢٩.
- ١٣٢٤ - سخنى چند با حجاج محترم (بالفارسية)
سلمان غفاري
طهران: انتشارات همدمي، ط ١، ١٣٦٢ ش.
- ١٣٢٥ - سدنة الكعبة عبر التاريخ
الهداية س ١١: ع ١٢٩ (١٩٨٨/٧ م)
ص ٢٠ - ٢١.
- ١٣٢٦ - الأسرار في ذكر الصلاة على النبي المختار، الصلوات الطيبة.
أحمد الطيب بن البشير
بيروت: المكتبة الثقافية، ١٩٨٥ م، ١٤٣ ص.
- ١٣٢٧ - سر تحويل القبلة
اسامة أحمد محمد، المجاهد (القاهرة)
ع ١١٢ (١٩٩٠/٣ م) ص ٣٢ - ٣٣.
- ١٣٢٨ - سرزمين عرفات (بالفارسية)
علي قاضي عسكر
ميقات حج. س ٤: ع ١٢ (تأبستان
- ١٣٧٤ ش) ص ١٤٢ - ١٦٣.
- ١٣٢٩ - السعي المشكور في الرد على المذهب المأثور في زيارة القبور
عبدالحلي بن عبدالحليم
(صنفه سنة ١٢٩٤ هـ).
- ط: الثقافة الإسلامية في الهند ٢٤٥.
- ١٣٣٠ - سعى هاجر «كزارش سفر حج»
(بالفارسية)
شكوه ميرزا دگي
طهران: ط ١، ١٣٥٦ ش، ١٣١ ص، ٢١ سم.
- ١٣٣١ - سفر حج (بالفارسية)
مجموعة تحقيق مسائل الحج
طهران: شركت انتشار، ط ١، ١٣٥٩ ش (نشره، ٩).
- ١٣٣٢ - سفر حج (بالفارسية)
محمد صادق نجمي
قم: المؤلف، ط ١، ١٣٥٩ ش.
- ١٣٣٣ - سفر الحرمين
(رحلة الى مكة والمدينة أيام

- عبد الحميد ١١٨٨ - ١٢٠٣ هـ، ١٠٥/١.
 بالفارسية).
 مجهول المؤلف
 ظ: راجستان ٢٦٩/١، فهرستواره
 منزوی ٨٩/١.
 ١٣٣٤ - سفر عشق
 (مناسك حج)
 مرضيه فاميل دردشتي
 ميقات حج: ع ٢٣ (بهار ١٣٧٧ ش)
 ص ١٣٢ - ١٥٤.
 ١٣٣٥ - سفرنامه‌ای شیرین و پر
 ماجرا
 علي قاضي عسكر
 ميقات حج: ع ١٩ (بهار ١٣٧٦ ش)
 ص ١٦٥ - ١٨٧.
 ١٣٣٦ - سفرنامه بيت الله
 (بالفارسية)
 ميرزا عليخان اعتماد السلطنة ت
 ١٢٨٥ هـ
 (شرح فيه رحلته الى الحج سنة
 ١٢٦٣ هـ)
 خ: الإمام الرضا عليه السلام، وقف ١٣٣٤.
 ظ: الذريعة ١٨٦/١٢، استوری
 ١١٥٥، فهرستواره منزوي
 ١٣٣٧ - سفرنامه تشرف مكة
 (بالفارسية)
 مخبر السلطنة مهدي قلي خان
 هدايت ت ١٣٣٤ هـ
 طهران: ١٣٣٠ ش، ١٢٩ ص،
 ٢١ سم.
 ١٣٣٨ - سفرنامه حاج ميرزا مشتري
 بمكه
 (منظوم، بالفارسية)
 حسام الشعراء محمد ابراهيم
 مشتري خراساني ت ١٣٠٥ هـ.
 طهران: ١٣٠٠ هـ.
 ظ: الذريعة ١٨٩/١٢.
 ١٣٣٩ - سفرنامه حج
 (رحلة من بادكوبه الى الحجاز
 والعودة من جدة الى طهران وذلك
 في سنة ١٣١٦ هـ، بالفارسية)
 مجهول المؤلف
 ظ: آشكوري ٣٤٥/١٦
 فهرستواره منزوي ١٠٥/١.
 ١٣٤٠ - سفرنامه حج
 (رحلة رفيع الدين شاه أبو تراب في
 سنة ٩٨٩ - ٩٨٧ هـ = ٧٨ -

- ١٥٧٩م الى الحج، بالفارسية)
أبو الفيض فيضي دكني
(ت ١٠٠٤هـ = ١٥٩٥م)
ظ: استورى ١١٤١ (الرقم ١٥٩٠)،
پانكيور، ذيل ١٩٩٥/٧/١،
فهرستواره منزوى ١٠٤/١.
- ١٣٤١ - سفرنامه حج
(بالفارسية)
پادشاه خواجه بن رحمت الله
خواجه المتخلص بنديم
ظ: فهرست مشترك باكستان
٩٦٦/٦، ٦٦/١٠، فهرستواره
منزوى ١٠٥/١.
- ١٣٤٢ - سفرنامه حج
(بالفارسية)
جواد مجابي
طهران: انتشارات موج، ١٣٥٢ش،
٩٠ص.
- ١٣٤٣ - سفرنامه حج
(بالفارسية)
عبدالله دهش
طهران ١٣٥٣ش، ٦٠ص.
- ١٣٤٤ - سفرنامه حج
(رحلة الى الحج بالفارسية)
- علي خان صدر اعظم أمين الدولة
ظ: فهرستواره منزوى ١٠٤/١.
- ١٣٤٥ - سفرنامه حج
(بالفارسية)
لطف الله الصافي الكلبايگاني
مطبوع
قم: دفتر انتشارات اسلامي، ط ١،
١٣٦٤ش.
- ١٣٤٦ - سفرنامه حج
(رحلة الى الحجاز عن طريق
العراق وسورية في سنة ١٣٢١هـ
(١٩٠٣م)، بالفارسية)
محمد حسن خان سرهندي مجددي
ظ: مشترك ١٤٠٢/٢ و ٦٧/١٠.
- ١٣٤٧ - سفرنامه حج
(بالفارسية)
محمد حسين بن مهدي عشرت
كلبن فراهاني
طهران: ١٣٤٢ش.
- ١٣٤٨ - سفرنامه حج
(بالفارسية)
حاجي محمد حسين خان بن بايرام

- علي خان
ظ: استوري ١١٤٨.
فهرستواره منزوي ١٠٤/١.
١٣٤٩ - سفرنامه حج (ب) (بالفارسية)
(رحلة الى مكة مع أخيه آقا محمد
في شهر رمضان سنة ١٣٠٧هـ،
بالفارسية)
محمد حسين همداني رضوي
ظ: نسخه ها ٤٠٣٠/٦، نشریه
٣٧٨/٥.
فهرستواره منزوي ١٠٥/١، ١٢٦.
١٣٥٠ - سفرنامه حج (ب) (بالفارسية)
محمد علي بن محمد رضي بروجردي
ألفه سنة ١٢٧٦هـ.
١٣٥١ - سفرنامه حج (ب) (بالفارسية)
(رحلة الى مكة والمدينة من سنة
١٢٥٤هـ الى ١٢٥٦هـ، بالفارسية)
نواب عظيم الدولة محمد مصطفى
حسرتي شيفته دهلوي (ت
١٢٨٦هـ)
ظ: مشترك ٧٧٠/١١، استوري
٨٩٦، الذريعة ٢٣٩/٩ «ديوان
حسرتي»، مشار مؤلفين ٢٢٦/٦
- «وهو: ترغيب السالك للمؤلف»،
فهرستواره منزوي ١٠٥/١.
١٣٥٢ - سفرنامه حج (ب) (بالفارسية)
محمد طالقاني
مطبوع
١٣٥٣ - سفرنامه حج (ب) (بالفارسية)
ناصر خسرو فبادياني
باهتمام: نادر وزين پور
طهران: انتشارات جيبی،
١٣٥٠ش.
١٣٥٤ - سفرنامه حج ١٢٦٠ قمري (ب) (بالفارسية)
محمد ولي ميرزا قاجار
تحقيق: رسول جعفريان
[د.م]: نشر مشعر، ط ١، ١٣٧٣ش
(مع: به سوى ام القرى، وغيره).
١٣٥٥ - سفرنامه حج البيت =
سفرنامه مكة
(رحلة الى مكة، بالفارسية)
ابراهيم بن درويش محمد كازروني
[كان حياً في ١٢٧٤ م (١٣٣٤هـ)]
ظ: الذريعة ١٨٦/١٢،

- فهرستواره منزوي ١/١٠٥، ١٢٦
 ١٣٥٦ سفرنامه حج بيت الله الحرام
 (بالفارسية)
 علي أكبر ميرزائي المتخلص بتجار
 خرم آباد: ١٣٤٢ ش، ٤٨ ص.
 ١٣٥٧ - سفرنامه حج سال ١٣٣١
 قمري
 (بالفارسية)
 ميرزا علي اصفهاني
 تحقيق: رسول جعفريان
 [د.م]: نشر مشعر، ط ١، ١٣٧٣ ش
 (مع: به سوى ام القرى، وغيره).
 ١٣٥٨ - سفرنامه حج: لحظه های
 غنیمت
 (بالفارسية)
 رضا بنده خدا
 طهران: سازمان تبلیغات اسلامی
 حوزة هنري، ط ١، ١٣٧٥ ش،
 ٩٦ ص.
 ١٣٥٩ - سفرنامه حج وارهنمای
 حجاج
 (بالفارسية)
 حسين ذو القدر شجاعی
 طهران: ١٣٣٤، ٧٦ ص.
- طهران: ١٣٣٥ ش.
 ظ: الذريعة ١٢/١٨٦.
 ١٣٦٠ - سفرنامه حجاز
 (رحلة الى الحجاز في أيام أمير
 حبيب الله خان، بالفارسية)
 شاه بيگ خان ركن دربار كابل
 ظ: مشار ٣/٣٠٢٠ «سفرنامه
 حافظ» مطبوع خطأ، فهرستواره
 منزوي ١/١٠٤.
 ١٣٦١ - سفرنامه حجاز
 (رحلة الى الحجاز، بالفارسية)
 محمد حسين بن محمد علي
 شهرستاني
 (ت ١٣١٥ هـ)
 ظ: الذريعة ١٢/١٨٦.
 فهرستواره منزوي ١/١٠٤.
 ١٣٦٢ - سفرنامه حجاز
 (رحلة الى الحجاز ومكة والمدينة
 مع مولانا محمد إسحاق عن طريق
 البحر وذلك في بداية سنة ١٢٣٠ هـ
 (١٨١٥ م)، بالفارسية)
 هدايت علي بن فضل علي
 ظ: فهرست مشترك ١٠/٦٢.
 فهرستواره منزوي ١/١٠٤.

- ١٣٦٣ - سفرنامه حرمين شريفين
(بالفارسية)
حسين محيي الدين حاجي منشي
ظ: فهرستواره منزوي ١٠٥/١.
- ١٣٦٤ - سفرنامه حرمين شريفين
(بالفارسية)
محمد عرفان الدين... (قاضي)
ظ: فهرستواره منزوي ١٠٥/١.
- ١٣٦٥ - سفرنامه عتبات
(بالفارسية)
جلال بن محمد حسين جزايري
شوشري
(كان حياً سنة ١٣١٦هـ)
ظ: الذريعة ١٨٧/١٢.
- ١٣٦٦ - سفرنامه عتبات
(رحلة من همدان الى كربلا والنجف
في سنة ١٣٢١هـ، بالفارسية)
حسين خان جامي مهاجراني
ظ: نسخهها ٤٠٢٣/٦.
- ١٣٦٧ - سفرنامه عتبات
(رحلة الى العتبات في سنة
١١٣/١، بالفارسية)
- ١٣٦٨ - سفرنامه عتبات
(رحلة ناصر الدين شاه الى
العتبات مع محمد حسين رئيس
الكتاب في سنة ١٢٨٧هـ،
بالفارسية)
- ١٣٦٩ - سفرنامه عتبات
(رحلة الى العتبات بعد سنة ١٢٥٩
- ١٢٦٠هـ بقليل، بالفارسية)
محمد ولي ميرزا قاجار نجفقلي
ظ: نسخهها ٤٠٢٤/٦.
- ١٣٧٠ - سفرنامه عتبات
(رحلة الى العتبات من هرات وذلك
في بداية القرن الرابع عشر الهجري،
بالفارسية)

- محمد عظيم خان قندهاري
ظ: نسخه ها ٤٠٢٤/٦.
مجلس ٧٤/٩.
فهرستواره منزوي ١١٤/١.
سفرنامه عتبات ١٣٧١ -
(بالفارسية)
رحلة الى العتبات من اصفهان في
سنة ١٣٤٤هـ، بالفارسية)
گلستانه محمد مؤرخ
ظ: اشكوري ٢٥١/١٦.
فهرستواره منزوي ١١٤/١.
سفرنامه عتبات ١٣٧٢ -
(بالفارسية)
ناصر الدين شاه قاجار
ظ: راهنماي كتاب ١٨١/١٢
«ملخص سفرنامه عتبات».
افشار ٢٢/٣ «الرقم ٤٤١».
فهرستواره منزوي ١١٤/١.
سفرنامه عتبات ١٣٧٣ -
(قطع شعريه في وصف رحلة الى
العتبات، بالفارسية)
مشتري خراساني
(ت ١٣٠٥هـ)
ظ: نسخه ها ٤٠٢٤/٦ «سفرنامه
منظوم عتبات».
- دانشگاه ٤١٨٦/١٥.
مجلس ١٨٥/٨
فهرستواره منزوي ١١٤/١
سفرنامه عتبات ومكة ١٣٧٤ -
(بالفارسية)
سيف الدولة
مطبوع
ظ: به سوى ام القرى ١٤
سفرنامه كربلا ١٣٧٥ -
(رحلة الى كربلاء في سنة ١٢٩٩هـ،
بالفارسية)
مجهول المؤلف
ظ: فيلم ها ١٩١/٢.
نشره ١/٧ «الرقم ٥».
فهرستواره منزوي ١١٨/١.
سفرنامه كربلا ١٣٧٦ -
(الوقائع اليومية لرحلة ناصر الدين
شاه الى كربلا، بالفارسية)
ناصر الدين شاه
ظ: فهرستواره منزوي ١١٨/١.
سفرنامه مشهد ١٣٧٧ -
(رحلة ناصر الدين شاه الى مشهد
مع القائد ميرزا ابراهيم سررشته
دار في سنة ١٣٠٠هـ، بالفارسية)

- ابراهيم سر رشته دار
ظ: نسخه ها ٤٠١٠/٦ «سفرنامه»
امين لشكر.
مشهد، فردوس ١٠٥ «سفرنامه»
ميرزا ابراهيم.
نشریه ٩٣/٣ «سفرنامه ايمین لشکر».
فهرستواره منزوي ١٢٣/١.
- ١٣٧٨ - سفرنامه مشهد
(بالفارسية)
وکیل الملك ميرزا اسد الله منشی
وزير مختار
ظ: فيلمها ٢٧٥/٢.
فهرستواره ١٢٤/١.
- ١٣٧٩ - سفرنامه مشهد
(رحلة الى مشهد في سنة ١٣١٥هـ،
بالفارسية)
رضا تبيان الملك تبريزي
ظ: الذريعة ١٨٨/١٢ «سفرنامه».
فهرستواره منزوي ١٢٣/١.
- ١٣٨٠ - سفرنامه مشهد
(رحلة من طهران الى مشهد «بداية
المشروطة»، منظوم بالفارسية)
شفيع خان محرم تفرشي
- ظ: نسخه ها ٤٠٣٤/٦ «سفرنامه»
منظوم (مشهد).
الذريعة ٢٠٨/١٩ «مثنوي
سفرنامه».
دانشگاه طهران ٢٠٦٨/١١.
فهرستواره منزوي ١٢٣/١.
- ١٣٨١ - سفرنامه مشهد
(رحلة الى مشهد في نهاية القرن
الثالث عشر الهجري، المتن باللغة
الأوردية) مترجم الى الفارسية
صوبيدار بني أحمد
ترجمه: سيد امتياز حسين
ظ: مشترك ٦٧/١٠.
كنج بخش «الرقم ٨١٢٧».
فهرستواره منزوي ١٢٤/١.
- ١٣٨٢ - سفرنامه مشهد
(رحلة ناصر الدين شاه الى مشهد
مع خادمه وطبيبه حكيم الممالك في
سنه ١٢٨٣هـ، بالفارسية)
علي نقي حكيم الممالك
ظ: الذريعة ١٨٩/١٢، آستان
قدس ١٣٤/٣ «سفرنامه حكيم
الممالك ٨٣ - ١٢٨٤هـ»، تبريز،
دانشگاه، تسبيحي ٤١ «سفرنامه»

- ناصر الدين شاه به خراسان»،
دانشگاه ٣١٤٥/١٣ «سفرنامه يا
روزنامه»، مشهد، فردوسي ١٠٥
«سفرنامه حكيم المالك»، نشریه
٩٣/٣ «سفرنامه حكيم المالك»
فهرستواره منزوي ١٢٣/١.
- ١٣٨٣ - سفرنامه مشهد
- (رحلة من اصفهان الى مشهد،
منظوم بالفارسية)
محمد داود عشوح اصفهاني
(ت ١١٣٣هـ)
ظ: نسخهها ٤٠٣٣/٦ «سفرنامه
منظوم»، الذريعة ٢٠٧/١٩ «مثنوي
سفرنامه»، سپهسالار ٥٩٥/٢ -
٥٩٨، فهرستواره منزوي ١٢٣/١.
- ١٣٨٤ - سفرنامه مشهد
- (بالفارسية)
ناصر الدين شاه قاجار
ظ: مشار ٣٠٣٠/٣ «سفرنامه
ناصر الدين شاه به مشهد»، نشریه
٣٩٤/٥ «سفرنامه ناصر الدين
شاه»، فهرستواره منزوي ١٢٤/١.
- ١٣٨٥ - سفرنامه مكة
- (رحلة الى مكة في سنة ١٢٨٨هـ،
بالفارسية)
مجهول المؤلف
ظ: نسخهها ٤٠٣٢/٦.
فيلمها ١٢١/١.
ملي طهران ٣٠١/٢.
فهرستواره منزوي ١٢٦/١.
- ١٣٨٦ - سفرنامه مكة
- (رحلة الى مكة من طهران وذلك في
سنة ١٢٩٦هـ، بالفارسية)
مجهول المؤلف
ظ: نسخهها ٤٠٣٢/٦.
ملي طهران ٣٩٩/٢.
فهرستواره منزوي ١٢٦/١.
- ١٣٨٧ - سفرنامه مكة
- (رحلة الى مكة في سنة ١٢٦١هـ،
بالفارسية)
مجهول المؤلف
ظ: ملك ٤٦٥/٣.
فهرستواره منزوي ١٢٦/١.
- ١٣٨٨ - سفرنامه مكة
- (رحلة الى مكة والمدينة مروراً
بـ كربلاء في سنة ١٣٠٩هـ،
بالفارسية)
مجهول المؤلف

- ظ: نسخهها ٤٠٣٢/٦.
- ادبيات حكمت طهران ٢٠.
- فهرستواره منزوي ١٢٧/١.
- ١٣٨٩ - سفرنامه مكه
- (رحلة الى مكة من طريق مشهد في سنة ١٣١٩هـ، بالفارسية)
- مجهول المؤلف
- ظ: چند نسخه خطي ١٠٥/١.
- فهرستواره منزوي ١٢٧/١.
- ١٣٩٠ - سفرنامه مكه
- (الفارسية)
- ظ: آشنایی با چند نسخه خطي ١٠٥.
- ١٣٩١ - سفرنامه مكه
- (الفارسية)
- خ: المرعشي في قم برقم ٦٣٨٨.
- ١٣٩٢ - سفرنامه مكه
- (الفارسية)
- مُهدى إلى ناصر الدين شاه سنة ١٢٩٧هـ.
- خ: ملي في طهران برقم ٨٦٥ف.
- ظ: به سوى ام القرى ١٤ - ١٥.
- العرب س ٣٢: ج ١، ٢ (٧)، ١٤١٧/٨هـ - ١١، ١٢/١٩٩٦م)
- ص ٣٢.
- ١٣٩٣ - سفرنامه مكه = سفرنامه منظوم
- (رحلة الى مكة والعتبات نظمها باسم محمد شاه قاجار، بالفارسية)
- ميرزا جلاير
- ظ: نسخهها ٤٠٣٣/٦.
- الذريعة ٢٠٧/١٩ «مثنوي سفرنامه مكه».
- ملي طهران ٣٧٤/٢.
- فهرستواره منزوي ١٢٥/١ و ١٢٧.
- ١٣٩٤ - سفرنامه مكه
- (رحلة الى مكة في النصف الأول من القرن ١٤هـ، بالفارسية)
- داوود وزير وظايف
- ظ: نسخهها ٤٠٣٠/٦.
- آستان قدس ١٢٣/٧.
- دو كتابخانه مشهد ٨٤٤.
- آستان قدس (القبائي) ٣٠٨ (سفرنامه).
- فهرستواره منزوي ١٢٦/١.
- ١٣٩٥ - سفرنامه مكه
- دليل الأنام في سبيل زيارة بيت الله الحرام والقدس الشريف ومدينة

- السلام
(بالفارسية)
سلطان مراد حسام السلطنة بن
عباس ميرزا (١٢٣٣ - ١٣٠٠ هـ)
اعداد: رسول جعفريان
طهران: نشر مشعر، ط ١،
١٣٧٤ ش، ٣٦٠ ص، ٢٤ سم.
مِيقَاتُ حَجِّ. س ٤: ع ١٢ (تابستان
١٣٧٤ ش) ص ١٩٧ - ١٩٩.
- ١٣٩٦ - سفرنامه مكه = سفرنامه
منظوم
(رحلة الى مكة، منظومة محدود
١٣٠٠ بيت، بالفارسية)
زوجة ميرزا خليل رقم نويس
دربار صفوي
خ: جامعة طهران برقم ٢٥٩١،
الأوراق ٧٦٤ - ٧٧٩.
ظ: نسخهها ٤٠٣٤/٦.
الذريعة ٢٠٧/١٩.
افشار ٢٤/٣ «الرقم ٤٩١، مثنوي
سفرنامه ومجازيه».
دانشگاه طهران ١٤٠٦/٩
«سفرنامه زوجة...».
فهرستواره منزوي ١٢٥/١ و ١٢٧.
- ١٣٩٧ - سفرنامه مكه
(رحلة الى مكة، بالفارسية)
شهزاده خانم دختر فرهاد ميرزا
همسر نصير الدولة
مِيقَاتُ حَجِّ: ع ١٧ (پاييز
١٣٧٥ ش) ص ٥٧ - ١١٧ (رسول
جعفریان).
ظ: شنا ١٧٢/٢.
نشریه ١٧٩/٧ (?).
فهرستواره منزوي ١٢٥/١.
- ١٣٩٨ - سفرنامه مكه
(رحلة الى مكة في سنة ١١٢٩ هـ،
بالفارسية)
ضياء الدين آل كيوان قاري
ظ: نسخهها ٤٠٣١/٦.
مجلس ١٣٦٥/١٠ «سفرنامه
حج».
فهرستواره منزوي ١٢٤/١.
- ١٣٩٩ - سفرنامه مكه
(بالفارسية)
عبدالحسين خان افشار
ظ: به سوى ام القرى ١٥.
١٤٠٠ - سفرنامه مكه
(بالفارسية)

- أمين الدولة علي بن محمد الملك محمد، ت ١٣٢٢هـ.
طهران: ١٣٢٨ش، ١٩٩ص، ٢٤سم.
ظ: الذريعة ١٨٩/١٢.
فهرستواره منزوي ١٢٥/١.
- ١٤٠١ - سفرنامه مكه
(رحلة الى مكة في سنة ١٢٦٣هـ،
بالفارسية)
علي خان اعتماد السلطنة
ظ: نسخها ٤٠٣١/٦، الذريعة
١٨٦/١٢ «سفرنامه بيت الله»،
آستان قدس ٩٠/٣، تبريز
١٦١/١، آستان قدس، الفبايي
٣٠٨ «سفرنامه علي خان...»،
فهرستواره منزوي ١٢٤/١.
- ١٤٠٢ - سفرنامه مكه
(بالفارسية)
علي خان حاجب الدولة
ظ: به سوى ام القرى ١٤.
١٤٠٣ - سفرنامه مكه
(رحلة الى مكة، بالفارسية)
علي خان والي خوزستان
ظ: فهرستواره منزوي ١٢٥/١.
- ١٤٠٤ - سفرنامه مكه
(رحلة الى مكة في سنة ١٣٢٥هـ،
بالفارسية)
علي صدر الذاكرين تفرش تهراني
ظ: الذريعة ١٨٩/١٢.
فهرستواره منزوي ١٢٥/١.
- ١٤٠٥ - سفرنامه مكه = هدايت
السبيل وكفاية الدليل
(رحلة الى مكة في سنة ١٢٧٢هـ،
بالفارسية)
فرهاد ميرزا قاجار (ت ١٣٠٥هـ)
(مطبوع)
خ: مجلس الشورى الثانى بطهران
برقم ١٢٢٥
ظ: نسخها ٤٠٥٦/٦، الذريعة
١٨٩/١٢ «سفرنامه مكه»
و ١٧٧/٢٥، استوري ١١٥٧
«الرقم ١٦٢٤»، برگل ٨٦٣/٢،
٨٦٤، مشار ٥٤٦٠/٥ «طبعة
واحدة»، مشار مؤلفين ٨٢٠/٤،
آستان قدس ١٥٥/٣، فيلمها
١٢١/١، ملي تبريز ١٨٤/١،
نشره ١٤١/٣، ٢٥٢، آصفيه هند
٣٥٠/٣ «الرقم: ٩٦»، فهرستواره
منزوي ١٢٥/١ و ١٥٧.

١٤٠٦ - سفرنامه مکه

(رحلة الى مكة في سنة ١٣٤٨هـ،

بالفارسية)

لطفعلي اعلايي

ظ: نسخهها ٤٠٣١/٦، آستان

قدس ١٢٤/٧، آستان قدس

«الفباي» ٣٠٨ «سفرنامه»،

فهرستواره منزوي ١٢٤/١.

١٤٠٧ - سفرنامه مکه

(بالفارسية)

محمد بن اسماعيل الشهير بقيري

خ: مسجد أعظم برقم ٢٩٤٧.

ظ: فهرستواره منزوي ١٢٥/١.

١٤٠٨ - سفرنامه مکه

(رحلة الى مكة، وفيها مقطوعات

شعرية في وصف العتبات المقدسة،

بالفارسية)

محمد إبراهيم مشتري خراسان

(ت ١٣٠٥هـ)

ظ: نسخهها ٤٠٣٤/٦ (سفرنامه

منظوم)، الذريعة ١٨٩/١٢

(سفرنامه حاج ميرزا مشتري به

مكة) و ٢٠٨/١٩ (سفرنامه مکه)

به نظم، مشار ٣٠٢٧/٣ (سفرنامه

حاج ميرزا مشتري به مکه)،

آستان قدس ٥١١/٧ (ضمن

ديوانه)، جامعة طهران ٢٧٨٨/١٢

رقم ٣٨٠٦ (سفرنامه)

و ٤١٨٦/١٥ رقم ٥٢٦٣، ملك

٤٦٦/٣ (سفرنامه مکه)، مجلس

٤١٥/٣، فهرستواره منزوي

١٢٦/١.

١٤٠٩ - سفرنامه مکه

(رحلة الى مكة من طريق رشت

وذلك في سنة ١٢٧٩هـ، بالفارسية)

سيف الدولة سلطان محمد بن

فتحعلي شاه قاجار

ظ: نسخهها ٤٠٣١/٦، ملي طهران

٢٨٢/٢، فهرستواره منزوي

١٢٥/١.

١٤١٠ - سفرنامه مکه

(بالفارسية)

محمد تاجر طهراني

خ: المرعشي في قم برقم ٩٠٠٨.

١٤١١ - سفرنامه مکه

(بالفارسية)

محمد رضا بن عبدالجليل حسني

حسيني طباطبائي تبريزي

- خ: ملك في طهران برقم ٢٣٥٧. منزوي ١٢٦/١.
- ظ: فهرست المكتبة ٤٦٥/٣، سفرنامه مكه ١٤١٥ - نائب الصدر الشيرازي طبع في بمبي
- فهرستواره منزوي ١٢٥/١. ١٤١٢ - سفرنامه مكه (بالفارسية)
- محمد علي فراهاني ١٤١٦ - سفرنامه مكه ومدينه وكربلا (بالفارسية)
- خ: مجلس الشورى في طهران برقم ٢٣١٠. خ: مكتبة إمام الجمعة في كرمان
- ظ: فهرست المجلس ٢٦٨/٦، برقم ٣٩٣. ظ: العرب. س ٣٢: ج ١، ٢ (٧)،
- فهرستواره منزوي ١٢٥/١. ١٤١٣ - سفرنامه مكه = هدايت السبيل
- (رحلة الى مكة، بالفارسية) ١٤١٧ - سفرنامه ناصر خسرو
- محمد علي منشي (ابن فتحعلي شاه) حج در آينه سفرنامهها (بالفارسية)
- ظ: فيلمها ١٢١/١، نسخهها حسن اسلامي
- ٤٠٥٦/٦، الذريعة ١٧٧/٢٥، فهرستواره منزوي ١٢٧/١ و ١٥٧. مِيقَاتُ حَجَّ س ٢: ع ٥ (پايز ١٣٧٢ ش) ص ٢٣٥ - ٢٥٤
- ١٤١٤ - سفرنامه مكه ١٤١٨ - سفرنامه هاي حج در ادب عربي (سر مقاله)
- (رحلة الى مكة في سنة ١٣٢١ هـ، بالفارسية) مِيقَاتُ حَجَّ ع ١٧ (پايز ١٣٧٥ ش) ص ٥ - ٢٠
- خ: ملك بطهران برقم ٣٨٩٩. ١٤١٩ - سفري به ديار معبود
- ظ: ملك ٤٦٦/٣، فهرستواره ثريا قدك پور

- مِيقَاتُ حَجٍّ: ع ١٧ (پاییز ١٣٧٥ ش) ص ٢٠٤ - ٢١٨. 
- ١٤٢٠ - سفينة الأدعية والزيارات  بعض المعاصرين
ظ: الذريعة ١٢/١٩٣، معجم ما
كتب عن الرسول وأهل البيت
صلوات الله عليهم ٥٢٥/٩.
- ١٤٢١ - سكان المدينة المنورة  محمد شوقي بن إبراهيم مكّي
الرياض: دار العلوم، ١٤٠٥ هـ،
٢٤٣ ص، ٢١ سم.
- ١٤٢٢ - السلاح والعدة في تاريخ
جدة  عبد القادر بن أحمد بن محمد بن فرج
الشافعي الخطيب ت ١٠١٠ هـ.
خ: الحرم المكي برقم ٢٨.
- ١٤٢٣ - السلام عليكم يا سيدي
رسول الله  حامد الجوهري
الهداية س ١٢: ع ١٣٣
(١٠/١٩٨٨ م) ص ٢٠ - ٢٥.
- ١٤٢٤ - السلام عليك يا رسول الله  محمد عبده يماني
الإسلام ووطن س ٤: ع ٤٧
- (٢/١٩٩١ م) ص ١٦ - ١٧.
١٤٢٥ - سمط النجوم العوالي في
أنباء الأوائل والتوالي
(يشتمل المجلد الرابع منه على
أشرف مكة المكرمة إلى وفاة
المؤلف)
عبد الملك بن حسين بن عبد الملك
العصامي المكي (١٠٤٩ - ١١١١ هـ)
قدم له: محب الدين الخطيب
القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٨٠ هـ،
٤ مج (يشتهر هذا الكتاب باسم:
تاريخ العصامي).
- ١٤٢٦ - السمهودي أشهر مؤرخي
المدينة  حمد الجاسر
العرب (الرياض). س ٧: ع ٣
(٩/١٣٩٢ هـ = ١١/١٩٧٢ م)
ص ١٦١ - ١٧٨.
- ١٤٢٧ - سندی از يك حج نيابتي  جمال الدين تراي طباطبائي
مِيقَاتُ حَجٍّ: ع ٢٣ (بهار ١٣٧٧ ش)
ص ٦٩ - ٧٤.
- ١٤٢٨ - السنن والمبتدعات المتعلقة
بالأذكار والصلوات 

- محمد عبدالسلام خضر الشقيري
بيروت: دار الكتب العلمية،
١٩٨٠م، ٤٣٩ص.
- كاظم أرفع
طهران: تربت، ط ١، ١٣٧٥ش،
٦٤ص، ٢١سم.
- ١٤٢٩ - السنة والحج المبرور
معوض عوض إبراهيم
الأزهر (القاهرة) س ٦١: ع ١٢
(١٩٨٩/٧م) ص ١٣٢٧ - ١٣٣٠.
- ١٤٣٤ - سياحتي الى الحجاز
غريب بن عجيب الهاشمي
القاهرة: ١٩١٥م، ٤٥٧ص.
- ١٤٣٥ - السيدة زبيدة ودورها
السياسي والعمراني في مكة
والمدينة
ملك محمد محمد الخياط
مكة المكرمة، جامعة أم القرى، كلية
الشريعة، ١٩٨٢م، ٢٥٧ص
(ماجستير).
- ١٤٣٠ - سهولة الحج في عهد الأمن
والإصلاح
المنهل (جدة) مج ٢: ج ٨ (١٣٥٧/٧هـ)
= (١٩٣٨/٩) ص ٢٧.
- ١٤٣١ - سوانح سفر الحجاز
(رحلة الى الحجاز، بالفارسية)
مجهول المؤلف
ظ: استوري ١٦١ برقم
١٦٣١/٢٠، فهرستواره منزوي
١٣٤/١.
- ١٤٣٢ - سوژه های سخن در مکه
ومدينه
(بالفارسية)
طهران: نشر مشعر، ط ١،
١٣٧٢ش، ١١٥ص، ٢٤سم.
- ١٤٣٦ - سيرة الرسول في مكة كما
بدت في شعر بعض معاصريه
معيد خان
الرسالة الإسلامية (بغداد) ع ٤٦
(١٣٩٢هـ) ص ١٠ - ١٨.
- ١٤٣٧ - سيرة عن الحرمين
إبراهيم عبده
طبع بالقاهرة عام ١٣٨٠هـ.
- ١٤٣٣ - سوغات حج
(بالفارسية)
ظ: المنهل (جدة) س ٥٦: ع ٤٧٥

- ٣ - ١٠/٤ هـ = ١٠ - ١٦٨ ص، ٢١ سم.
- ١٩٨٩/١١ م) ص ٢٠٦. ١٤٤٢ - سيري كوتاه در
- ١٤٣٨ - سيرة من الحرمين محمد السنوسي
- المنهل (جدة) مج ٢١: ج ٩
- ١٣٨٠/١١ هـ = ١٩٦١/٤ م) ص ٦٣٤ - ٦٣٦.
- ١٤٣٩ - سيري در اماكن سرزمين وحي
- (بالفارسية) علي أكبر حسني
- طهران: نشر مشعر، ط ١، ١٣٧١ ش، ص ١٣٦، ٢١ سم.
- ١٤٤٠ - سيري در مدينه، سفري به مکه
- (بالفارسية) أحمد محفوظي
- زائر س ١: ٢٤ (ارديبهشت ١٣٧٣ ش) ص ١٥ - ٢٢.
- ١٤٤١ - سيري در وادي عشق
- (تعريف بمكة المكرمة والمدينة المنورة، بالفارسية) محمد مهدي شمس الدين
- قم: انتشارات شفق، ط ١، ١٣٧٣ هـ.
- ١٤٤٣ - اسيماي حج در سال ١٣٧٠ ش
- (تقرير عن نشاط بعثة الولي الفقيه في الحج لسنة ١٣٧٠ ش، بالفارسية)
- مرتضى سرهنكي، وعبدالله گويان، وهدايت الله بهبودي
- طهران: حوزه نمايندگي ولي فقيه در امور حج وزيارت، ط ١، ١٣٧١ ش، ص ٣٩٦، تصاوير.
- ١٤٤٤ - السيول في منطقة مكة المكرمة
- أحمد سعيد حديد
- المجلة التاريخية المصرية ع ٣ (١٩٧٤ م) ص ٣٤٢ - ٣٦٢.
- ١٤٤٥ - الشؤون الاقتصادية والمالية
- في حياة الدولة العربية الاسلامية الأولى

- الحبيب الجنحاني
قضايا عربية س ١٠: ٢٤ (٢) /
١٩٨٣م)، ص ١٠٩ - ١٣٩.
- ١٤٤٦ - شؤون الحرمين الشريفين
في العهد العثماني: في ضوء
الوثائق التركية العثمانية
محمد عبد اللطيف هريدي
القاهرة: دار الزهراء للنشر، ط ١،
١٩٨٩، ١٦٣ ص .
- ١٤٤٧ - اشارة النجاة في حجة الوداع
أحمد بن علي المقرئ ت ٨٤٥ هـ ط
هدية العارفين ١ / ١٢٧، معجم ما
آلف عن رسول الله (ص) ٢٤٥.
- ١٤٤٨ - شاهد المشاهد
(يعني مراقد الأئمة (ع) في ذكر شرفها
وتفاصيل زياراتها الصحيحة
وتواريخها المعتمدة).
هبة الدين الشهرستاني
ط: الذريعة ١٣ / ١٥، معجم ما
كتب عن الرسول وأهل البيت
صلوات الله عليهم ٩ / ٥٣٥.
- ١٤٤٩ - شبهاى مكّه: سرگذشت سفر
من
(بالفارسية)
- حسن أبطحي
مشهد : انتشارات كانون بحث
وانتقاد ديني، ط ١، ١٤٠٤ هـ ٤٦٩
ص، ٢ ج، ٢٤ سم.
- ١٤٥٠ - شبه جزيرة العرب: الحجاز
محمود شاكر
دمشق: المكتب الاسلامي، ط ١،
١٩٧٧م، ٢٠١ ص ٢١ سم.
- ١٤٥١ - الشجرة النبوية في بطون
قريش وقبائلها
الدجاني
طبع في مصر.
ظ معجم المطبوعات لسركيس
٨٦٦.
- ١٤٥٢ - شخصيات من الحرمين
الشريفيين (٧)
أم المؤمنين خديجة الكبرى
محمد سليمان
ميقات الحج: ع ٩ (١٤١٩ هـ)
ص ١٢٣ - ١٤١.
- ١٤٥٣ - شخصيات من الحرمين
الشريفيين (٨)
عمار بن ياسر
محسن الأسدي

هادى امينى، و محسن آخوندى
مِيقَاتُ حَجِّ س ٢ : ع ٤ (تابستان
١٣٧٢ش) ص ١٥٣ - ١٦٤.

📖 ١٤٥٧ - شرح حديث ما بين قبري
ومنبري روضة من رياض الجنة
ومنبري على حوضي.
من المحتمل انه : ل صدر الدين
الشيرازي
ظ الذريعة ١٣ / ٢٠٦.

📖 ١٤٥٨ - شرح دعاء عرفة
محمد علي فاضل
خ: المكتبة الرضوية برقم ٦٧٤٦.
📖 ١٤٥٩ - شرح زيارت جامعة كبيره
(بالفارسية)
محمد الحسيني الشبستري
المشهور بوحيدى
طهران: مصطفى، ١٣٣٣ ش،
٢٢٢ ص، ٢١ سم.

📖 ١٤٦٠ - شرح زيارت جامعة كبيره
(بالفارسية)
محمد هادي شيخ الإسلامى (فخر
المحققين الشيرازي) تحقيق: محمد
جواد الطبسي الحائري
مشهد : مكتبة الطبسي الحائري

مِيقَاتُ الْحَجِّ: ع ١٠ (١٤١٩هـ)
ص ٢٠٩ - ٢٣٣.

📖 ١٤٥٤ - شَدُّ الْأَبْوَابِ فِي سَدِّ الْأَبْوَابِ
في المسجد النبوي
جلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ
خ: المكتبة المحمدية برقم ٩٧ مجاميع.
برلين ٩٧٥٦ / ٢١.

جامعة الرياض فيلم ٩٥.
طبع في القاهرة: بضمن الحاوي
للفتاوي ٢ / ١٠٢ ظ كشف الظنون
١٠٢٨، حسن المحاضرة ١ / ٣٤٢،
هدية العارفين ١ / ٥٤٠.

📖 ١٤٥٥ - شَدُّ الرِّحَالِ إِلَى مَسْجِدِ
الرَّسُولِ: الْقَبْرِ الشَّرِيفِ أُمِّ
الْمَسْجِدِ الشَّرِيفِ أَيُّهُمَا لَهُ النِّيَّةُ
الْأُولَى؟ عِنْدَ الْقَبْرِ وَفِي الْمَسْجِدِ
مُشَاهِدَ مُتَرَابِطَةِ وَذَكَرِيَّاتٍ
مُتَّالِفَةٍ:

كمال أحمد عون
منبر الاسلام (القاهرة) س ٤٨:
ع ١٢ (٧ / ١٩٩٠) (١٢ /
١٤١٠هـ)

📖 ١٤٥٦ - شَرَاغَتْ كَعْبُهُ وَبَرْتَرَى أَنْ بَرَّ
بيت المقدس (بالفارسية)

١٤٦١ - شرح الزيارة

محمد الشهير بلايد بن ناصر بن
حسين الصيقل آل عيسى (١٢٤٥ -
١٣٢٦هـ)

ظ: ماضي النجف وحاضرها ٣ /
٥٢٣، معارف الرجال ٢ / ٣٨١،
معجم ما كتب عن الرسول وأهل
البيت صلوات الله عليهم ٥ / ٥٤٣.

١٤٦٢ - شرح الزيارة الجامعة

(شرح مختصر لهذه الزيارة المروية
عن الإمام الهادي عليه السلام)
معين الدين أشرف بن محمد صادق
الحسيني

ظ: معجم ما كتب عن الرسول
وأهل البيت صلوات الله عليهم ٩ /
٥٤٤.

١٤٦٣ - شرح الزيارة الجامعة

علي نقى بن حسين المعروف بالحاج
آغا بن السيد المجاهد الطباطبائي
الحائري ت ١٢٨٩هـ

ظ: الذريعة ١٣ / ٣٠٦، معجم ما
كتب عن الرسول وأهل البيت
عليهم السلام ٩ / ٥٤٤.

١٤٦٤ - شرح الزيارة الجامعة

محمد بن عبد الكريم الطباطبائي
البروجردى
ظ: الذريعة ١٣ / ٣٠٦، معجم ما
كتب عن الرسول وأهل البيت
صلوات الله عليهم ٩ / ٥٤٤.

١٤٦٥ - شرح الزيارة الجامعة

بهاء الدين محمد بن محمد باقر
الحسيني النائيني المختاري،
ت ١١٣٥هـ

ظ: الذريعة ١٣ / ٣٠٦، معجم ما
كتب عن الرسول وأهل البيت
عليهم السلام ٩ / ٥٤٤.

١٤٦٦ - شرح الزيارة الجامعة

محمد تقى بن مقصود على الاصفهاني
المجلسي ت ١٠٧٠هـ

ظ: الذريعة ١٣ / ٣٠٥، معجم ما
كتب عن الرسول وأهل البيت
صلوات الله عليهم ٩ / ٥٤٤ -
٥٤٥.

